19 سلسلة الدراسات التوثيقية

بعض من الذكرى
وشيء من الخواطر

أ.د محجوب محمد آدم



الطبعة الأولى- 2022م

بعض من الذكرى وشيء من الخواطر - أ.د محجوب محمد آدم

القارئ الكريم:

سلسلة الدراسات التوثيقية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مجلة القلزم للدراسات التوثيقية.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات و البحوث التوثيقية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

بعض من الذكرى ...
وشـيء من الخواطر

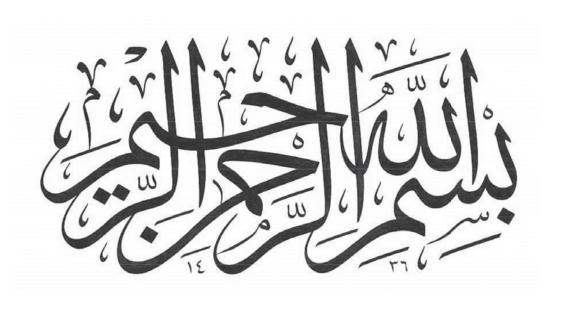
أ.د. محجوب محمد آدم

2022م

الكتاب : بعض من الذكرى وشيئ من الخواطر
تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2022م
التصميم والإخراج: علي عبد الحليم كابتود



جوال : 00249910785855 00249121566207-
arithriaforpublishing@gmail.com



﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

سورة الفرقان - الآية ٦٢

الفهرست

إهداء

ليسمح لي كل أصدقائي أن أخصَّ بهذا الإهداء

أخي

محمد خليل كاره

الإعلامي الأديب

ففي داره العامرة بالشارقة ، وبإيعاز منه ، بدأت أرسم بعض بوحي : جنوح خواطري وتداعيات ذكرياتي.. رجاء أن يتقبله ، ويعفو عما خاننا فيه التعبير.. أو وقع منا من تقصير ..

* * *

ثُمالةُ من وخز القضية

أنجتي : أبو هاشم المهندس ؛

ساءني أن أجدك غير متفاعل لبعض ما يُسمَح لنا (عُرفاً) بطَرْقه ، وتنبيه المسئولين به ، وعملاً بمعروف أُمرنا به، ويحزُّ في النفس أن لا تتكاتف فيه قوى الأمة لتصديه ومواجهة آثاره، ودفع أذىً نحن نراه رأي العين، ونتلمس أخطاره حتى ليتجسم أمامنا واضحة المعالم.

ليس بَوحاً .. ولكنه نَوحٌ على ما ننحدر إليه مبصرين ..

حتى إن ما نوظِّفْه من الحكمة لم تَعُد تُؤتي أكُلَه .. ولم يَعُد الوخزُ بِرادٍ قوماً غافلين ..

ليس لنا إلا انتظار جيلكم أن يهُبَّ من سُباته العميق .. ويتخلَّص من آثار ما نحن فيه من الوهن الحضاري ..

لقد أسْمَعتَ لو ناديتَ حيّاً — ولكن لا حياةَ لمن تُنَادِي

ولو نَاراً نفَخْتَ بها أضَاءت — ولكن أنتَ تَنفَخُ في رَمَاد

وعفواً على رنة الأسى .. فعمَّا قريبٍ مصيري أن أنسَى ..

وسار معاهم أينما ساروا !!

عنِّي مالم ! !

طبيعة الذكريات وحقيقة الخواطر

مـا كان أكـثر أحلامـي ، وتشـتت أفـكاري ، واسـتمرائي لـكل حبكـة أضعهـا لفكـرة تـراودني بما ينبغـي أن أكونـه ، أو مـا أتمنـى أن ألعبـه مـن دور .. أضيـف لهـا ، وأحـذف منهـا .. وتأخـذ الفكـرة أوضاعـاً ، وتتنـوع صورهـا .. وقـد انقـاد لغيرهـا ، وأخـرى وثالثـة .. وتتـوالى الأيـام ، وتتوالـد الأفـكار .. أسـتلذ ببعضهـا فأبقيهـا لجلسـات .. وأصقلهـا بتحويـر أجزائهـا ، وتشـذيب أطرافهـا .. وقلـما اسـتيقظ بـإرادتي مـن متابعـة جنـوح الخيـال في أحلامـي ..

فـإذا قضيـت تلـك المرحلـة ببركـة تـوالي السـنون ، وتراكـم التجـارب ، ومـرارة الواقـع ، أو ضرورة اليقظـة فيـه ؛ وجدتنـي أفـرح بالذكـرى ، وأرى المـاضي بـروح الفكـر ، وتدبُّـر مناحيـه ، واسـتخلاص العـبر مـن خلالـه ..

مشـكلتي أن المـاضي الـذي يعنينـي أمـره ليـس واقعـاً صرفـاً بأحـداث تسلسـل وقوعهـا زمانـاً ، وأخـذ حيزهـا مكانـاً .. بـل هـي وقائـع اختلـط مـا وقـع منهـا بمـا أضفيتـه عليهـا مـن الأحـلام عـلى مـرِّ الأيـام ، وصُغـتُ لهـا مـن الصـور ، وأحكمـت زواياهـا ، أو عدَّلـتُ مـن حبكتهـا لتناسـب مـا أريـد لهـا مـن التدبـر ، أو اسـتخلاص العـبر والعظـات ..

إن الفكـرة التـي تهاجمنـي في هـذه اللحظـة هـي : إلى أي مـدى يمكـن أن تسـتفيد أنـت مـن جنـوح خواطـري ، وتداعيـات ذكريـاتي ، وإن غلَّفتهـا بمـا أدعيـه مـن الخـبرة ، أو أبديه من الحكمـة .. نصحنـي بعضهـم أن أتـرك أمـر ذلك إليـك .. فأنت أذكى من أن تخدعـك كلماتي ؛ إن لم أكـن صادقـاً فيهـا ، أو اسـتخلصها مـن ذاتي ، أو مـا وقع لغـيري ، ومزجته باسـتدامة فكري .. فهـل لـك أن تشـاركني في صقلهـا ، أو التفكـير فيهـا ، أو ردَّهـا لي إن لم أحسـن في عرضهـا .. وحسـبك أن تعلـم أني مـا أريـد أن أقيـد نفسـي بجديـة الطـرح ، وتنـاول كل خاطـرة أو ذكـرى بمـا تسـتحقها مـن الـدرس والتحليـل ، بقـدر مـا أحـاول أن أتجـاذب معـك أطـراف الحديـث حولهـا ، وأقدمهـا مـن خـلال طرفـة أو حادثـة أو حكمـة أو نـص مقتبـس .. وأفيـدك إنهـا خواطـر معلـم قـضى منـذ سـنة 1975م وهـو بـين حيرانـه وتلاميـذه ، ووجـد متعتـه وهـو

يقـف بينهـم وبـين السـبورة وقـد اختضـب بالطباشـير واكتحـل بغبـاره .. ويشـمَخ بأنفـه إذا رُفعـت الأيـدي ، وسـمع طرقعـات أنامـل تلاميـذه لـيردوا عـلى سـؤاله .. أكـثر مـا يحزنـه السـكوت ، وأسـوأ أيامـه العطـلات .. وأحـرج مواقفـه أن لا يجـد مـن يسـمعه ..

وخواطـره هـذه وسـيلته لأن يجـرك إلى حلبتـه .. ويضيفـك إلى أحبائـه ، ويدعـوك إلى مجلسـه .. وكـن مـن شـئت : موجهـاً أو زميـلاً ، ولا بـأس إن كنـت تلميـذاً .. بـل ويقبلـك مسـتمعاً.. لكنه يطلـب منـك حـين تتخـذ لـك مقعـداً لمتابعـة سـياحته في جـده وهزلـه ألا تـتردد في أن تقـول، وأنـت تبتسـم إن [الذكريـات حلـوة وجميلـة] أو كـما يتغنـى عثـمان الشـفيع بصوتـه الشـجي إن لم تخنـي الذاكـرة .. فالذكريـات صـدى السـنين الحـاكي كـما يقـول أحمـد شـوقي في رائعتـه في وصـف لبنـان وهـي التـي يقـول فيهـا :

يـا جـارةَ الـوادي، طَرِبْـتُ وعـادني مـا يشبـهُ الأَحـلامَ من ذكـراك
مثلـتُ في الذكـرى هـواكِ وفي الكـرى والذكريـاتُ صـدى السـنين الحـاكي

وعندمـا نحـاول بعـثرة أحـداث المـاضي ، ونعيـد نظرنـا فيهـا لا نـكاد نسـتطيع إعـادة تصنيفهـا مـن جديـد ؛ لأنهـا أصبحـت جـزءاً منـا ولا يمكننـا الاسـتغناء عنهـا .. هـذا المـاضي هو الـذي يشـكِّل تاريخنـا ، يشـكل مزاجنـا ، يرتِّـب إيقاعاتنـا ، وانسـجامنا بأنفسـنا ؛ فإنسـان بـلا ذكريـات ، هـو إنسـان ضائـع ؛ لأنـه إنسـان بـلا مـاض ، بـلا تاريـخ ، وكلـما اجتررنـا الذكريـات كلـما منحنـا حيـاة جديـدة ، نغمـة جديـدة .. لاحـظ كبـار السـن ، إنهـم لا يفـترون مـن الحـكي، مـن سرد ذكريـات ، وقـد يحـس المسـتمع لهـم أنهـم لا يحتاجـون إلا لشـخص أمامهـم صغـيراً كان أم مميـزاً ، المهـم هـو أن يحكـوا .. ويعيـدوا مـا حكـوا .. تأكـد عندئـذٍ أن الحـكي سر الحيـاة .. والذكريـات ملفـات لابـد مـن تحديثهـا وترتيبهـا ، ويـوم أن نفقـد هـذه الملفـات نفقـد أنفسـنا ، هويتنـا ، ومـع ذلـك تتناقـص أوراقنـا يومـاً بعـد يـوم .. لا يهـم في ذكرياتنـا هـل هـي عـن أحـزان قاسـية أم أفـراح رائعـة ، فهـي مهـما كانـت لا تكشـف إلا ماضينـا ، ولا مهـرب مـن ماضينـا ، ولهـذا نتعايـش معـه ، نقبلـه عـلى علاتـه . وهـل يسـتطيع أحـد أن يغـيِّر تاريخـه !!

المحور الأول : خواطر دافئة

[نـشرت هـذه الخواطـر في صفحـة الشـمالية في صحيفـة الوفـاق السـودانية منـذ سـنة ٢٠٠٦م ، ولم أشـأ أن أغـيِّر فيهـا شـيئاً ؛ سـوى مـا أجريـت عليهـا مـن تصويـب لغـوي أو تشـكيل كلمـة..]

[**1**]

لا أحد يلومك..

إن ظهرت آثار العشق عليك ..

أو أبديت غرامك جهراً نحو المحبوب ..

إن كان المعشوق هو الوطن الغالي لا إثم عليك ..

لا تتحرج بل بالغ ما شئت وعبِّر عن كل مشاعرك ..

تغزَّل فيه ..

ذُب وجداً وهياماً ..

أرفع صوتك وتحدى العالم كله .. فالحق معك ..

خبّرنا عن حبك .. عن كل تفاصيل المعشوق .. قسمات المحبوب .. لا تتردد أبداً ..

فإبلاغ حبك لمن تحب سُنّة ..

أوافقـك إن قلـت بـأن الحـب سـلوك ، ونترجمـه بمواقفنـا الايجابيـة ، ونحـوّل عشـقنا فعـلاً ، وبيانـاً بالعمـل ..

ولـك أن تختلـف مـع أهلـك وبنـي وطنـك.. ولكـن تـأدب في حـضرة مـن تهـوى وردّد حينئـذٍ :

...وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام ..

لما قالها شوقي كان مبعداً سياسياً ، منفياً ..

وتنبه : لا أحد يعطينا بلده .. وإن أُعطينا فلا شيء يعدل الوطن !

* متى استنصرت على بلدك وأهلك لا تكون جديراً بحبه والانتماء إليه ..

* لـو أراد رسـولنا الكريـم ﷺ أن يطبـق عـلى مـشركي قريـش جبـلي مكـة فيبيدهـم ؛

لكان له ما أراد .. لكنه آثر أن يقف أمام عتوهم وصلفهم وبغيهم بالحكمة والموعظة الحسنة .. وأن ينتصر لدينه بنفسه وبمن آمن معه .. وكم كان بلده عليه عزيزاً .. وبه كان حفياً .. فقد صح أنه قال يوم هجرته مودعاً أم القرى :

» والله إنك لأحب أرض الله إليَّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت «

* كم يحزنني أن يملأ بعضنا الدنيا ضجيجاً .. ويضخِّمون الأشياء .. ويبحثون عن الأخطاء .. ويبخسون الناس جهدهم ..

* ترى كم قدمنا لبلدنا ، لأرض الجدود والأب ، ما حجم مساهمتنا في تنميته وتطويره .. لأجل أن يكون عزيزاً قادراً على العطاء .. ويفيض علينا بما نستحقه منه بلا مَنٍّ ولا أذى ..

فما المطلوب من القائمين بأمر البلد ؟

في نظري : المطلوب منهم أن ينظموا .. يتابعوا .. يشرفوا .. ينسقوا ... ثم البدء فوراً في تنفيذ ما يخفِّف عن كاهل الناس في أرزاقهم ومعاشهم والتركيز على ما يرفع دخولهم ، ويدفع عنهم الفاقة والعوز ، ثم الاهتمام بصحتهم وتعليمهم ..

واعلم :

- أن يفتي كل منا وفق هواه أو هوى حزبه خارج القاعات : لا يفيد ..
- أن نتخيل أن قضايانا ومشكلاتنا الاقتصادية ستنتهي في يوم وليلة .. أو وفق هوانا : مجرد خيال ..
- أن نتوقع أن يحل لنا غيرنا مشاكلنا : مجرد وهم ..
- أن ننتظر غيرنا أو بعضنا لحل مشاكلنا .. حتى إذا اجتهدوا سلخناهم بألسنة حداد لا يناسبنا ..
- من ناحية أخرى : يجمل بنا أن ندعم كل موقف ايجابي .. لدفع صاحبه لمزيد من المواقف في صالحنا ..
- فإن قصَّر فلا يلومنا أحد إن واجهناه بتقصيره ..
- أما أن نلومه في الحق والباطل .. لا يليق بنا ..
- إن من حقهم علينا أن نبارك لهم سعيهم نحو خدمتنا .. ونعلن لهم إنا معهم ما داموا يعملون لصالحنا ومن أجلنا .. وفي انتظار المزيد ..

خاطرة ملونة:

قالوا : إن الايجابي هو من ينظر إلى الجزء المملوء من الكوب .. !!

[**2**]

قبـل يومـين شـاءت الصدفـة أن اسـتمع إلى شـباب وكهـول قـرى عموديـة كوشـة بمدينـة دنقـلا .. كانـوا يتناقشـون في أمـر جمعيتهـم الخيريـة المخصصـة لمسـاعدة مـن يفـد إلى مدينـة دنقلـة للعـلاج .. مشـكلتهم : إنهـم قلـة .. ودخولهـم محـدودة .. ومـا يجمعونـه في عـام كامـل لا يكفـي لعـلاج مريـض واحـد ؛ في ظـل مـا عليـه العـلاج مـن تكاليـف باهظـة لا يقـدر عليهـا الفقـراء وذوي الحاجـة .. وهـم غالـب المـرضى .. فـما بالهـم يتناقشـون !!

قـال أحدهـم : هـذا عطاؤنـا .. قلـت فـما بـال التأمـين الصحـي ؟ كان أحدهـم حاسـماً : إن التأمـين الصحـي في منطقتنـا لم يبلـغ إلا قليـلاً مـن العاملـين في الدولـة ممـن يسـتطيعون تسـديد أقسـاطهم ..

قلـت : ومـاذا عـن ديـوان الـزكاة وأجهـزة الرعايـة الاجتماعيـة ؟ قـال سـاخراً : لا تسـألوا عـن أشـياء ...

قلـت منزعجـاً : لا تبخسـوا النـاس جهدهـم !! ومـا يبذلونـه مـن الدراسـات والمسـوح الاجتماعيـة !! لاشـك أنهـم ملمـون بـكل كبـيرة وصغـيرة عـن قراكـم وحاجـة النـاس فيهـا ، ومشـاكلهم و...

قبل أن أكمل حديثي وجدتهم ينسحبون فرادى وجماعات ..

لمـا رأى مضيفـي مـا في وجهـي مـن دهشـة ؛ ضحـك مـلء شـدقيه ، وقـال : لقـد حسـبك النـاس مـن الجماعة ..

خاطرة ملونة:

قـال أحـد المحبـين لصاحبـه : لقـد فاتتـك فرصـة عظيمـة بالأمـس ؛ فقـد ألقـى شـيخنا الإمـام خطبـة عصـماء .. فسـأله صاحبـه ببسـاطة : ومـاذا قـال فيهـا ؟

لم يتردد الرجل في الإجابة وهو يقول : ومن منّا يستطيع أن يفهم كلامه !!

[**3**]

كانـت دنقلـة صبيحـة زيـارتي الأخـيرة لهـا قـد اكتسـت بياضـاً ، وكواكـب المعلمـين يتدافعـون نحـو مؤتمـر التعليـم ، وقـد تزاحمـت آمالهـم وأشـواقهم في بنـاء صرح العلـم .. تحسـبهم لفـرط حماسـهم سـيبدأون في طـرح مـا جـاءوا بـه مـن الأفـكار والـرؤى قبـل بـدء المؤتمـر .. ولكـن المؤتمـر بـدأ .. وقُدِّمـت الأوراق المصقولـة كعـادة المؤتمـرات .. وسـمع النـاس كلامـاً كثـيراً ..

لم اسـتطع يومهـا أن أقـول لصديقـي الوزيـر المهـذب : متـى يَـأْنِ لبلادنـا أن تخطِّـط في هـدوء مـا تقـدر أن تنفـذه ، وأن تقـول مـا تؤمـن بـه ، ومـا تريـد أن تقولـه حقيقـة ، وأن تتلمـس خلالـه حاجـة ملحـة للجهـة المنفـذة .. أمـا أن يكـون مـن قبيـل مـا يطلبـه المسـتمعون .. أو أن يكـون واجهـة إعلاميـة لصاحـب الشـأن .. أو تنتهـي بانتهـاء الظـرف المعـين .. فتلـك مـا لا أظـن أن القائمـين بأمـر المؤتمـر قـد فكـروا فيـه ..

ويبقـى السـؤال دائمـاً بعـد كل مؤتمـر : هـل اسـتطاعت الجهـة المنفـذة للمؤتمـر أن تحقِّـق مـن خلالـه مـا وضعتـه مـن أهـداف ؟!.. وهـل وضعـت مـن الوسـائل والمعينـات مـا يحقـق لهـا تنفيـذ توصيـات المؤتمـر؟

لـو كنـت ألبـس نظـارة سـوداء لقلـت إن التوصيـات وضِعـت عـلى شـماعة الإمكانـات ، وأُغلـق ملفـه تمامـاً إلى حـين إشـعار آخـر .. أقصـد مؤتمـر آخـر ..

لقـربي مـن بعـض المعلمـين في الولايـة ، بـل وانتـمائي قبـل ذلـك إلى قبيلـة المعلمـين ؛ أعـرف مقـدار مـا يبـذل مـن الجهـد للارتقـاء بالتعليـم .. وليـس سراً لأبنـاء الولايـة مـا يواجهـه القائمـون بأمـر التعليـم مـن صعـاب .. إذا سـألت أي فـرد في الولايـة عـن مشـكلات التعليـم أتوقـع أن يذكـر مـن بينهـا توفـير الكتـاب المـدرسي والإجـلاس والتدريـب و... ولا يـكاد يكـترث أحدهـم حينـما يسـتمع لبعـض المسـئولين وهـو ينفـي أن تكـون في الولايـة أيـة مشـكلة ، فالنـاس قـد ألفـوا مثـل هـذه التصريحـات في وسـائل الإعـلام والملتقيـات العامـة .. كـما أن النـاس عـادة مـا ينسـون .. ومـن لا ينـسى يكتفـي بهـز كتفـه ..

أتوقـع أن أحـداً قـال هـذه الحكمـة : ليسـت المشـكلة في أن تكـون هنـاك مشـكلة .. بـل في أن لا يكـون جهـد مبـذول لتلافيهـا ..

بعضهم ظن أن إقامة مؤتمر عن قضية معينة حل لها !!

خاطرة ملونة:

مـا أكـثر الذيـن عرفـوا بالسـخرية المُـرَّة في أطـراف الولايـة .. أحدهـم كان يحـكي أنـه اصطـاد تسـع سـمكات في رميـة واحـدة لشـبكته .. قـال : فلـما قابلنـي عمـي خليـل أعطيتـه

منها ثلاثاً ، ولما حيتني خالتي سكينة أعطيتها سمكتين ، وأصر صديقي أبو درش ولطفي أن يأخذ كل منهما أربعة فأعطيتهما .. ولما رجعت إلى البيت لم يتبق لي إلا ثلاث سمكات فقط .. تخيل !! .. عندئذٍ نبَّهه محدثه أن العدد الذي اصطاده كان تسعة فقط .. فقال دون تردد : أنت لسه مذكر التسعة !!

[4]

عندما طُلب مني أن أصف قريتي ، قلت في تباهٍ واضح : إنها تضع قدميها في نهر النيل الخالد ، وتتكئ على سلسلة جبال ميمي ، على بعد ٨٠٠ كلم تقريباً من الخرطوم .. وتملأ ساحتها وجنباتها أنين اثنتين وعشرين ساقية منذ الفجراوي ،، وهذه السواقي كانت تضخ قدراً من الماء يكفي لري المحاصيل الزراعية والخضر والنخيل ..

قال محدثي متضجراً : إني أسألك عن حالها اليوم ؟ !

لكنه لما رآني لا أريد أن أغادر محطة الذكريات ، انصرف عني ممتعضاً .. تذكرت لحظتها ما قاله لنا أستاذنا عبد الباقي (رحمه الله) مدير مدرسة خور عمر النموذجية في أول عملنا معه : إن سياستنا في المدرسة أن نجتهد بكل ما في وسعنا لنصل إلى ما كنا عليه قبل عشرين عاماً في وادي سيدنا وحنتوب ...

ترى هل يستطيع أهل القرية ـ وكذلك كل قرية في الولاية ـ أن يكتفوا كما كانوا في السابق ذاتياً من حاجتهم من الخضر والفواكه وبعض التمر ؟!

أيقظني ابن أختي (وافي) من شرودي حين صاح في فرح ظاهر : إن الخضار قد وصل .. أسرعت أمه إلى الخارج ، وعادت جزلة بما تحمل من الخضر والفاكهة .. لم انتبه إلا أخيراً أنها شكرت حكومة الإنقاذ وطريقها القاري .. لما سألتها عن السبب .. قالت : لأن الخضار يصلنا كل يومين من الخرطوم ..

في المساء استقبلت دارنا أرتالاً من الشباب جاءوا للترحيب بي زَرافات ووُحدانا .. وبدأ النقاش بينهم هادئاً ورزينا .. ثم ازدادت حدته قليلاً قليلاً .. سألت ابن أختي : أين كان هؤلاء في الصباح ؟! شككت فيما قاله لي .. قال : نائمين ...

ترى هل أعددنا لهذا الجيش من شبابنا على الأقل ما يملأ به فراغه !!

خاطرة ملونة:

قيل إن أحد الملوك زار فرنسا في القرن الماضي فأعجبه ما عليه باريس من جمال .. أعجبته خاصة إضاءة المدينة فأراد لعاصمته أن تكون كباريس نوراً وبهاء .. فقدم لرئيس وزرائه من المال ما يكفي لذلك .. فأعطى الرئيس للوزير المختص نصف المال

.. وقـدم الوزيـر نصـف مـا أسـتلم للـوالي .. وهـو بـدوره أعطـى نصـف مـا حصـل عليـه للمديـر المختـص.. فـوزع للنـاس منشـوراً مهـماً جـاء فيـه : إن كل مـن لا يوقـد شـمعة أمـام بيتـه عندمـا يمـر موكـب الملـك يعـرض نفسـه للعقـاب الـرادع ..

وبعد قليل نسي الملك أمر باريس .. ونسي الناس أمر الملك ..

[5]

عندمـا أتذكـر مـا كنـا عليـه قبـل عقـود سـابقة في مدارسـنا ؛ لا أجـد معنـىً للمقارنـة مع مـا عليـه الحـال حاليـاً .. إنهـا لا شـك مقارنـة ضيـزى .. فقـد كنـا نجـد وقتـاً كافيـاً في الجـدول المـدرسي للرياضـة .. وسـاعات للمكتبـة .. وجمعيـات متنوعـة مـن بينهـا : الجمعيـة الأدبيـة .. وأتذكـر بمتعـة وحسـرة في وقـت واحـد المسـابقات التنافسـية بـين الفصـول والداخليـات في التمثيـل والإلقـاء وغيرهـما ..

عـلى المسـتوى الشـخصي لم يكـن لي وجـود في المجـال الريـاضي .. وبسـبب ذلـك تعرضـت للعقـاب البـدني أكـثر مـن مـرة .. وصفـق لي كل التلاميـذ حينـما رأوني وانـا أتبخـتر في مؤخـرة فريـق داخليتـي لأول مـرة (ولعلهـا كانـت آخـر مـرة) لأشـارك في مبـاراة حاسـمة .. ومـا كنـت لأحـضر المبـاراة نفسـها لـولا مـا دُفـع لي .. ومـا كان ليتـم ذلـك لـولا فقـدان فريقنـا لأهـم لاعبيـه في تلـك السـنة .. أشـك أني فعلـت شـيئاً يذكـر في تلـك المبـاراة غـير الجـري هنـا وهنـاك ..

ترى ما حجم هذه الأنشطة الآن في اليوم الدراسي ؟!!

لاشـك أن المسـئولين في الولايـة عـلى وعـي بمـا ألمـح إليـه مـن ضرورة الأنشـطة الثقافيـة والرياضيـة وغيرهـا في مـدارس التعليـم الأسـاس والثانويـات .. ولاشـك أنهـا تجـد منهـم مـا تسـتحقها مـن عنايـة .. أم تـرى أنهـم ينصبـون أيضـاً شـماعة الإمكانـات !! عندئـذٍ لا أملـك إلا أن أدعـوه تعـالى أن يفـك أسرهـم مـن هـذا القيـد قريبـاً ..

مـا كنـت لأخـوض في ذكريـاتي هـذه لـولا مـا بلغنـي مـن النيـة في تنشـيط دورة (أبـو سـليم) الرياضيـة هـذه الأيـام ..

عيبـي أننـي سرحـت لحظـة سـماعي بهـذا الخـبر .. لقـد تخيلـت عـودة الأنشـطة الرياضيـة والثقافيـة إلى مدارسـنا .. ومـن ثـم المنافسـة بـين القـرى والمناطـق والمحليـات تحـت رعايـة الدولـة ومتابعـة الفـرق الكـبرى في الولايـة والدولـة ..

تـرى متـى يبـدأ اهتـمام فرقنـا الكـبرى بمنابـع الإبـداع الريـاضي في قرانـا وحلالنـا ؟!! متـى تهتـم الدولـة باكتشـاف مبدعيهـا ، ورعايتهـم ، والأخـذ بيدهـم منـذ البدايـة ؟!!

خاطرة ملونة:

عندما مات حمار العمدة ؛ ذهب كل الناس يعزون الرجل في فقده العظيم ... فلما مات العمدة لم يمش في جنازته غير بعض أهله ..

[6]

دعيت قبل العيد للمشاركة في ورشة عمل تدريب المعلمين تحت شعار (تدريب متميز لمعلم متميز).. الورشة ضمَّت مجموعة كبيرة من قيادات التعليم في السودان اتحادياً وولائياً ، وجمعاً متميزاً من علماء التربية والمختصين ..

كان هم هذا الجمع المتميز أن ترتفع نسبة المتدربين من معلمي مرحلة الأساس والثانوية من نسبة تقل عن الستين في المائة إلى نسبة أكبر ..

لم يكن بعض الحضور متفائلا بنتائج المناقشات ؛ فالدراسات المصاحبة لا تعتمد في نظرهم على بيانات حقلية ومعلومات موثوق بها .. وكل النتائج معروفة سلفاً لأنها قيلت مراراً وتكراراً في المناسبات المشابهة .. ويسألون بصوت مرتفع : متى نبدأ بتنفيذ ما نؤمن بجدواه ..

بالنسبة لي ، كان في ذهني ، وأنا استمع إلى المناقشات أن كل قرية من قرانا في شمال الولاية ـ إن لم تكن في كل الولاية ـ لا يعمل بمدارسها غالباً غير أبناء القرية .. وأن المعلمات يشكلن سبعين في المائة من نسبة المعلمين !!

كان في ذهني مقارنة سيئة بين أسلوب التعليم في زماننا في الخمسينات والستينات ، وما صحبته من صرامة وقسوة وحياة المعسكرات في الداخليات وبين أسلوب جديد لا يتيح لأبنائنا النشاطات المصاحبة والجمعيات المتنوعة والاحتكاك بغير أبناء القرية والمنطقة !!

تذكرت أن ضيق فرص القبول لأبنائنا ، والتنافس (الشريف) بين المدارس ؛ كان يفرض على ناظر المدرسة أن لا يسجل في قائمة الممتحنين للشهادة إلا المتفوقين .. أما غيرهم فعليهم أن يعيدوا عاماً بعد عام !!

كنت وما زلت مقتنعاً أن السلم التعليمي الذي يعمل به الآن لا يتناسب والبيئة السودانية .. وقد حاولتْ إداراتنا التعليمية ـ-كما علمت - حل بعض سلبياته بمدارس التجميع ، وهي وإن كان حلاً اسعافياً مؤقتاً إلا أن الصرف عليها يشكِّل عبئاً على الناس، وضغطاً نفسياً على من اضطرتهم الظروف ليعيشوا في بيوت غير مهيأة غالباً في غير قراهم .. لا سيما وأنهم في هذه الحالة يكونون في سن حرجة ..

ومن ناحية أخرى أفرز السلم التعليمي إشكالاً بين ضرورة اكتمال (قوة) المدرسة من المعلمين وبين ضعف البنية الاقتصادية الذي أدى إلى هجرة الناس إلى العاصمة والمدن ودول الاغتراب ، ومن ثم قلة عدد التلاميذ في كل فصل !!

وعلى كل حال أنا مقتنع تماماً أن ملف التعليم ينبغي أن يفتح .. وعلى المسئولين أن يتحملوا غثنا وسميننا .. فنحن عندما نثور أو نُسَر .. نقول قولاً ليناً ، أو لا نكاد ننظر إلا إلى الأخطاء .. وبين هذا وذاك تكون الحقيقة ..

خاطرة ملونة:

« أعطني معلماً متميزاً .. أعطك أمة متميزة » ..

ولكن المشكلة أن الأمة المتميزة وحدها هي التي يمكن أن تهيئ لنا المعلم المتميز .. وفي الوقت نفسه لا يمكن للأمة أن تكون متميزة إلا بالعلم والأخلاق .. كلام !!

[**7**]

ما تزال أصداء ورشة عمل تدريب المعلمين تستفزني للكتابة ، وإن كان لا يتصل بعض جوانبها ظاهرياً بالولاية الشمالية بشكل مباشر .. هذا دون أن ننسى أن الأمة تشكل وحدة ، إذا اشتكى منها أبناء إقليم تداعى لما يهمهم سائر السودان بالسهر والحمى .. ويبقى لكل إقليم خصوصياته في الواقع ، وطبيعته الخاصة .. وهي التي تلون بدورها نوع الحلول وأسلوب قهر الظروف ، أو الالتفاف حولها ..

من بين ما أقلقني في الورشة أن غالب الذين تلقوا تدريبهم في بخت الرضا ينظرون إلى غيرهم مشفقين ..

وأذكر أن إدارة التأهيل التربوي لما قررت أن تقيم بحاضرة الولاية الشمالية معهداً .. استفز هذا القرار كثيراً من الناس كان من بينهم نقيب المعلمين بالولاية حينئذٍ .. وأشارت أصابع الاتهام إليه لما امتنع الدارسون عند افتتاح المعهد عن الانتظام في الدراسة .. قيل إنه لم يكن مقتنعاً بغير التدريب في بخت الرضا أو نحوها ..

وليس في موقفهم ما يدعو إلى العجب ؛ فإن جميع المعلمين قديماً قد خرجوا من عباءة بخت الرضا بأنظمتها وسياساتها ومناهجها وطبيعة تفكيرها التي ناسبت مرحلة مهمة من تاريخنا التعليمي والسياسي .. إلا إن الحديث عنها ذو شجون .. ولكنه في الوقت نفسه يقودنا إلى وقفة تأمل .. إذ إن واحدة من أشواق القوم أن نعيدها إلى سيرتها الأولى ..

لما قال بعضهم في ورشة العمل إن كليات التربية أخفقت في تدريب المعلمين ، تنفس القوم الصعداء .. ووجد كلامه عندهم ارتياحاً .. لم يقل أي منهم مباشرة : ألم نقل لكم إن التدريب الحق ما كان في بخت الرضا .. وما عداها باطل ..

فهل يمكن أن تعود بخت الرضا ؟ ولماذا ؟

من يريدون أن يعيدوها لم يسالوا أنفسهم ما بلغته نسبة التغيير بين الأمس واليوم ..

صحيح أننا فقدنا بعض ما قيل إنه كان متَّبعاً في بخت الرضا وتدريب المعلمين من إتقان وتفانٍ ودقة وانضباط .. ولكن كلها صفات تناسب من أرادوا في مرحلة تاريخية مهمة أن يجدوا لأنفسهم موضع قدم بين الأمم ..

هؤلاء نسوا أن مدرس الأمس كان صفوة الصفوة أو خيار من خيار .. كانت لجنة القبول تختار للمدرسة الوسطى أربعين تلميذاً فقط من بين جميع الذين يمتحنون في مركز معين .. في السنة التي امتحنت فيها جلس معي تلاميذ سبعة مدارس (أولية) .. ولما امتحنت في الشهادة السودانية لم يكن عدد المدارس في السودان كله يزيد عن العشرة إلا بمدرسة أو مدرستين .. ولم تكن بجانب جامعتي أم درمان الإسلامية والخرطوم غير جامعة القاهرة فرع الخرطوم ..

ومع هذا كله يمكنك أن تبرهن أن التعليم كان أفضل في الماضي !!

خاطرة ملونة:

صديقنا الدحيش رأى والده وأعمامه مهتمين بشكل غير طبيعي لرؤية هلال رمضان ؛ فأشَّر بيده نحو الهلال .. فانهالت عليه كلمات الإطراء والاستحسان .. سمعه الناس بعد قليل وهو يصيح بأعلى صوته : وهذا هلال آخر ..

[8]

أمامي الآن الكتاب الذي أصدرته وزارة التربية والتعليم بالولاية الشمالية ، وجمعت فيه الدراسات والتقارير التي قدمت في مؤتمر قضايا التعليم في نهاية عام ٢٠٠٩م تحت شعار (تطوير التعليم : الاستثمار الأمثل للتنمية البشرية) ..

ليس غرضنا من فتح هذا الملف النقد أو التوجيه ، بل همنا تلمس هموم الولاية في أمر التعليم ؛ كما هي في نظر قادة التعليم ..

ولتكن البداية من الورقة التي تناولت واقع التعليم بالولاية .. وهي بلا شك ورقة علمية ضافية جمعت بين الإحصاءات والجداول بأشكالها المختلفة والوصف العلمي للحقائق الواردة ..

وقد رأيت أن اختار من بين معلوماتها الثرة المعلومة التي أكدوا فيها أن نسبة المدربين والمدربات بمرحلة الأساس بلغت ٥٨٪حتى نهاية ٢٠٠٩م .. وهي نسبة لا تبشر بخير ؛ إذ تعني ببساطة أن ما يزيد على الأربعين في المائة ممن يقومون بالتدريس في مرحلة الأساس لم يتلقوا تدريباً .. أي أن أبناءنا في الولاية في خطر .. لأن أربعين في المائة ممن يقومون على تدريسهم وتربيتهم معلمون غير مؤهلين .. ولا يقلّل من هذه الخطورة أن نسبة التدريب في غالب ولايات السودان ليست في وضع أفضل مما هي عليه في الولاية الشمالية .. إن هذا يعني بدوره (إن أمتنا في خطر) لأن جيلاً كاملاً منها لم يتلقوا تعليمهم بصورة جيدة في مرحلة الأساس .. سيكون منهم المعلمون والأطباء والمهندسون وسائر قطاعات الشعب .. ومنهم من سيتصدون لإدارة البلاد .. ويتحكمون في مصيرها في المستقبل القريب .. ولك أن تقارن كيف يكون الحال لو لم يتلق مثل هذه النسبة من أطبائنا تدريباً .. وتخيل نفسك وموقفك وأنت تعلم أن من يقوم على إجراء عمليتك قد يكون جاهلاً بالجراحة .. مع أن خطأ الطبيب فردي في الغالب .. وخطأ المعلم طامة على مستقبل الأمة ..

ألا تدعونا هذه المعلومة وحدها لأن نقرع جرس الخطر وصفارة الإنذار .. ونهيب بالمواطنين والدولة وقيادات التعليم ومصممو الميزانيات أن يتصدوا في غير تهاون لدرء هذا الخطر ، لا بالشعارات والخطب الرنانة في المؤتمرات والملتقيات .. بل بالتنفيذ الفوري لما توصلت إليه المؤتمرات السابقة من نتائج ..

ومن ناحية أخرى فإن هذه الورقة العلمية الضافية لما قدمت انجازات الوزارة في تأهيل وتدريب المعلمين لم تذكر إلا إحصاءً للدورات التدريبية التي نفذت خلال العام ٢٠٠٧م .. فأين إحصاء السنتين التي بعدها ؟!! أم لم يتم فيهما تدريب للمعلمين ؟ وهل نسبة التدريب ارتفعت بعدها أم هي في تدن مستمر ؟!

عندما وصلت في قراءتي لما نصُّوا عليه أنه من أهم الانجازات ، تجاوزت بحسرة الفقرة التي كتبوا فيها ما يلي : (تأسيس مركز المعلومات بالوزارة) .. لما رآني أحد أصدقائي أحك رأسي لأفهم العبارة ، قال ضاحكاً : لعلهم أسسوا المركز بالفعل ونسوا المعلومات !!

خاطرة ملونة:

قال بيدبا الحكيم : إن سلطاناً رأى فيما يرى النائم أن أسنانه كلها قد سقطت إلا سناً واحدة .. فقال كل الذين جيء بهم لتأويل رؤياه : إنك ستموت بعد موت أهلك .. فعاقبهم .. لم ينج منهم إلا الذي قال له : أنت أطول أهلك عمراً .. أو كما قال ..

[9]

بعـض مـن قـرأ حديثـي عـن التدريـب وتدنيـه ، ومـا يشـكله مـن خطـر عـلى الأمـة كلهـا : حاضرهـا ومسـتقبلها .. قـال سـاخراً : مـا أسـهل أن تشـيروا إلى الخطـأ !! .. قلـت أصححـه : الخطـر .. قـال معقبـاً : هـذا تضخيـم للمشـكلة !! .. ولا أحـد يشـتكي مـما تقـول !! .. قلـت : بـل قـل لا أحـد منتبـه إلى مـا نسـاق إليـه مـن خطـر ..

لـو كنـت قـرأت مـا كتبـه علـماء التربيـة عـن إسـتراتيجية التعليـم .. ومـا ذكـروه عـن رسـالته وأهدافـه ؛ لعلمـت مـا أقـول .. فـلا خطـط تعَـدُّ للوصـول إلى رسـالة التعليـم .. أو برامـج تنفـذ لتحقيـق الأهـداف .. أو ترجمـة شـعاراتنا إلى تشريعـات ملزمـة التنفيـذ مثلـما فعلـت الولايـات المتحـدة حـين طرحـت قانـون الدفـاع رقـم (١) في العـام ١٩٧٥ م عندمـا أرادت اللحـاق ، بـل التفـوق عـلى الاتحـاد السـوفيتي في مجـال العلـوم والرياضيـات ..

ومشروع (أمة في خطر) في عام ٢٠٠٦م للنهوض بمهنة التدريس ..

ومشروع (لن يتخلف طفل) في عام ٢٠٠٨م لإتاحة فرصة لكل طفل ..

قـال صاحبـي ، وكأنمـا أصابـه الملـل مـن حديثـي عـن دولـة عظمـى كأمريـكا : ومـا الحـل ؟!! .. ألا يعجبـك كل المؤتمـرات التـي تعقـد في أكـثر مـن موقـع لأجـل التدريـب !! .. ألم تقتنـع بـكل مـا أعـد في ورش العمـل الخاصـة بالتدريـب والتعليـم .. هـل تراهـم قصروا في دراسـاتهم وبياناتهـم !! .. ومـا يخرجـون بـه مـن نتائـج وتوصيـات ؟!! .. أتريـد أن تتهمهـم بعـدم الجديـة ؟ وأن عملهـم مجـرد مظاهـرات وضيـاع للـمال والوقـت ؟

كان لابـد لي أن أبعـد عـن نفسي تهمـة التجريـم لفئـة أؤمـن تمامـاً أنهـم إن فسـدوا .. أو كان محـدثي صادقـا فيـما اتهمنـي بـه .. فعـلى الدنيـا السـلام .. إنهـم أمـل الأمـة في الخـلاص والوصـول بهـم إلى بـر الأمـان ..

قلـت : بـل المهـم أن تتصـدى الولايـة والدولـة في أعـلى مسـتوياتها للأمـر بـكل شـجاعة .. قـال لي : كيـف ؟!! .. قلـت : بإيمـان المسـئولين بـأن موقـف التدريـب في تعليمنـا عـلى المسـتويين الـولائي والاتحـادي يشـكل خطـراً .. ثـم صـدق النوايـا في مواجهـة الخطـر .. ولـن تعـدم مـن أسـاطين التربيـة في الولايـة مـن يقـدم الحلـول العمليـة المناسـبة .. ومـا أكثرهـا .. فقـط تأكـد أن المشـكلة لا تتعلـق بتصـور الحلـول .. بـل بتنفيـذ الممكـن منهـا ..

خاطرة ملونة:

قـال لي صديقـي : إننـا نطلـق عـلى شـجرة البرتقـال : شـجرة البرتقـال ! .. فلـماذا لا نطلق

علـى النخلـة شـجرة البلـح أو التمـر أو الرطـب .. وجـدني محتـاراً .. فقـال : لأننـا لا نأخـذ منهـا التمـر فقـط ... إنهـا شـجرة طيبـة : * أَصْلُهَـا ثَابِـتٌ وَفَرْعُهَـا فِي السَّـمَاءِ * تُـؤْتِي أُكُلَهَـا كُلَّ حِـينٍ بِـإِذْنِ رَبِّهَـا * قلـت منفعـلاً : ولكـن إن رعيناهـا واهتممنـا بهـا ..

[10]

الصدفـة وحدهـا هـي التـي جعلتنـي قبـل أكـثر مـن عقديـن أصحـب وفـد البنـك الـدولي ، وأطـوف معهـم حـوض السـليم .. فقـد ظـن مديـر إدارة الحـوض (وكان جـاري وصديقـي) أني أتقـن لغـة القـوم ، وأعـرف كيـف يفكـرون .. كان أكـثر مـا أغـراني بـه الرجـل رحلـة مجانيـة في ريـاض الحـوض في صحبـة وفـد البنـك .. ومـا أدراك مـا البنـك الـدولي .. اسـم كان يومئـذٍ يشـد الانتبـاه ، ويسـيل لـه اللعـاب .. كان يعنـي للجماهـير الـدولار والفـرج مـن تراكـمات مـا هـم فيـه مـن الضيـق الاقتصـادي .. فـإذا مـا عُـصِروا وأخذتهـم السـنين غضبـوا فهتفـوا بسـقوطه .. ونسـوا أنهـم لا يدخلـون بلـداً إلا بطلـب مـن ولاة الأمـر مخرجـاً لسـوء تصرفهـم وفسـاد ضمائرهـم ..

عندمـا تحـرك الركـب نحـو الحـوض كان العمـدة والدليـل في المقدمـة .. كانـت الخطـة واضحـة ومحـددة بالنسـبة إليهـما .. يعرفـان أيـن ينبغـي للوفـد الأجنبـي أن يـزور .. وأيـن يقـف ، ومتـى يتحـرك .. عندمـا وقفنـا ذات مـرة وجـدت أحـد أفـراد الوفـد يشـير إلى دابـة مربوطـة في طـرف آلـة ضخمـة ملقـاة عـلى الأرض .. قـال لصاحبـي وهـو يحـاوره : مـا سر وجـود هـذه الآلـة القيمـة معطلـة هنـا ؟ لمـاذا لا تسـتغلونها ؟! فهمـت وفهـم الرجـل مـن الإجابـة أنهـا جلبـت لتنفيـذ قـرض سـابق ، ولا يعرفـون لهـا صاحبـاً .. وجـدت في تعليـق (الخواجـة) رنـة أسى في صوتـه وهـو يعـبر عـن سـوء تدبيرنـا لأمورنـا .. قـال : مثـل هـذا التـصرف هـو الـذي يتيـح للبنـك الـدولي أن يتدخـل في شـئونكم .. انفعلـت فقلـت بالعربيـة : إنـك عـربي (ورب الكعبـة) .. همـس في أذني : ومـصري يـا أخـي .. ووجـه حديثـه لمديـر الحـوض : أشـك أن القـرض الـذي سـيقدمه البنـك لكـم يكفـي لإعـمار الحـوض !! أجـاب : كيـف لا يكفينـا هـذا المبلـغ الضخـم إن وصلنـا !؟ ضحـك الرجـل وقـال : ألا تعرفـون أن مـا سـيصلكم في واقـع الأمـر لا يتعـدى ربـع القـرض ؟ أمـا الباقـي فيخصـم منـه مصاريـف رحلتنـا بالسـاعة .. والدراسـات الميدانيـة ... وغيرهـا ..

لم يفاجئنـا بعدهـا قولـه : لـو أوقفتـم صرفكـم البذخـي في الاحتفـالات والمسـيرات

والملتقيات الوهمية ونحوها لما كنتم تنتظرون أن نأتيكم في حملات إنقاذية لا تغني ولا تسمن من جوع .. انصحوا ولاتكم كيف يدبرون أمر البلاد والعباد .. وترشيد الصرف .. وعلموا شبابكم كيف يصطادون السمك قبل أن يسألوا الناس أعطوهم أو منعوهم .. وإن اعطوهم أعطوهم بشروطهم .. وما أدراك ما شروطهم !! .. أقلها ذلة فركوع ...

قبل أن نكمل حديثنا معه وصلنا قصر الزبير حمد الملك ، وبعد مراسيم الاستقبال الملوكي كنا على مائدته الخرافية .. خمس نجوم أو زد عليه ..

خاطرة ملونة:

لَقَدْ أسْــمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيــّاً ولكــنْ لا حيــاةَ لمــنْ تُنــادي

ونــاراً لو نَــفَخْــتَ بها أضــــاءَتْ ولكنْ أَنت تنْفُــخُ في رَمَــــاد

[11]

في لقاء مكاشفة ضم جمعا كبيرا من أقطار الولاية الشمالية الأربعة أو الخمسة .. حدثنا السيد الوالي السابق بإنجازاته الضخمة في كل مرافق ولايته شملت التعليم والكهرباء والطرق والصحة .. ولم يكن يقطع حديثه الضافي إلا التكبير والتهليل ممن يحمدون لسيادته في السراء والضراء .. وألهبنا أصواتنا بكل الشعارات الكبيرة التي نحفظها تماماً .. ونرددها عادة في مثل هذه المحافل التاريخية .. التزاماً بآداب المجالس .. واحتراماً لمقامه السامي .. واعترافاً بفضله فيما حَبَا به منطقتنا من عناية وزيادة زيارة ..

عندما جاءت فرصة الحضور للمداخلات والأسئلة لا أعرف ما الذي أثار شيطاني ليضع على لساني عنوة أن أسأله عن حقيقة تفشي مرض السرطان في المنطقة وما أعدته الولاية للتأكد من صحة وجود المرض .. وما إذا كان وجوده يشكّل خطراً ؟.. ولم أكمل ما كان في ذهني من سؤال وتفسير لما يدعوني للسؤال .. فقد بدأ الغضب واضحاً في وجهه ونبرات صوته .. وهو يتهم الإعلام المغرض ، والحاقدين ، وأعداء الأمة ، والمعارضين ، والخونة .. ثم التفت ناحيتي مكملاً حديثه الضافي وهو يتساءل : كيف يرضى أمثالكم أن ترددوا ما يقوله هؤلاء الخونة !!؟ وعقّب جاري في المجلس بهدوء شديد : ما عندك حق !!..

لم يكـن يسـعني في تلـك اللحظـة إلا أن أؤَمـن عـلى مـا أنهـى بـه سـيادته الحديـث .. في اليـوم التـالي فوجئـت بأحـد أصدقـائي يسـألني عـما أدلى بـه السـيد الـوالي عن مـرض السرطان .. قلـت في كثـير مـن الجديـة والوقـار : وعـد سـيادته بتشـكيل لجنـة علميـة متخصصـة مـن الولايـة والاتحـاد لتقـصي الحقائـق ودراسـة الوضـع في ظـرف شـهر واحـد ورفـع تقريـر علمـي بذلـك حتـى يتسـنى لـه اتخـاذ الموقـف المناسـب لـه عـلى ضـوء توصياتهـم .. وكـم كنـت سـعيداً للغايـة بشـكر الصديـق ..

مـا كنـت لأذكـر هـذا الموقـف لـولا مـا وجدتـه مـن إشـارة مقتضبـة في تقريـر إعلامـي أن الشـمالية تعـد واحـدة مـن ثلاثـة أقاليـم تزيـد فيهـا نسـبة المرضى بالسرطـان .. لم أهتـم كثـيراً للتأكـد مـن صحـة المعلومـة .. فقـد تكـون مجـرد افـتراء كـما قـال السـيد الـوالي .. ولكـن قـد تكـون لهـا أسـاس مـن الصحـة .. المهـم أن النـاس يتحدثـون بذلـك في مجالسـهم ويثـيرون خبرهـا ..

خاطرة ملونة:

مـرّ أمـير المؤمنـين عمـر بـن الخطـاب رضي اللـه عنـه وابـن الزبـير يلعـب مـع الصبيـان، ففـروا ، ووقـف ابـن الزبـير .. فقـال لـه عمـر: مالـك لم تفـر معهـم ؟ فقـال : لم أجـرم فأخافـك ، ولم تكـن الطريـق ضيقـة فأوسـع لـك ..

[12]

يداعبنـي صديقـي إبراهيـم حاقـظ فيدعـوني بالوزيـر .. فأفـرح .. وادعـي الجديـة .. ولكـن صديقـي بـدر سـألني في مناسـبة وأمـام جمـع : هـل صحيـح أنهـم رشـحوك لمنصـب الـوالي ؟ .. لا أدري مـاذا فهـم مـن همهمتـي .. توقعـت أن يفهـم عنـي الإقـرار طالمـا لم أنكـر .. عيبـه أنـه لم يسـتمرئ اللعبـة .. ولم يعـد أحـد يغرينـي بالمنصـب الرفيـع .. فحزنـت !!

في لعبـة الكـراسي التـي سـبقت الانتخابـات أوشـكت أن ألمـع نفـسي بمـا أحسـبه يقربنـي مـن كـرسي الـوالي .. وإلا .. فـلا مانـع عنـدي مـن الفـوز بلقـب نائـب دائـرة !!

مشـكلتي أني مفتـون بانتـمائي إلى قبيلـة المعلمـين .. وأحـد أهـم مـا يميزهـم هـو (التحضـير لـكل درس) .. وإن شـهدت بعضهـم وهـم ينقلـون مـن كراسـاتهم القديمـة تحضـيرات جاهـزة كلـما أعلـن عـن قـرب وصـول الموجـه الفنـي إلى المدرسـة .. حينـما كنـت أسـتنكر عليهـم تصرفهـم .. كانـوا يجيبـون في لامبـالاة : لمـاذا لا تلومـون غيرنـا أيضـاً ..

المهـم أني جلسـت أحـضر أولاً لمنصـب الـوالي .. حتـى وصلـت إلى السـؤال المركـزي الـذي يمكـن أن يميـزني عـن غـيري : مـاذا يمكـن أن أقـدم للولايـة ؟؟ تذكـرت حينئـذٍ بعـض الـولاة وهـم يخرجـون مـن ولاياتهـم كـما دخلوهـا أول مـرة .. عفـواً .. بـل بعـد أن زادوا أهلنـا رهقـاً .. وفي المقابـل مـرت في شريـط خاطـري القامـات الشـامخة مـن أبنـاء الولايـة تعلـن عنهـم مسـاهماتهم الواضحـة في كل جانـب مـن جوانـب الدولـة .. لقـد وضعـوا بصمتهـم مجسَّـمة في كل شـبر مـن الوطـن .. وأشـادت بهـم الأمـم والعبـاد .. ولكـن أيـن نحـن مـن جيـل البطـولات .. لم يبـق منهـم إلا قليـل ..

لمـت أحدهـم مـرة بعـد أن اتخـذ مقعـده بيننـا في كـراسي المتفرجـين .. مـا بالـك لم تقـدم لنـا شـيئاً نعتـدُّ بـه ؟ .. قـال : ومتـى كان الـوزراء يقدمـون شـيئاً ! .. صحيـح إنهـم يطلبـون .. ويلحُّـون في الطلـب .. ويدبجـون التقاريـر.. ويعقـدون المؤتمـرات .. ويظهـرون في وسـائل الإعـلام .. بـل ويوافـق مجلـس الـوزراء عـادة عـلى الطلبـات .. قلـت : ومـاذا بعـد ؟ قـال بهـدوء : تعتـذر الماليـة .. ثـم أضـاف : لكنهـا تـدرج طلباتنـا في الأسـبقيات .. ثـم تتراكـم .. وينـسي بعضهـا بعضـاً .. ولا تتوقـف الوعـود بالتنفيـذ .. ولا يتوقـف النـاس عـن الطلبـات فيـما يحتاجـون أو فيـما يحسـبون أنهـم مسـتجابو الدعـوة .. والحكومـة تطلـب .. ومستشـارو الـوزراء يكـررون الطلبـات .. ولابـد للـوالي والـوزراء أن يظهـروا في المناسـبات .. وأن يعـدوا النـاس .. ويعدهـم الـوالي .. وتعتـذر الماليـة ..

قـال أحـد الخبثـاء : الحـل إذن في إلغـاء وزارة الماليـة .. قلـت أعجـزه : ومـن أيـن نحصـل عـلى المـال ؟ قـال في ثقـة مفرطـة : نتوجـه إلى اللـه وحـده .. قلـت : ولكنـه تعـالى يقـول : ﴿ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُغَـيِّرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتَّـى يُغَـيِّرُوا مَـا بِأَنْفُسِـهِمْ ﴾ فلـماذا تـراه يحسـن حالنـا ونحـن لم نبـذل جهـداً ! .. صـاح أحـد مشـجعي الكـرة : إذن الحـل في الفـكي !!

ووجـدت أنـا حـلاً في الانـصراف عـن طلـب منصـب الـوالي .. اكتفيـت بـأن أرفـع يـدي أدعـو اللـه تعـالى أن يعـين الـوالي ويسـدد رميـه ..

خاطرة ملونة:

في يـوم عرفـة قـال أمـير المؤمنـين عمـر (لولـده عبـد اللـه: (يـا بنـي أوصنـي ، فقـال لـه ولـده : يـا أبي انظـر أمامـك .. فنظـر فـإذا خلـق كثـير .. انظـر وراءك ؛ فنظـر فـإذا الخلـق كثـير، انظـر عـن يمينـك ؛ فـإذا الخلـق كثـير، انظـر عـن شـمالك ؛ فـإذا الخلـق كثـير، فقـال لـه: يـا أبي كل منهـم يسـأل اللـه أن يغفـر لـه ذنبـاً بينـه وبـين اللـه .. بينـما أنـت مسـئول عـن ذنوبهـم يـوم القيامـة ..

[13]

أن يكـون مـن رواد خواطـرك كل هـؤلاء الذيـن كتبـوا يشـيدون بمـا تكتـب ـ ولـو مجاملـةً فنعمـةٌ ، وتحقيـق لدعـوات الصالحـين مـن أهلـك .. وأن يلمح بعضهـم أنهـم قـرأوا لـك خواطـرك.. فحـال يدعـوك للبحـث عمـن يرقيـك مـن الحسـد ، والنفاثـات في العقـد .. ولكنـه في الوقـت نفسـه زاد يغـري بمواصلـة المشـوار وإن كلفـك بعـض الجهـد .. وكثـيراً مـن التوتـر ..

إنهـا خواطـري العرجـى .. أكتبهـا في حـالات الانتبـاه والشـد والجـذب ، اكتبهـا حينـاً في حـالات الإحبـاط بتقصـير أراه .. واكتبهـا حينـاً آخـر في حـالات الانبهـار بمـا يتـم انجـازه .. أنظـر فـأرى أن مـا تحقَّـق في بلـدي كثـير .. أشـياء مـا كان ينبغـي لنـا أن نحلـم بهـا قبـل سـنوات قليلـة .. انجـازات لا يسـتطيع مكابـر أن يخفيهـا عـن العيـان .. ولكنـي ألتفـت فأجـد أن طموحنـا أكـبر مـما نلنـا .. وأكـثر مـما نالنـا .. وهـل لسـقف الطموحـات حـد ينبغـي لنـا الوقـوف عنـده ؟! .. ولا أعـترض عـلى أهـلي وهـم يقـررون في استسـلام : إن الإنسـان لا يمـلا عينـه إلا الـتراب .. ولا أملـك قـوة تجعلهـم يفهمـون معـي أن مـن معـاني الـتراب هـو الوطـن .. إنهـم نسـوا أن هـذا الـتراب هـو مـا يصـارع مـن أجلـه النـاس ..

لا أبحـث في خواطـري عـن الماديـات .. مـع ضرورتهـا في الحيـاة .. مـا أبحـث عنـه هـو مـا نـال الإنسـان مـن تنميـة وتطويـر .. وأي النـاس مـن أعنـي !! .. إنهـم معـادن العـز .. وثمـرة الحضـارة والتاريـخ .. الإنسـان العفيـف .. الشـفيف .. أسـأل عنـه في كل الـدروب .. أيـن وضعـوك في خارطـة الأحـلام والـرؤى واسـتراتيجيات المسـتقبل !! .. لا أسـأل عنـه التاريـخ فقـد مـضى .. ووضعنـا عـلى ناصيتـه ميسـمنا .. يهمنـي الآن أكلـه وشربـه .. يقظتـه ومنامـه .. أولاده وبناتـه .. كبـاره وصغـاره .. أحلامـه وأمانيـه .. مـا يـسره ومـا يغضبـه .. إنـه أبي وأمـي وعـزوتي وأرحامـي .. إنـه أنـت وجـاري .. يومـي ومسـتقبلي ..

أقـف حـاسر الـرأس منفعـلاً بهمومـه وآلامـه .. منغصاتـه ومـن يحاولـون تجـاوزه أو إهمالـه ..

ببعـض هـذا الحـس وافقـت شـيخ القبيلـة أخـي عبـد اللـه يعقـوب ، المنفعـل أبـداً بهمومنـا .. أن أشـاركه في الكتابـة في هـذه الصفحـة مـن صرح الوفـاق .. ففتـح لي صـدره .. وآثـرني عـلى نفسـه بصـدر المجلـس .. فـأردت أن أشرككـم همـي .. واسـتمد منكـم عزمـي ..

خاطرة ملونة:

لم تكن غلال منطقتنا تكفي لإعالة أهلنا لما اجتاحتها جيوش ود النجومي .. فاضطر الجيش أن يأخذ كل ما وجدوه عندنا .. ولم يستطع أحد أن يستعيد شيئاً مما أخذوه إلا جدي لأمي : أحمد حبو ..الذي كان يزعم أنه استرد بعض حقه بعد أن عنَّف ود النجومي بشدة .. قيل إن الناس سألوا أحد عقلاء القرية : أصحيح ما يدعيه شيخ أحمد ؟ قال دون تردد : نعم طالما لن نستطيع أن نسأل عنه ود النجومي ..

[14]

وداعاً صديقي ألام شوت .. كنت أتوقع أن ألقاك بميعاد أو صدفة منذ آخر مرة ودعتك فيها .. كان ذلك في جبل أولياء في أواخر الستينات .. لم يفارقني كل هذه السنوات اسمك .. فكرت أكثر من مرة أن آتيك في رمبيك .. وأسأل عن والدك السلطان .. أم تراهم نصبوك بعده سلطاناً ! غير أن أهل السياسة حالوا بيني وبين تحقيق رغبتي .. وكما علمت فإنَّا في شمال الشمال لا نحمل حتى العصا منذ أن اتخذنا الإسلام سلوكاً وشعاراً .. واستعضنا عن ذلك بألسنة حداد نجابه بها من لا نود .. وقليلاً ما هم .. وشفافية يحتار لها الأصدقاء .. واستخدم العقلاء منا سلاح النكتة الموحية في مواجهة سلاطين الزمان .. فكيف يكتب بيننا اللقاء ؛ والحرب التي ألجأتك لتكون بيننا .. وتدرس معنا في الشمال .. استمرت طويلاً .. وانتظرت نيفاشا لأرحل إليك .. فإذا هي مجرد هدنة بيننا .. انتقلنا بعدها من حرب السنان إلى حرب اللسان .. فأخرجت القلوب حزازاتها .. وزادت الهوة بين جانبينا .. ولم يعد ثمة أمل في اللقاء .. فوداعاً صديقي ..

ولكن كيف لي أن أنساك وما كان بيننا لم يكن مجرد لحظات .. إنه بعض تاريخي وجزء عزيز من موروث أجدادي .. بل إن ما حفظته منذ الأولية لا يريد أن يغادر مخيلتي .. فقد طالما رددت بكل جوارحي وآخر ما يستطيع أن يصل إليه عقيرتي : منقو قل لا عاش من يفصلنا .. قل معي لا عاش من يفصلنا .. نحن روحان حللنا بدنا ..

وقل لي أنت : كيف نلتقي ! وقد آثرتم بمحض إرادتكم أن تزيدوا في حجم الهوة بيننا !!.. هل كان بوسعنا أن نفعل شيئاً حتى لا تعلنوا أنكم لا تريدون أن تكونوا معنا على المركب الواحد !! .. هل كان بوسعنا أن نعطيكم وكل الشمال شماله وشرقه وغربه

لا يختلف عنكم في أحواله المعيشية !! .. يشتكون مما تشتكون .. ويتألمون مما أنتم منه تتألمون .. حتى قال لنا أحدكم : مشكلتكم أنكم لا تملكون غابة لتدخلوا فيها كما دخلنا ..

قلنا لولاة الأمر منا : لنؤثركم على أنفسنا حتى ترضوا عنا .. فإذا بكم لم تضيعوا لحظة منذ الاتفاقية في حرصكم على وضع جدار عازل بيننا .. فاتخذتم لكم شعاراً ونشيداً وعملة وكل ما من شأنه أن يفرق بيننا .. فهل كان في وسعنا في الشمال أن نجعل الوحدة جاذبة !.. وكيف تكون كذلك لمن بيتوا أمرهم بليل !!..

وداعاً يا من كنت ذات يوم صديقي ..

خاطرة ملونة:

عَشِيَت عَينايَ مِن طولِ البُكا وَبَكى بَعضي عَلى بَعضي مَعي

[15]

جلست بعد توقف طويل أمام التلفاز أتابع مع أسرتي أحداث مصر .. ويا لها من أحداث !! لقد حاول شباب الكنانة أن يهزوا بعنف صورة مصر التي في خاطري ووجداني .. فما عرفت مصر إلا وهي ترتدي أزهى حلتها .. عرفتها وقد أبدت غاية مفاتنها .. وتبسمت في وجهي بمكتباتها وقاعاتها ومنتزهاتها .. عرفتها في سمت علمائها .. ونبرات خطبائها .. عرفتها في مدارسها الفكرية والأدبية .. واحتدم النقاش بيننا طويلا حول شوقي وحافظ .. وأيهما نقدم .. وناصر بعضنا سي السيد في الثلاثية .. وحسدنا حاج متولي في بعض زيجاته .. وشدنا الشعراوي بعجيب خواطره وهزنا كشك بصخب نقده وجميل دعائه .. وما أكثر من رسموا خارطة تفكيرنا .. وصاغوا منحنيات ذوقنا .. إنهم كالحلقة المفرغة .. أشعر بحرج شديد وطوابير أهل الفكر والفن في خاطري يموجون .. لا أدري من أذكر ومن أدع ..

لم تكن لي حاجة بمصر قبل أن أسعى لها قبل أعوام لقضاء عطلتي الصيفية .. فلما حططت رحالي لم أشعر بنفسي بينهم غريباً .. ونسيت يومها إلى أي شطري الوادي العظيم أنتمي !! وليس لي إليها اليوم غاية تدعوني لإعلان حبي لها وشوقي إليها .. وما أكثر من هم مثلي يكنون لها حباً وتقديراً بغير غرض !!

قـد نصـدق أقطـار العـالم بـلا اسـتثناء إن أعلنـا حبنـا لهـم .. وقـد يكـون ذلـك مجاملـة كعادتنـا .. لكنـا حيـال الكنانـة والحجـاز نشـعر بتقصيرنـا في إعـلان مـدى حبنـا خشـية أن نتهـم أننـا نبالـغ فيـما ندعـي ..

فشـكراً لكـم أيهـا الشـباب .. فقـد أدميتـم كفـي بالتصفيـق .. وصـوتي بالتكبـير .. وعينـي بدمـوع الفـرح وأنـا أراكـم وأنتـم تجـبرون الدنيـا كلهـا أن ترفـع تمـام التقديـر لكـم .. وتقـف مبهـورة بمـا تقدمـون في دروسـكم الحضاريـة عـن معـاني العـزة والشـموخ .. وتصفعـون بوحـدة صفوفكـم طواغيـت الاسـتكبار وتخرسـون ألسـنتهم بيننـا ..

لكم حبي أيها الجيل الجميل .. ودعوني أرفع عقيرتي مع ثومة .. وأنتم قصدي :

الآن .. الآن .. الآن .. أحبك الآن أكثر ..

خاطرة ملونة :

نشـأت في جيـل لم يكـن غريبـاً أن يـرددوا عـلى أسـماعنا (مـصر أم الدنيـا) ؛ فجعلـوا مـن حبهـا دينـاً .. ولمـا أبلغـت والـدي رحمـه اللـه أني نزلـت بشـقة في سـوق الاثنـين .. صـاح في فـرح طفـولي : قريبـاً مـن قـصر عابديـن ؟! .. وسـكت لحظـة ظننتـه نـسي سـؤاله .. فـإذا بـه يقـول في حـسرة واضحـة : ليتنـي كنـت معـك !!

وأصيح اليوم في فرح غامر أخاطب جمعكم الكريم : ليتني كنت معكم !

[16]

رأيـت أن الاكتفـاء بخاطـرة عـن مـصر التـي في خاطـري جفـاء .. فلتأذنـوا لي أن أشـفع الأولى بخاطـرة أخـرى .. فقـد طالمـا أحببتهـا القبائـل التـي أنتمـي إليهـا .. فقـد شـاء اللـه أن أنتمـي إلى النوبـة .. وعشـق أهلهـا جنـون منـذ أن كانـوا في بـر مـصر .. لا يثـق شـعبها بأحـد كـما يثقـون في أمانتهـم وعـزة نفوسـهم حتـى ليتخذونهـم أوصيـاء عـلى بعـض ملوكهـم .. كان والـدي رحمـه اللـه يقـول فيـما يشـبه الاعتـزاز : لحـم أكتـافي مـن مـصر .. فـإذا لامـه أحدنـا .. قـال : لولاهـا لمـا تعلمتـم .. لقـد رأينـا فضـل التعليـم عندهـم وجلسـنا إلى علمائهـم .. فأردنـا أن تكونـوا مثلهـم .. ودرسـتم في مدارسـهم ومعاهدهـم .. فلـماذا لا تشـكرون !! فنسـكت حتـى لا نغضـب الرجـل في محبوبـه ..

ولي أمـل أن أنتمـي إلى قبيلـة الأدبـاء .. فقـد نشـأنا ونحـن ندنـدن بحبهـم ونحفـظ

حنينهم لها .. فقد كانت قبلة المثقفين وملاذ طلاب الحرية .. استمع معي إلى شيخ شعرائنا العباسي، وهو يقول :

مصر ، وما مصر سوى الشمس التي   بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سعيتُ لها فكنت كأنَّما   أسعى لطيبةَ أو إلى أمِّ القرى

بينما يقول التجاني :

كيف يا قومنا نباعد من فكرين   شُدًّا وساند البعض أزرا ؟!

وأتمايل طرباً وأنا أسمع نونية الجارم :

إنّا على العهدِ لا بُعدٌ يحوِّلنا   عن الودادِ ولا الأيامُ تُنْسينا
ظِلُّ العُروبةِ والقرآنِ يجَمعُنا   وسَلْسَلُ النيل يُرويهم ويُروينا

ويعجبني شوقي بنشيده الجميل:

فمصر الرياض وسودانها   عيون الرياض وخلجانها
وأهلوه منذ جرى ماؤه   عشيرة مصر وجيرانها

وقد اضطر أن أنتقل معك إلى أهل التاريخ والاجتماع .. حينئذٍ سيحدثونك أن ما يربط بين شطري الوادي من وشائج القربى لا يحتاج إلى درس عصر لكن دعوني أردد مع التجاني :

فحيا الله مستودع الثقافة مصرا ..

خاطرة ملونة:

يعجبني نشيد شاعرنا أحمد محمد صالح يخاطب علي الجارم :

يا وارث الأدب التليد وباني الأدب الأجد
علِّم شبابَ الواديين خلائق الرجل الأشد
علمهمو أن الخنوعَ مذلةٌ والجبن يردي
علمهمو أن الحياة تسير في جزر ومد
علمهمو أن التمسح بالفرنجة غير مجد
وأبِنْ لهم أن العروبة ركن إعزاز و مجد

[17]

كان مما يغيظني من طلابي في رياض الخير أنهم عرفوا ما الذي يغيظني .. ومتى يزداد انفعالي .. ويرتفع صوتي .. ولم أتعظ مرة فأخيب ظنهم أو أتجاوز عن غضبي

وحِدتي .. وما أن يروني كذلك إلا قالوا في خبث بريء : لا تعًصب .. لا تَعصَّب !!

وعرف القابضون بزمام الاقتصاد في بلادنا متى يبلغ منا الغضب حده .. وما أكثر ما تلسعنا إجراءاتهم .. المشكلة أنهم إن سمعوا احتجاجنا التلقائي تعجبوا .. وضربوا كفاً بكف .. وتساءلوا : ما الذي يغضب هؤلاء !! .. وليس من شيء يجعلنا نتميز من الغيظ غير الذي يصل أثره إلى جيوبنا .. إننا حينئذٍ نكون بين كماشتي : أصحاب القرار في بيوتنا والتجار ..

وكلما حزبنا الاقتصاد الوطني بضرائبه وازداد سعير الأسعار .. ووجد كل تاجر فرصته في التمثيل بجيبي .. أنا وحدي الذي يكتوي بنارهم .. أنا وحدي الذي عليه أن يتحمل قسوة التاجر .. وبحث الدولة عن حل مشاكلها المالية .. إنهم حينئذٍ يتركونني أمام عجزي .. وتسلط أم أولادي في مزاجي .. إنها تعرف أني أحب الشاي محلى زيادة .. أو كما نقول بكل فخر (سوداني) : يعني معلقتين وزيادة .. وقبل أن أقرأ إعلان زيادة الأسعار أعرف ذلك من كمية السكر في كوبي .. تقول في حزم واضح : كلما زادوا .. نقَّصنا نحن كمية ما نشتري .. فأقول : شِدَّةٌ وتزول !.. فتنتقل إلى صحن الفول المعتبر فأجد بدلا منه البوش .. وما أدراك ما البوش إذا تكرر !!

قال الوالد رحمه الله ذات مرة بعد الغداء : تعرف يا ابني كانت التحلية في أيامنا أهم من الغداء .. فنظرتُ إليها عسى ألا تحرجني أمام السيد الوالد .. لكنها قالت ببرود : الأولاد كشفوا محل التحلية وخلصوا عليها .. قلت لها : لمن أشكوك يا أم أولادي ؟ قالت ببساطة : لناس المويه .. قلت : وما دخلهم ! قالت : إنهم على الباب لتدفع لهم فاتورة المويه .. قال والدي : وكم تدفعون ؟ قلت : ستة عشر جنيهاً في الشهر .. قال : في مدينة يحيط بها نهران عظيمان !! عجبي ! لم أشأ أن أكشف له الباقي .. وما ندفع من العوايد والكهرباء والنفايات وغيرها .. ومقدار الزيادة في سعر كل شيء يمكن شراؤه .. حتى لا يصطدم أو يظننا نلعب بعقله .. أو يصدقنا فيضطر إلى المقارنة بزمانهم .. فيعرف الناس من أم الأولاد أننا كنا نعيش في بحبوحة من العيش من قبل .. أو أغني كما أفعل دائماً : لن ننس أياماً مضت .. لن ننس ذكراها .. ها ..

خاطرة ملونة:

لقد آن لي أن أبحث عن حزام لا يكتم أنفاسي .. أو يكشف مأساتي .. لقد آن لي أن أكثر من حمد ربنا .. فإنه لا يحمد على مكروه سواه ..

[18]

أرجـو أن لا يصيبـك العجـب إذا سـمعت أن طلابنـا لا يسـتفيدون كثـيراً مـن أسـلوب المحـاضرات ، وليـس العجـب أن نسـبة اسـتفادتهم منهـا لا تتعـدى السـبعة في المائـة .. لكـن المشـكلة أن بعـض العلـماء يقولـون إن حـوالي ثلـث تفكـير الطـلاب في المحـاضرة ينـصرف إلى موضوعـات أخـرى لا صلـة لهـا بموضـوع المحـاضرة . أحسـب أن ذهنـك انـصرف إلى خطـب أئمتنـا جزاهـم اللـه عنـا كل خـير في المسـاجد .. وأعفيـك أن تسـأل عـن مـدى اسـتيعاب المصلـين لمـا يقولـه الأئمـة أو مـدى اسـتفادتهم مـن خطبهـم . لـو سـألت جمهـور أي مسـجد عـن مـدى اقتناعـه بمـا قالـه خطيـب الجمعـة لأمَّنـوا دون تـردد .. وقـد يبـدون إعجابهـم بمـا يسـمعون .. لكنـك إذا تابعـت سـلوكهم فيـما أرشـدهم إليـه الخطيـب مـرات ومـرات لأخـذك العجـب .. وإذا ناقشـت ولاة أمورنـا عـن أهميـة الدعـاة ومنهـم أئمـة المسـاجد لكبَّروا كـما يفعلـون دائمـاً تأمينـاً لعظـم دورهـم ومسـؤوليتهم في قيـادة الأمـة والأخـذ بيدهـا .. وتسـمع في حقهـم إشـادة وتمجيـداً .. ولا أعلـم أحـداً يغفـل عـن دور المسـجد في حياتنـا .. كـما لا يغفلـون عـن مـدى إهمالنـا لهـم .. ولـك أن تسـأل معـي عـن مقـدار اهتمامنـا بهـم وبمعاشـهم وتعليمهـم ولا تتعـب نفسـك لمعرفـة إسـتراتيجية الولايـة بـل الوطـن كلـه للاهتـمام بهـم وتدريبهـم .. وكـم عـدد مـا نفذتـه الولايـة في الأعـوام الخمسـة الماضيـة مـن دورات تدريبيـة لهـم .. وقـد سـمعت أن بعـض أئمتنـا مـا زال يقـرأ عـلى جمهـور المصلـين مـن خطـب ابـن نباتـة ويدعـو لإمـام الموحديـن ويتسـاءل ببسـاطة عـما يحـدث في شـارع عـماد الديـن !!

في أول جمعـة لي في قريـة سـعدنفنتي بعـد أن تـم تعيينـي معلمـاً في مدرسـتها المتوسـطة أصابنـي أسىً عميـق وأنـا أتابـع مقـدار مـا يعانيـه الخطيـب لقـراءة الخطبـة التـي أعدهـا عـون الشريـف رحمـه اللـه أو وزارتـه .. لمـا انتهـى مـن الصـلاة قـال معتـذراً أحسـن نرجـع لخطبنـا .. ولاشـك أن خطـب الـوزارة قيمـة ومفيـدة ولكـن .. لم يراعـوا جمهـور المصلـين وثقافـة غالـب الأئمـة .. فـلا تجـد اهتمامـاً بأسـلوبه أو ورقـه أو خطـه .. ولم يراعـوا اختـلاف العاصمـة والمـدن عـن مجتمـع الريـف ..

عندمـا كلفـت بإمامـة المسـجد في تلـك القريـة حـضَّرت عـلى طريقـة المدرسـين خطبـة (كاربـة) وأردت أن أعـرف أثرهـا عـلى صديـق لي قـال بانفعـال بعـد أن سـمعها : خطـب ابـن نباتـة أحسـن ، عـلى الأقـل خطبـه قصـيرة واعتدنـا عـلى مـا فيهـا مـن سـجع .. وبـدأ يسـأل سـاخراً: هـل تريـد أن يعرفـوا أنـك متمكـن في العربيـة .. عارفـين .. هـل تريـد أن يعرفـوا أنـك

عـالم ؟! إنهـم متأكـدون عـلى الأقـل إنـك أفهـم منهـم في أمـور الديـن !! قلـت بانفعـال : فـما الحـل ؟ قـال : تحـدث في شيء يهـم النـاس .. مـن مشـاكلنا وهمومنـا.. مـن واقعنـا .. عـن البلـح وحصـاده وزكاتـه .. عـن الزراعـة وعلاقـات النـاس .. عـن عاداتنـا وتقاليدنـا .. عـن ... وبأسـلوب بسـيط حتـى يفهـم أغلبهـم مـا تقـول .. وليـس النـاس في حاجـة لخلافـات الأئمـة وأدلـة كل منهـم .. المهـم مـا هـو المناسـب مـن أقوالهـم عنـدك .. و .. و .. بعـد يومـين سـألت إمـام المسـجد عـما في المسـجد مـن مراجـع .. ضحـك الشـيخ وقـال : لا تسـألوا عـن أشـياء .. وأنتـم أدرى بحالنـا في هـذه المناطـق النائيـة .. كتـب !! كتـب !! حتـى المصاحـف هديـة مـن بعـض المحسـنين !! أخـشى أن تسـألني عـن فـرش المسـجد وإنارتـه أو الميكرفـون .. وطبعـا احترمـت الرجـل فلـم أسـأله .. وأخـشى أن أسـأل المسـئولين فيغضبـوا .. فمـن المؤكـد أن المسـاجد ليسـت مـن أولويـات الولايـة .. لكـن الأئمـة فلابـد مـن حضورهـم في المناسـبات لـزوم الوجاهـة .. فأنصـح لذلـك أن نهتـم بهـم حتـى نهيئهـم وندربهـم للعـب هـذا الـدور المهـم ..

خاطرة ملونة:

حـكى لي أحـد ولاة الولايـة السـابقين أنهـم وصلـوا في زيـارة عمـل إلى قريتنـا .. وبعـد أن صـلى بهـم الوالـد صـلاة الجمعـة .. وفي داخـل المسـجد أرادوا أن يبـدأوا اللقـاء السـياسي ، فوقـف مقـدم اللقـاء وقـال : خـير مـا نفتتـح بـه لقاءنـا هـذا آيـات مـن الذكـر الحكيـم .. وقبـل أن يكمـل الجملـة وقـف والـدي منفعـلاً .. ومـاذا كنـا نفعـل مـن الصبـاح !!! مـا تدخلـوا في الموضـوع !!

المحور الثاني : أحاديث متفرقة

أيهذا الشاكي

كتبت إحداهن في إحدى المنتديات عن ألم الذكريات وبشاعة التفكير ، هذه العبارة :

« الفرح سرعان ما يرحل أثره ، وأما الحزن فيبقى مثل النحت على صخرة صلدة، تمر أيام يدفن فيها الغبار والأتربة هذه الصخور ، وما أن تأتي الأجواء الرائعة التي تنتشي فيها الروح كتهاطل المطر فيغسل الصخرة عن الأتربة حتى يظهر القلب على حقيقته مجرحاً من كل جهة ، قد تلمع الصخرة من روعتها وجمالها ولكن الشقوق المحفورة يبقى أثرها غائرا «.

إن هذه (الرومانسية) الحزينة لا ترى إلا الجانب المظلم من أعماقها .. لا ترى إلا أكدار الحياة ومنغصاتها .. أشواك الزهر لم تكن حائلاً يوماً من الأيام دون التمتع بجمال الزهر، وتنشُّق العبير.. ولتسمحي لي بأن أعيد عليك أبيات إيليا أبو ماضي :

أيّهذا الشّاكي ! وما بِك دَاءٌ كيفَ تَغدو اذا غَدَوتَ عليلا؟

وترى الشّوكَ في الورود وتَعْمَى أن ترى فوقها النّدى إكليلا

صحيح إن بشاعة تفكيرنا تقودنا للوراء دائما نحو الذكريات الأليمة ، ولا شك انها مؤرقة ، يقول المولى عز وجل : ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران: 153] وهذا في غزوة أحد ، فالمصائب إذا جاءت متتابعة الواحدة تلو الأخرى أنست التالية السابقة ، وسفينة الحياة لا تتوقف .. ونحن في خضمها علينا أن ننشغل بما ينقذنا ، ونخطط في هدوء فيما يرسي سفينتنا إلى بر الأمان بدلاً من البكاء على الرياح العواصف ، والأمواج العاتية ..

القائد والنملة

أحكي لكم اليوم قصة القائد الذي اضطرته الهزيمة النكراء التي مُنِي بها أن يفر بجلده بعيداً عن أرض المعركة ، وجلس وقد اثقلته مرارة الهزيمة ، وغطته الهموم من كل صوب .. يكاد يتمنى الموت لو ينقذه مما هو فيه من الألم والحسرة .. وهو في هذه الحالة استرعى انتباهه نملة صغيرة تدفع طعامها ، وتريد أن تصعد بما تحمل

مرتفعاً عالياً ، وكلما وصلت درجة معينة في صعودها ، انزلقت إلى الأسفل ، فتبدأ من جديد ، لا تترك محاولتها في الصعود ، ولا تدع طعامها ، ومرت الساعات تلو الساعات إلى أن استطاعت أخيراً في الصعود بحملها .. ورجع القائد إلى جنده المهزوم يبحث في وسائل النصر ، وأسباب الفوز ، لا البكاء على ما أصابهم من الهزيمة ..

قبل أيام دخلت على ابنتي في حجرتها ، فهالني أن أجدها لا تذاكر ، سألتها في شفقة : لاشك أنك ذاكرت موضوع امتحان الغد جيداً .. فقالت بحسرة واضحة : لقد كان امتحان الأمس صعباً ، وأشك أني ناجحة فيه .. قلت في سري : حتى أنت يا بروتس!!

وأظنني فعلت الأمر نفسه في إحدى المنتديات التي كنت أجد نفسي متلهفاً لأن أكون بينهم كل ليلة فإذا بي أشعر أن القوم لا يرحبون بي ، وبكل من يحملون اسماً (مستعاراً) . وعلى الرغم من رقة الخطاب معنا ، وتبرير الدعوى فإني آثرت الانسحاب .. قائلاً مع الشاعر أبي فِراس : فقلت هما أمران أحلاهما مر ..

وإني لأجدهم على حق .. فلهم العتبى ،، ولشيخهم المشرف كل تقديري وإعزازي ..

مراجعة سلوكنا

أحياناً يتخذ الإنسان موقفاً معيناً ، وهو يعرف أنه موقف خاطئ ، أو على الأقل كان يمكن أن يتخذ موقفاً آخر أنسب له ، فليس كل سلوكنا الاجتماعي منطقياً ـ سواءً أكان ذلك على المستوى الفردي أو ينسحب على المجتمع بأسره ـ بل إن الأمر يتعدى حتى على بعض ما يأمر الدين من الالتزام به ، أو يأمر باجتنابه .. وإن كان من السهل فهم أمر المقتضيات الاجتماعية بدلالة العادة والتقليد والإلف ، وإلا فكيف نفهم سبب ارتباطنا بأزيائنا القومية ، أو بأكلاتنا الخاصة ، وقل مثل ذلك في كثير من عاداتنا وتقاليدنا ، فإنك إن فكرت في كثير منها لا تجد لها منطقاً ، ولا تستطيع أن تقنع بجدواها غيرك .. أما أمر الدين فسهل أن نبرر كل ما أمرنا به إما بمقتضى العبودية ، أو بمقتضى ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[الاسراء: 85] ؛ فالعبودية أرفع ما يصل إليه المؤمن من درجات حتى يصل مقام القرب بالتزام ما يأمره به ربه ، فكيف إذا أمرنا الخالق ، البارئ ، المنعم ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: 18] فهل ينبغي لنا أن نرد عليه أمره !!

أعجبني قول عمر (رضي الله عنه) لما قبّل الحجر الأسود ، فقد ورد في صحيح البخاري : أَنَّه جاء إلى الحَجَرِ الأَسوَد فَقَبَّلَه فقَالَ إِنِّي أعلم أنك حَجَر لَا تضرُّ ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك) ..

وحاول في صفاء وهدوء أن تفكر معي فيما تمارسه من سلوك فردي : هل نحن مقتنعون بها تماماً !! ولا تحاول أن تقدم تبريرات ؛ أنا وأنت أول من نشك فيها .. لنأخذ التدخين مثالاً .. إذا وجدت حرجاً في مواجهة نفسك في هذا أو غيره وما أكثره .. لا تتردد في أن تتهمني بما تشاء ، فأنا مثلك ارتاح كثيراً إذا وجدت من ألومه في أي موقف أخشى أن أواجهه ..

كوم تراب

سألني أحدهم : هل وصلت إلى ما كنت تتمنى أن تصله ؟ ويبدو أنه أصيب ببعض الدهشة لما أجبته : متى ؟ فإنك كلما وصلتَ مرحلة معينة عدَّلتَ من السقف الذي تريد أن تصل إليه ، وتتغير تبعاً لذلك أمانيك ، وأدوات تحقيقها ، ومستوى سعيك لنيلها ..

أذكر أني قرأت قديماً قصة قصيرة ، تحكي عن غريب وفد إلى قرية بحثاً عن الغنى ، وسعى ليمنحه أهلها قطعة زراعية ، فوافق شيخهم دون تردد ، ولكنه اشترط أن يتم منحه في حضور أهل القرية جميعاً ، قبل شروق شمس اليوم الثاني على التلة المشرفة على المزارع .. فلما وصل المكان في الموعد المحدد : قال له : هذه مزارعنا أمامك ؛ ولك منها كل أرض تستطيع أن تبلغها قدماك قبل غروب شمس هذا اليوم ، فلا تتردد أيها الرجل أن تختار منها ما يعجبك ، شريطة أن تصل قبل الغروب ، وإلا فقدت كل شيء ..

انطلق الرجل خفيفاً نشطاً .. هذه الأرض تصلح لزراعة القمح شتاء .. هذه تصلح لزراعة الخضر .. وتلك سأبني فيها بيتاً للأبقار .. و. . و.. ويضع في كل ما يختاره عوداً .. وتواردت الأمنيات ، وتشابكت الخواطر ، والرجل ما يزال يدندن حيناً ويقف لينحرف إلى بقعة أخرى يجدها أنسب لبعض مشاريعه الكبرى ، واختفت التلة وراءه ، وانتصف النهار ، ثم بردت الشمس ، ثم .. وهو ما يزال ينتقل من مكان إلى آخر .. ولكنه كان لابد له أن ينتبه أخيراً إلى شرط العودة قبل الغروب ، فانحرف عائداً ، وأسرع قليلاً ، ثم اضطر إلى أن يهرول ، ولما بدأ يعدو لإدراك الموعد ، لم يكن همُّه إلا أن يصل فحسب .. ولكن قواه بدأت تخور ، ويشعر بثقل في قدميه ، ثم رأى التلة من بعيد ، فزاد في سرعته ، أو هكذا خيِّل له .. ثم بدأ يتعثر .. وتداخلت المرئيات أمامه ، وغامت،

ولم يعد يرى شيئاً ، ولا يعرف إن كان يجري كما يحسب ، أم أنه لا يكاد يتحرك ؟! ولم يسمع جيداً صياح الناس وهم يشجعونه .. ولما وقع بلا حراك على مشارف التلة .. قرَّر أهل القرية أن يهبوه حفرة مستطيلة ..

نحن والغرب

أنا واحد من الذين يؤكدون أن أهل الغرب لا يتميزون عنا بشيء ، وأن ما يقال عن تفوقهم الفكري ، أو قدراتهم الخاصة مجرد هراء .. وما كان تصديقنا لهذا الإدعاء إلا لعدم ثقتنا بأنفسنا .. ضحك من قلت له هذا الكلام .. وقال : إنَّا كنا نظنك فينا رشيداً ، فإذا أنت كما أراك تهذي .. يكفي أنهم أكثر انضباطاً منا في مواعيدهم ، ومضى .. ومضيت .. وكل منا مقتنع بما ادعى ، إلى أن كان ذات يوم تقدمت فيه للعمل مدرساً في مدرسة أجنبية في وسط أم درمان .. ولم تدم فرحتي باستلامي للعمل أخيراً ، إذ فوجئت بمديرة المدرسة الايطالية تقرع أذني بأني تأخرت عن موعد الطابور الصباحي ، وطلبت مني برقتها المتناهية أن لا أتأخر مرة ثانية .. وإلا ...

أمر بسيط ؛ لأن حلَّه يتوقف على استيقاظي مبكراً .. وقد كان .. فقد انطلقت في اليوم التالي بنشاط تام في تمام السادسة صباحاً نحو موقف (العزوزاب) وهالني أن أجد الناس وقد اصطفوا على جانبي الطريق في انتظار مركبة ، وما أن تصل إلا تدافعوا نحوها في شراسة وجنون ، وزاحموا عليها بالمناكب .. ولم أر صنيعهم يصلح لمدرس بنات ينبغي أن يدخل الفصل بهندام مرتب ، وشعر مصفف و ... ولكن ماذا أفعل مع هذه الدقائق التي تسرع في الانقضاء ، وأنا عاجز عن اللحاق بمركبة تقلني إلى حيث أقصد .. إلى أن هدتني أفكاري أن أتحول إلى الاتجاه المعاكس ؛ فوجود مكان في المركبة أسهل ، حتى أصل إلى نهاية الموقف ثم أعود مرة أخرى في اتجاه الخرطوم بالحافلة نفسها .. ولحسن حظي نجحت في تنفيذ خطتي بسلام .. غير أن المركبة الحكومية التي وجدت مقعداً فيها بسهولة لم تقف طويلاً في نهاية موقف العزوزاب بل انطلقت في اتجاهها نحو القلعة ، فقلت : لا بأس ستعود من نهاية القلعة ، ولكنها آثرت أن تنطلق نحو الكلاكلة ، فلم أنزعج إلا قليلاً للتأخير فقد كنت متأكداً أنها ستتحول في لفة القبة نحو الخرطوم .. فوجدتها تنحرف نحو القبة وتتهادى في طريقها ، وتطلق من مزمارها ما جعل أنفاسي تتصاعد ، وقبضتي تتكور ، ودمائي تغلي .. عندما وصلنا نهاية المحطة كنت قد وصلت نهاية ما يمكن أن أتمالكه من أعصابي ، وبينما كنت أحاول أن أصل إلي السائق كان قد نزل وفي فمه سيجاره وفي يده صحيفة ، ولم أجد بداً من الرجوع

إلى مقعدي .. وفي طريق عودتنا تحركت نحو السائق بصعوبة بالغة بين الركاب .. فلما وصلته كان الباص قد حاذي محطة العزوزاب فسألته بأدب جم أن يمكنني من النزول .. وبعد نوم أحتل غالب اليوم ، بدأت في مراجعة كلمات الاعتذار والتأسف في لغة الإنجليز ، وحفظت منها ما أسعفني عندما وقفت أمام الايطالية الشمطاء في اليوم التالي ، أعيد منها وأكرر ، وهي تدعو بقية الشلة ، وأحسب كل مرة أني ما زلت مقصراً في تقديم ما يناسب الموقف من اعتذار .. حتى انفجرت إحداهن ضاحكة : لقد كان من حظك الجميل أنك لم تصل بالأمس إلى المدرسة .. فسألتُ لغبائي : لماذا ؟ فقالت : لأن يوم الأحد عطلة عندنا ..

وجه آخر : بيننا وبين الغرب !!!

سعدت قبل يومين بحضور محاضرة عن (مشكلات البحث العلمي) قدمها البروفسير صديق حياتي مدير جامعة الخرطوم .. وساح بنا الرجل وهو يحدثنا عما وصله الآخرون في مجال البحث العلمي ، وما بيننا وبينهم من بون أكثر من شاسع ..

عندما جاء دوري في المداخلة .. وبضاعتي مزجاة (أي قليلة ورديئة) ، قلت ، وكأني أقدم خواطري الملونة : لقد أحسنت فيما بيَّنته لنا .. فماذا نفعل ؟!

هل نجلس في مناحتنا نبكي حظنا العاثر .. وما نحن عليه من تخلف في كل المجالات !! أم (نَفُطْ) هذه الحقب التي بيننا وبيننا من التجارب والخبرات والبذل والعطاء لنركب القطار من آخر محطة ؟! .. وهل إذا فعلنا هذا الفط نستطيع أن نلحقهم ؟! .. هل يكفي أن نعلق الأمر على شماعة الإمكانات ؟!

وقد تبسم البروف حياتي لما قلت : إن مدير مدرسة خور عمر النموذجية أوضح لنا في أول عملنا معه إن هدفه يقوم على أن نبذل كل جهدنا وطاقاتنا لنحقق الوصول إلى ما كنا عليه قبل عشرين سنة في تعليمنا !!

لما رأيت ابتسامة الرجل ، أضفْتُ : ليس مهماً المسافات الطويلة التي سرتها لتصل إلى هدفك .. المهم أن تكون في الاتجاه الصحيح !

مثله في ذلك الطالب الذي يؤكد لك أنه ذاكر كثيراً وأتعب نفسه في السهر .. قل له : لا قيمة لكل تعبك ما لم تتأكد أنك كنت تقرأ ما ينبغي لك مذاكرته .. ترى ما الذي ينقصنا لنبدأ المشوار الصحيح ؟

لعله أجاب : التعليم .. التعليم .. التعليم .. والتنظيم .. أو هكذا كنت أريده أن يجيب ..

قيل إن (ماليزيا) لم تكن لتخرج من زمرة المتخلفين من دول العالم الثالث لتتحكَّر في مجلسها بين السبعة الكبار ، إلا بالتعليم والتنظيم الإداري !!!!

أذكر أن إمام مسجد حيِّنا في مدينة الرياض كان يُضمِّن في دعائه على اليهود والنصارى : اللهم جفِّف الدم في عروقهم .. ونحو ذلك من العيار التقيل .. وجدته مرة في ساعة صفاء .. وقلما يكونون كذلك وخاصة مع الأجانب .. قلت أيها الشيخ كلما سمعتك تدعو على القوم أتذكر الجملة الأخيرة من حديث النبي ﷺ يقول فيه رسولنا الكريم ﷺ : (فأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك) أي لن يستجاب لنا دعاءنا إن لم نأخذ بأسباب العلم مثلهم ، ونكون في مستوى إعداد القوة لإرهابهم .. قلت وأنا أتصنع الجدية : فإذا جفت الدماء في عروقهم من يصنع لنا الأدوات التي تستخدمها في المسجد : الميكرفون .. المراوح ..... وحتى لا يضعني الرجل في طائلة الاتهام ، وهي عادة ما تكون جاهزة .. استدركت بسرعة : إن الله سخرهم لنا .. فدعهم يجتهدوا ويبتكروا.. فنحن المستفيدون على وعد الله لنا بالتمكين في آخر الأمر ..

قال الشيخ وهو يتخلص من مشكلة : هداك الله يا زول .. هداك الله يا زول .. ولم يعقب .. فتركته ..

هويتنا . .

أخي الإعلامي الدكتور الحسين . .

نضَّر الله وجهك .. ووجَّهك إلى ما تحقِّق به عفوه ورضاه .. وترضى نفساً وتهدأ بالاً .. وسرني أني كنت محلاً لثقتك ؛ فهي غالية .. وبضاعتي فيما أردتني مزجاة .. وقد أردت أن ألزم تخوم ثغري أحرسها .. لكني قدَّمت قبل سنوات محاضرة عن هوية الأدب السوداني تعرضت فيها لأشواق أهل السودان والطليعة المثقفة من جيل الثلاثينات .. وتجاذُب الهوية عند من جاءوا بعدهم بين الغابة والصحراء .. وكتب كثير من الباحثين في حقل الهوية السودانية ، وتنادوا ب (السودانوية) كبوتقة لصهر الثقافات السودانية المتنوعة . وذكر الدكتور منصور خالد أن القاع الاجتماعي للوطنية السودانية ليس هو الاستعراب أو التزنج ، وإنما هو خليط من هذا وذاك ، وأشار إليه - أيضاً - بالسودانوية .. وظهرت مجموعات ثقافية عديدة كحركة (أبادماك) وهي حركة تبناها اليساريون . وظهرت رابطة سنار ، وأولوس في كسلا . وتطورت أطروحات الغابة والصحراء فيما بعد لتصبح (الأفروعربية) . هذا ، دون أن نغفل الإشارة إلى

ظهـور التيـارات التـي حاولـت عـلى اسـتحياء أن تشـدنا إلى البعـد الأفريقـي ، والاهتـمام بالقضايـا الإقليميـة والجهويـة البحتـة . ويبـدو أن انتهـاء المـد الشـيوعي ومحـاولات تجفيـف منابـر الاشـتراكيين ، وضعـف عنـاصر التوجـه الفكـري في بلـد عـرف أهلـه بالتديـن وممارسـة شـؤونه الدينيـة بصـورة شـعبية كانـت وراء ضعـف هـذه التيـارات وعـدم اسـتمراره . غـير أن مـا اسـتجد في السـاحة الوطنيـة مـن نشـوب الحـركات الإقليميـة ، ومطالبتهـا بعدالـة توزيـع السـلطة والـثروة أفـرزت في الوقـت نفسـه اتجاهـات إقليميـة ، وبـدأت الشـعوبية السـودانية تطـل برأسـها ، مقترنـة بسـعيها نحـو تعزيـز ثقافاتهـا ولهجاتهـا الخاصـة ، الأمـر الـذي يسـتدعي تدخـل المفكريـن والباحثـين ، لا للتصـدي لهـذه التيـارات ومحاربتهـا ، بـل لإيجـاد صيغـة مناسـبة للتعامـل مـع هـذه المشـكلة .

وأعجبنـي ذات يـوم مـا قيـل إن السـودان كان مأمـولاً منـه أن يقـود الأفارقـة بهويتـه ؛ فـرضي أن لا يؤبـه بـه في ذيـل العروبـة .. أو كـما قـال مـن قـال .. وكان مـما قلتـه ذات يـوم عـن الأدب السـوداني أنـه جدير بالدراسـة والاهتـمام بـه ... وأن جدارتـه بالدراسـة تنبـع بصفـة خاصـة مـما لـه مـن تميُّـزٍ نوعـي بسـبب تميـز المـكان والشـعب .. كـما تـأتي جدارتـه مـن تميـز الظـروف التـي أحاطـت بالإنتـاج الأدبي في السـودان ؛ نظـراً لخصوصيـة الأوضـاع والملابسـات التاريخيـة والسياسـية التـي مـرَّ بهـا السـودان في تاريخـه الحديـث .. وارتبـط بالعروبـة واللسـان العـربي ، وتمـازج الـدم العـربي بالإقليمـي ، وتنـوع أقاليمـه الجغرافيـة ، واتسـاع مسـاحته ، وتعـدد ثقافاتـه ؛ وأثـر كل ذلـك في تحديـد خصائـص الأدب واتجاهاتـه وتطـوره..

وقـد تحـدث بعـض أصحابنـا عـن الهويـة النوبيـة مـن معيـار مـا تمتـاز بهـا .. وهـي تتأرجـح بـين التاريخيـة والأشـواق لفئـة لم تعـد لهـا مـن ذاتيتهـا غـير أسـمال مـن اللغـة الشـفوية المتجاذبـة بـين شرائحهـا ، وإرث تاريخـي يشـفع لنـا ارتباطنـا بهـا واقعـاً ..

وكنـت كتبـت قبـل سـنوات عـن اللغـة النوبيـة والثقافـة النوبيـة تحـت عنـوان (حـوار هـادئ ...) .. وأظننـي فرقَّـت فيـه بـين أن نفخـر بمـا عندنـا ، وأن نتبـاكى بتهميـش الآخريـن لنـا .. وبـين أن نعمـل جاديـن لعـرض مـا عندنـا وفـق اسـتراتيجية واضحـة ومنهـج علمـي.. وتحضـير مختصـين .. ومـن العجيـب أن كل مـن اجتهـدوا لتحريـر المعجـم النـوبي ليـس مـن بينهـم مختـص لغـوي .. ولا يزيـد الحديـث عـن النوبيـة عـن عواطـف ظرفيـة .. أفـلا تسـتحق النوبيـة لجنـة علميـة وسـمنارات ونـدوات علميـة بحتـة .. وكل ذلـك ميسـور إذا توفـر أمـران : إخـلاص النيـة .. والمـال .. وطبعـاً جهـة علميـة راعيـة .. تدفعهـا وتقـف مـن خلفهـا منظـمات ..

في يوم التعليم والمعلم

لقد كان قدري يوم أن سلحتنا الجامعة الإسلامية بفكرها في صيف 1975م أن أتوجه مباشرة لاتخذ من الطباشير سلاحاً .. وتفيأت رحاب المدارس وظلالها الوارفة برضاً وحب .. واليَومَ يَدفَعُني الحنين لتلكم الأيام وذكرياتي فأعود أدراجي بلهفة إلى مدارس صواردة وسعدنفنتي ودنقلا وخور عمر ومعاهد التأهيل التربوي في دنقلا وأم درمان والخرطوم وكسلا .. أعود إلى تلك الديار وَلهان مُضطَرِبا .. ورحم الله التجاني ومعهده .. ورحم أولئك الأفذاذ الذين عشت بينهم مكرما .. أنهل من علمهم وخبرتهم وقبل ذلك ذوقهم وخلقهم التربوي .. إنهم حملة مشاعل المعرفة .. أستاذ عبد الفتاح .. محمد علي (طلسم).. محمد عثمان نكولا .. خالي عواض .. وبقية طيبة من العقد الفريد ..

أحيانا أتساءل ترى كم طالب قابلت فيما يزيد عن الأربعين عاما .. كنت ذات يوم في عشرة ونسة مع صديقي الأستاذ محمد عابدين في شقتنا بالرياض، فاستفزني جرس التلفون .. فقمت ساخطا متبرما فإذا بالطرف الثاني أحدهم يقول ببساطة أنا أحد من درس على يدك .. ونجحت وأنا اليوم طبيب في المملكة ولكني بعيد عن الرياض .. فقط أردت أن أسجل تقديري ومحبتي ومتأكد أنك نسيت اسمي .. لا اذكر من الذي أغلق التلفون على صاحبه.. ولكني أتذكر أني اضطربت كثيرا بعده .. ترى كم من طلابي يشعر أني أفدته .. وكم منهم من يشعر بغير ذلك .. عن امتناني لأساتذتي كتبت من قبل كثيرا بدءا بشيخينا عبد الرحمن بدري وابنه الشيخ أحمد .. اللهم إني أتذكرهم هذه الليلة في يوم المعلم وأسألك أن تتغمدهم برضوانك وعفوك وأن تنزلهم منازل العلماء العارفين وأولياء الله الصالحين ..

رحلة..

عندما عبرت تلك الأمسية بوابة جامعة القاهرة فرع الخرطوم لحضور محاضرة ..صكت أذني كلمة بروفسور بعنف حين قدموا بها المحاضر وبعض المناقشين .. وأحسنوا وأجادوا .. كنت يومها على أبواب الجامعة .. وكنت أظنني أعرف شيئا من العربية .. بل تجاوزت ذلك إلى نظم ما كنت أحسبه شعرا .. تخيل !!.. لقد أبدعوا فيما عرضوه.. كانت عربيتهم غير ما ألفت إلا في أضابير الكتب .. وأنا أردد : أهذه العربية التي أهذي بها .. ويحسنها من يحملون هذه الدرجة العجيبة .. وفتني اللقب دهراً .. ومن ثَمَّ وجدت مقعدي بين شُداة العربية في جامعة أم درمان الإسلامية .. وكلفت نفسي فوق

طاقتها لحفظ ألفية ابن مالك .. ولقيت من عنت الزيود مشاكلا .. وبكيت من عمرو ومن إعرابه .. وما يمر يوم إلا وأعرف شيئا من العربية .. واكتشف إني ما زلت جاهلا .. يرفع في كل محاضرة زملائي أصابعهم عندما يشاركون الشيوخ .. ويصولون ويجولون .. وأنا وأمثالي ممن اعوجت ألسنتهم بينهم كالغريب التائه .. ولا نكاد نبين .. رضي بعضنا من الغنيمة بالإياب فانسحبوا في هدوء .. وصمدنا .. وتقدمت الأيام .. وبدأنا نتجرأ فنرفع للشيوخ أصابعنا في تردد عساهم يرضون بمشاركتنا ..فيمتَنَّ بها بعضهم علينا .. وينظر آخرون إلينا شزرا .... فلم يكن أمامنا إلا أرفف المكتبات فاعتادت علينا .. وأَلِفتنا مراجعها .. نحضِّرُ درس الغد .. ثم نسجِّل ما يقوله الشيوخ .. ونذاكر بعد المحاضرة .. ونلخِّص .. واقتصر طموحنا على أن نجتاز ما دبسنا فيه أنفسنا .. ومضت الأيام .. ومرت السنون .. ورضت بنا وزارة التربية .. يومها كنا عملة صعبة .. وبدأتها بمدرسة صواردة المتوسطة فسعدنفنتي .. وفيها حسبتني علَّامتهم .. وخطيبهم المفوه .. ولكن لفظتني قساوة المنطقة وشدتها .. وما اكثر ما كنت أجد نفسي وحيدا بعد أن ينصرف عني زملائي جميعا إلى ما يظنون أنه تنسيهم كآبة لياليها وقتامة ساعاتها المملة .. فلما ضاقت بي ضيق تلك البلاد بما رحُبتْ .. عدت إلى قاعات الدرس .. وبدأت أحبو نحو ما قصدت ..

فهل تراني بلغت ما أمَّلت ..

شخصيات وسمات :

الانسان المتميز ، أديباً كان أو مفكراً أو سياسياً .. أو كان مجرماً .. المهم متميز عن غيره .. أو له دور في حياة من حوله .. أو بصمة في النشاط البشري ..

وقد ينجح الشخص في محيطه الخاص ، ولا يكاد يعرفه أحد خارج حدود دائرته .. وقد تتسع هذه الدائرة لتشمل منطقة فأكثر .. وقد يشهد بتميزه العالمين .. ومَن أفضل من نبينا صلوات الله وسلامه عليه مثالاً .. اختار أحد الباحثين أفضل مائة من عظماء العالم ، ووجد محمداً ﷺ في مقدمتهم .. ووصلت العداوة بدانتي في الكوميديا الالهية فوضع نبينا في أعظم درجة في جهنم ..

ويشعر بعضنا أنه دون غيره ممن حوله .. فيجتهد في لفت الأنظار إليه بأي شكل .. فالطفل ينبهنا بوجوده بالبكاء .. فإذا كبر يلفتنا بكسر كوب أو تمزيق ثوب .. أو إفساد شيء .. حتى ولو أدى ذلك إلى عقابه .. المهم يصر أن يكون في بؤرة اهتمام من حوله بأية وسيلة .. ومن الناس من يعلن عن نفسه بالمناكفات .. أو تحدي أسرته

.. وبخاصة إذا ضغطت عليه الأسرة في مرحلة من حياته ليهتم بدروسه .. وقد يصل في تحديه إلى ارتكاب ما يضره ، ويفسد عليه حياته ..

وما أكثر من يخالفون مجتمعاتهم في قيمهم وعاداتهم وأساليب حياتهم ؛ ليُعرَفوا أخذاً بنصيحة (خالفْ تُذكَر) .. وأخفهم ضررا أولئك الذين يتعالمون .. وهم من سماهم نبينا ﷺ بالمتشدقين والمتفيهقين ، وقال إنهم من أبعد الناس عن مجلسه يوم القيامة .. ونسى بعضهم أنه قد يثبت جهل مخاطبه في مسألة معينة .. لكنه لا يستطيع أن يحوز احترامه وتقديره .. بل يجتهد الناس في تحاشيه أو يكفون شره ..

وبعض الناس يتصدرون المجالس ، وغاية أحدهم أن يسمعه الناس أو يقدمونه .. وتحضرني قصة الرجل الذي تقدم ليَؤُمَّ الناس .. ولم يعرف ما يقرأ بعد الفاتحة .. فقال : اقرأ يا فلان ..! والنكتة تروى بروايات أخرى ..

ومنا من تصل به البجاحة أن يلقي النكات في أحزان الناس .. أو يعظهم بالموت والمصائب في أفراحهم .. أو يلفت نظرهم بتشويه صور رموزهم الدينية والفكرية أو يطعن في عقائدهم !!!! ولكن .. قليل هم الذين لا يهتمون بأن يحكوا عن أنفسهم .. أو يلمعوا ذواتهم .. هؤلاء لهم عالمهم الخاص .. ولا يهمهم رضي الناس عنهم أو سلقوهم بألسنة حداد ..

وما أكثر نماذج الشخصيات واختلافها .. فمن الناس من يحمل أكثر من شخصية .. أو تختلف حياته بحسب ما يكون عليه من حالة .. فيلبس لكل حالة لبوسها .. أو تتداخل في شخصيته طبائع مختلفة .. وتظهر لك مجموعة السمات الشخصية من خلال أقواله وأفعاله .. تصرفاته .. تعابيره .. علاقاته مع الآخرين ..

وفقد الحنان يؤثر قطعا على شخصية بعضنا .. ونجتهد عندها أن نبدو أفضل مما نحن عليه .. ونتجمل في مظهرنا .. وننتقي ألفاظنا .. وقد نعتني بتصفيف شعرنا .. ونضع على وجوهنا الكريمات والمساحيق .. ونكلف أنفسنا فوق وسعها .. لنلفت إلينا الأنظار .. ونبهر الطرف الآخر .. مع أنه يعرف في الغالب حقيقتنا .. أو لا يغيب عليه أن ما يراه فينا مزور .. ولاشك أن واقعنا أجمل .. والبساطة أحلى وأكثر قبولاً ..

وقد اكتب عن شخصيتي .. عندئذٍ ثق أني سأكتبها كما أراها .. أو كما أتمنى أن أبدو عليها .. ولا يمنع أن أنقد تصرفاً بدر مني .. أو أعلِّق بأنه ما كان ينبغي لي أن أتصرف على النحو الذي صدر مني يومئذٍ .. أو أركز على تبرير مواقفي وأفكاري ..وأتغنى بأسلوبي في الحياة .. أو أصور نفسي في بعض حالات ضعفها .. أو في حالات قوتها ..

فهل يراني الناس كما أرى نفسي !! لا أظن .. لأن مواقف الناس حيال غيرهم مختلف .. فالمحب والصديق غير العدو والمبغض والحاسد والمنافس .. وهؤلاء يوجدون في حياة كل منا .. ولا نستطيع إلا بجهد كبير أن نغير بعض مواقفهم منا .. الناس متفقون أنه لا يمكن إرضاء كل الناس ..

سندة :

بيني وبين سعيد

كثيرون يسمعون ما بيني وبين سعيد من مناكفة .. فيحكمون عليَّ .. وما اتهمني سعيد أبداً .. وما أنا بالباغي على حبه رِشوةً .. كذاك الوداد المحض لا يرتجى له ... ثواب ، ولا يخشى عليه عقاب .. ولكن سعيداً كثير الانفعال فيما يحسبه من أخطاء الجماعة وفساد بعضهم .. فأجلب له حطباً بالدفاع عنهم .. فيزداد اشتعالاً .. وألِف ما اعتاد عليه .. وألفتُ غيظه .. ودام ودادنا خارج القوس .. ولم نخلط أبداً بين الكيمان .. ولكنني أفكر هذه الأيام تغيير لهجتي بعد أن وصل سُدَّة المعاش معنا .. وبدأ نقاشه واقفاً .. وأصبحت أنفاسه ترتفع.. وتجحظ عيناه .. وقد يتقدم أحياناً نحو من يناقشه .. وكذلك كان يفعل عندما يشجع المريخ غالباً أو مغلوباً .. وكنت وصديقي أبو صلاح لا نقترب منه في الثانية .. بل نكتفي بإشارة النتيجة .. أو نعلِّق من على البعد .. فيجن جنونه .. ثم حرمنا متعة رؤيته على تلك الحالة لما ترك مناصرة فريقه ..

خاطرة بيضاء :

لم يطلب المولى عز شأنه منا الإيمان فقط .. بل لابد لاكتمال الإيمان من اقترانه بالعمل الصالح : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وقد يقترن بالاستقامة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أو يقترن بالاستجابة : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ وكأنها شروط للإيمان .. والإيمان بالله .. وما نعمله من الصالحات فلصالحنا ..

وإحساسنا بتقصيرنا وتخلفنا منزلة ومقام .. ولابد أن يقترن بتوجهنا لإصلاح أمرنا كله ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ وفي الحديث : { اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ } .. ولكن انتبه !! (توكل) وليس تواكل ..

ألا هل بلغت !!

فلسفة النكتة

تعد النكات في كثير من جوانبها كالحِكَم والأمثال: خلاصة شخص له تجربة وفهم ؛ بعضها تجعلك تضحك وتصفق وقد تذرف الدمع ، وبعضها دون ذلك .. فلا تستمر في ضحكك طويلاً ، وبعضها تثير فيك الدهشة وقد يقودك إلى التفكير ملياً .. فتتوقف عن الضحك لتفكر فيما سمعت .. فليس كل النكات هزلاً .. وليس كل ما يبعث فيك من الضحك مضيعة للوقت .. أو دلالة على موت القلب عندك .. إذ تأتي بعضها في ثوب الحكمة .. وتسمعها من أناس علاهم الوقار .. وعركتهم الأحداث .. وفي بعض مجالس العلم قد تنقذك نكتة .. كما يخلصك بيت من الشعر من ورطة ..

يروى لأهل منطقة في شمال السودان قدر لا بأس به من النكات الخاصة ، يتميز ببعد النظر أو مواجهة الأشياء دون تهيب .. فيتندر الناس بنكاتهم أو الإشارة إلى ما في مضمونها من حكمة بالغة .. منها - والعهدة على الراوي- أن الشيخ محمد صالح كان يزعج المصلين كل جمعة ببكائه الحاد ؛ كلما سمع الإمام يقرأ آية ، أو يذكر اسم نبينا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه ، ولم يكن العجب فيما علمت من البكاء في حدِّ ذاته ؛ فما أكثر ما سمع المصلون صوت الإمام يتهدج بنشيج بكائه في مواقف معينة ، ويبكي لبكائه نفر منهم ، ويسكتون إذا سكت .. ولكنهم كانوا لا يثقون في صدق الشيخ محمد صالح ؛ لأنهم كانوا يجدون أن وزن الرغيف الذي يشترونه من مخبزه أقل وزناً ، وأضعف قواماً .. وفشل الجميع في لفت نظره أو إسكاته .

لكنهم فوجئوا ذات جمعة أن الشيخ لا يواصل في بكائه ، بل قيل إنه ترك البكاء تماماً .. لاشك أن أمراً كهذا مدعاة لأن يثير شهية كثير منا ليعرف السبب .. بالنسبة لي تطوع أحدهم فأخبرني أن خليلاً المعتوه هو الذي قطع بكاء الرجل .. فقد سمعه أكثر من واحد ، وهو يقول له اثناء الخطبة : عم محمد! لا تبكي هكذا كل مرة .. إذا كنت خائفاً إلى هذه الدرجة فكبِّر حجم الرغيف.. كبَّر حجم الخبز.. وأنت لن تبكي هكذا ..

ألا يحق لنا أيضاً أن ندعو أنفسنا بأن نهتم بكل عمل يوكل إلينا في أمانة .. عندئذٍ يهدأ بالنا ، فلا نضطر إلى التحسر ..

على أية حال جاء في كتاب : (الفكاهة والضحك) للدكتور شاكر عبد الحميد أن علم النفس في وقتنا الراهن ينظر إلى الفكاهة على أنها أحد أهم أساليب المواجهة التي يستعين بها الإنسان في التغلب على بعض آلامه النفسية الخاصة ، كما أنها

أحـد الأسـاليب التـي تسـتعين بهـا المجتمعـات في مواجهـة بعـض مشـكلاتها السياسـية والاقتصاديـة..

أرق عجيب :

زرت مـع بعـض زمـلائي الشـيخ ود غالـب في إحـدى قـرى دنقـلا .. والنـاس يعتقـدون أنـه موصـول ، ويذكـرون لـه كرامـات ، ويرحلـون إليـه للعـلاج ، وإن عجـزوا عـن المثـول في حضرتـه ، وتلقـي بركتـه مبـاشرة ؛ أرسـلوا إليـه مـع ثقـة شـيئاً مـن أثرهـم ، كمنديـل أو قطعـة مـن ثـوب يخصهـم أو نحـو ذلـك .. التـاس يتناولـون خـبره في كل أحوالـه بـشيء كثـير مـن التقديـس .. ولا يدخلـون عـلى مجلسـه بغـير طهـارة .. وقـد ينصـح مرتاديـه – وإن كان نـادراً – التحـول للإبـر ، يقصـد بـه التحـول عنـه إلى الأطبـاء وطلـب العـلاج عندهـم ..

اشـتكى لـه سـائق المركبـة في رحلتنـا ، ونحـن قعـود في حضرتـه ، مـا يصيبـه مـن الأرق .. وأنـه لا يهنـأ بنـوم .. ولا يـكاد يسـتقر لـه جنـب .. وكان العجـب مـن الشـيخ أن قـال بهـدوء عجيـب : لقـد أخطـأت يـا بنـي في اختيـار الطبيـب المناسـب ، أتتركـه وتـأتي لعاجـز مثـلي !! ألا تـراني وقـد انغرسـت أقدامـي في الرمـل مثلـك ؟! وإن لم تشـملني وإيـاك والسـامعين رحمـة مولانـا وغفرانـه لنـا بعـد إذ ظلمنـا أنفسـنا ، لنكونـن مـن الخاسريـن .. مـا الـذي دعـاك أن تنحـرف مـن الطريـق الثابـت إلى مـا أنـت فيـه مـن الأرض الرخـوة .. عُـد إليـه يـا بنـي .. عـد إليـه ..

تـرك صاحـب الأرق مضمـون التوجيـه مـن كلام الشـيخ .. بعـد أن أرَّقـه أن الشـيخ أشـار لمهنتـه ، وهـو الـذي لا يعرفـه مـن قبـل .. وبـدأ يهـذي لأيـام : كيـف عـرف أننـي سـواق ؟ كيـف عـرف أننـي سـواق ؟ وانشـغل معـه نفـر منـا : هـل الشـيخ واصـل ؟ أم هـي الكرامـة ؟ ونـسي تمامـاً أنـه لـو كـبَّر رغيفـه مـع اللـه ، وعـاد إليـه لاسـتطاب منامـه ..

الغراب .. المعلم

لم أكـن مسـتعداً صبـاح ذلـك اليـوم لتقبُّـل مناقشـاته التـي لا تنتهـي بفائـدة غالبـاً ، ولكنـه بـدأ الموضـوع هـذه المـرة قبـل أن يصـل إلى مكتبـي :

هل تعلم أيها الأستاذ أن وزارة التربية لا تهتم بعقيدة الأمة ؟

كنت مجبوراً لأن أقول له : وكيف ذلك ؟

حينئذٍ برقت عيناه ، واتسعت حدقاته وهو يقول في زهو المنتصر :

ألم تقرأ موضوع (ذكاء الغراب) المقرر على التلاميذ ؟

وتذكرت قصة الغراب الذي عطش مرة ، ووجد في قاع جرة ماءاً قليلاً ، فما كان منه إلا أن بدأ يأتي بقطع من الحجارة حتى تمكن من إرواء عطشه.

قلت : بلى ! وماذا فيه ؟

قال : ألا تعرف أن الغراب من الفواسق التي ينبغي قتلها دون تردد في أي وقت ، فقد جاء في الصحيحين حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: خمس فَواسِق يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَم : الغُراب والحدأة، والعَقْرب، والفأرة، والكلب العَقُور».

لم يكن لي من حلٍّ غير أن أوافقه على مضمون الحديث النبوي وصحته ، اعتماداً على اخراجه في صحيحي البخاري ومسلم ، بَيْد أني تذكرت في تلك اللحظة قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

فقلت : أوَ ما بلغك أن الغراب هو أول مدرس عينَّه الله تعالى لتدريس الإنسان !! فلولا أنّ له فضيلةً وذكاءً ليس لغيره من جميع الطّير لما وقع عليه الاختيار من بينهم ، فبعثه الله تعالى واعظاً للبشر ومذكراً لهم . فعل ذلك لما قتل صاحبه وحفر له حفرة ثم ألقاه فيها ؛ إنه بتصرفه هذا، كان أول من اتخذ وسيلة تعليمية واضحة ومبسطة في تدريسه ، فكان عمله بياناً بالعمل . فاسترشد به قابيل بعد أن طوعت له نفسه قتل أخيه ، وأصبح من النادمين ، ولم يدر ما يفعل بجثته .

ففاجأني بقوله : بل الأمر على عكس ما تقول تماماً ؛ فما كان للقاتل أن يقول ﴿يا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ﴾ إلا وهو يرى سقوط منزلة الغراب فقال : أعجزتُ وأنا إنسانٌ أن أُحسِنَ ما يحسنه هذا الطائر الحقير ..

قلت : ولكنه على أية حال كان مفيداً للانسان بدرسه ، وأكد لنا أن الحكمة ضالتنا ، فلا يحول دون الأخذ بها أن يكون صاحبها عزيزاً أو حقيراً . وأن على الإنسان ألا يستنكف أن يتعلم ممن هو دونه. أو يستفيد من خبرته .

يبدو أن صاحبي لم يشأ أن يقر لي بصحة ما نبهته إليه ، إذ مضى يبحث عما يؤكد وجهة نظره ، قال : سأزيدك شيئاً من حقارة الغراب ، فإنه لما أرسله نوح عليه السلام ليأتيه بخبر البلاد بعد الطوفان وجد جيفةً فوقع عليها، ولم يرجع ، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت . ثم التفت صاحبي وكأنه تذكر شيئاً مهماً ثم قال : ألا يكفيك أن الناس يتشاءمون منه ، ولذلك اشتقوا منه الغربة والاغتراب والغريب

. وقد لزمه اسم غراب البين لأنه إذا سافر أهلُ الدار ، جاء إلى الأماكن التي يرمون فيها أوساخهم يلتمس ويتقمَّم ، فيتشاءمون به ويتطيَّرون منه ؛ فارتبط مجيئه للديار ببين أهلها وسفرهم . فحسبت أني وجدت فرصة فقلت : إن العامَّة لا تتطيَّرُ منه إلا إذا صاح صيحة واحدة ، فإذا ثنَّى تفاءلتْ به. وأنهم كانوا يقولون إن الإنسان إذا رأى غرابين معاً في الصباح تفاءل بما يتوقعه من خير ؛ حتى إن تاجراً كبيراً أمر خادمه أن يخبره إذا رأى غرابين معاً ووعده أن يجزيه خيراً عندئذٍ ، فلما سنحت له الفرصة أقبل على التاجر مستبشراً وعاد به إلى الموقع . ولكنه فوجئ أن أحدهما قد طار ، فانهال عليه التاجر بالضرب ؛ فقال كان حقك أن تكافئني لأنك لو رأيتهما مثلي لكنت تعاقب الآن بدلاً مني ...

الذباب

عندما أسمع قول عنترة في الذباب ، وتصويره البارع لطريقته في حك ذراعيه وكأنه شخص مقطوع اليدين ، ويجتهد في إشعال النار بزنديه ، أشعر نحوه دون إحساس بالنفور أو التقزز ، وأقصد قوله :

وَخَلَى الذُّبَابُ بِهَا فَلَيسَ بِبَارِحٍ غَرِداً   كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ   قَدْحَ المُكَبِّ على الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

المشكلة أن الجيل الجديد لم يشاهد (الزناد) وما يحتاج الإيقاد به من حركة اليدين علواً وانخفاضاً لحك خشبة أو حديدة بأخرى .. فالأجذم : هو المقطوع اليد ، شبَّه الذباب إذا سن إحدى ذراعيه بالأخرى بشخص أجذم يقدح نارا بذراعيه . وهذا من عجيب التشبيه ، يقال إنه لم يقل أحد في معناه مثله ..

فإذا انتقلت إلى الإعجاز البياني في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج: 73]

تشعر أن هذا الذباب الحقير تحول إلى عالم معجز .. فهو لا يختلف في استحالة خلقه لغير الله مع الأسد والفيل .

ويرتفع درجة تحقير الآلهة المدعاة وأنت حيال هذا الكائن الحقير يمتص دماءهم ، وهم لا يقدرون رغم ما يدعونه من قوة على رد ما سلب منهم .. ما أشد جهل هؤلاء الذي أشركوا بالله هذه الآلهة العاجزة عن خلق كائن ضعيف كالذباب حال

اجتماعهـم فكيـف حـال انفرادهـم . بـل لا تقـدر أن تسـتنقذ مـا يسـلبها الذبـاب إيـاه ! فأمـام إبـداع الخالـق يسـتوي الجليـل والحقـير ، الصغـير والضخـم ، وكل خلـق اللـه سـيان في هـذا الجانـب .. ولهـذا ضرب اللـه بـه المثـل رغـم حقارتـه عنـد النـاس .

وليـس في ضرب الأمثـال مـا يعـاب ومـا مـن شـأنه الاسـتحياء مـن ذكـره : ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَسْـتَحْيِي أَنْ يَـضْرِبَ مَثَـلًا مَـا بَعُوضَـةً فَـمَا فَوْقَهَـا ﴾ [البقـرة: 26]. .

ويبـدو أن النـاس قديمـاً وحديثـاً يسـتقذرون مـا يقـع فيـه الذبـاب مـن شراب أو طعـام عـلى نحـو قـول بعضهـم :

إذا سَقَطَ الذُّبابُ على طَعامٍ رَفَعتُ يَدِي ونَفسِي تَشْتَهِيه

وحديثـاً ذكـر العلـماء أن بعـض أنـواع الذبـاب يمثـل خطـراً عظيـماً للإنسـان .. حيـث يقـع عـلى الفضـلات والمـواد القـذرة ومـا شـابه ذلـك ، فيحمـل كثـيراً مـن الجراثيـم المرضيـة الخطـرة بأرجلـه أو داخـل جسـمه أو بوسـاطة الفـم أو عـلى الشـعر الموجـود عـلى جسـمه . فعندمـا يعـض أو يلامـسُ أي جسـمٍ فإنـه رُبمّـا يـترك بعضًـا مـن هـذه الجراثيـم ، فتسـبِّب لـه الكثـير مـن الأمـراض، كمـرض التيفـود، والدوسـنتاريا ، والسـل، والرمـد الصديـدي . وقـد يقـع الذبـاب عـلى الطعـام فيلمـس بأرجلـه الملوثـة الحاملـة للمـرض هـذا الطعـام أو هـذا الـشراب، فيلوثـه بمـا يحمـل مـن جراثيـم .

وبنـاء عـلى هـذه المعلومـة توقـف بعـض النـاس محتاريـن أمـام حديـث وقـوع الذبـاب في الـشراب الـذي أخرجـه البخـاري في صحيحـه :

- عـن أبي هريـرة رضي اللـه عنـه يقـول قـال النبـي ﷺ : (إِذَا وَقَـعَ الذُّبَـابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُـمْ فَلْيَغْمِسْـهُ ثُـمَّ لِيَنْزِعْـهُ فَـإِنَّ فِي إِحْـدَى جَنَاحَيْـهِ دَاءً وَالْأُخْـرَى شِـفَاءً)
- وأخـرج أيضـاً عـن أبي هريـرة : (إِذَا وَقَـعَ الذُّبَـابُ فِي إِنَـاءِ أَحَدِكُـمْ فَلْيَغْمِسْـهُ كُلَّـهُ ثُـمَّ لِيَطْرَحْـهُ فَـإِنَّ فِي أَحَـدِ جَنَاحَيْـهِ شِـفَاءً وَفِي الْآخَـرِ دَاءً)

وقـد انـصرف شراح الحديـث والفقهـاء عـن قضيـة الـداء في جنـاح الذبـاب ، ومـا يمكـن أن يثـيره علـماء الصحـة في زماننـا ، ومـا ثبـت لهـم مـن مضـار الذبـاب ، ومـا يجتهـدون فيـه لذلـك للقضـاء عليـه ، والاحتيـاط منـه .. بـدلاً مـن ذلـك نظـروا إلى مضمـون الحديـث واجتهـدوا في اسـتنباط الأحـكام الفقهيـة منـه عـلى نحـو مـا ذكـره صاحـب كتـاب عـون المعبـود ، قـال :

« الحديـث دليـل ظاهـر عـلى جـواز قتلـه ؛ دفعـاً لـضرره ، وأنـه يطـرح ولا يـؤكل ، وأن

الذباب إذا مات في ماء فإنه لا ينجسه ؛ لأنه ﷺ أمر بغمسه ، ومعلوم أنه يموت من ذلك ؛ ولاسيما إذا كان الطعام حاراً ، فلو كان ينجسه لكان أمراً بإفساد الطعام ، وهو إنما أمر بإصلاحه ، ثم أدَّى هذا الحكم إلى كل ما لا نفس له سائلة كالنحلة والزنبور والعنكبوت وأشباه ذلك » وجاء نحوه في فتح الباري ، حيث ذكر أن النبي ﷺ لم يقصد بهذا الحديث بيان النجاسة والطهارة وإنما قصد بيان التداوي من ضرر الذباب..

هذا ، وقد عدَّ العلماء حديثاً هذا الحديث دليلاً على إعجازه لذكره قضيتين كلتاهما لم تكن معروفة في صدر الإسلام :

أولاهما : أن الذباب ناقل داء ، وهذا شيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع.

وثانيهما : وهي التي يجهلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم .

وتمكن العلماء حديثاً من عزل مواد مضادة للحيوية مما يحمله الذباب تقتل جراثيم مختلفة من بينها الدسنتاريا والتيفوئيد ، ووجدوها ذات مفعول قوي على الجراثيم المسببة لأمراض الحميات ذات الحضانة القصيرة المدة .

واستدلوا من وقوفهم على هذا الكشف العلمي على أنك إذا أخرجت الذبابة من الطعام ، وألقيته خارجه دون غمس، بقيت هذه الجراثيم في مكان سقوط الذباب ، فإذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعاً ، دخلت فيه الجراثيم ، فإذا وجدت أسباباً مساعدة ، تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض، فلا يشعر إلا وهو فريسة للحمى طريحاً للفراش.

أما إذا غمست الذبابة كلها، خرجت من جسمها الأنزيمات الحاملة لجراثيم المرض والقاتلة له، فتقع على الجراثيم التي تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها، ويصبح الطعام طاهراً من الجراثيم المرضية .

وهذا يعني أن الذباب يحوي على سطح جسمه الخارجي مضادات حيوية تعالج العديد من الأمراض، أي أن الذباب فيه شفاء ! ، وأن أفضل طريقة لتحرير هذه المواد الحيوية المضادة أن نغمس الذبابة في سائل!! لأن المواد المضادة تتركز على السطح الخارجي لجسد الذبابة وجناحها.!

ومما يتصل بموضوع الذباب أن بعض أهل العراق سأل ابن عمر عن قتل الذباب فقال: يا أهل العراق تسألونني عن قتل الذباب وقد قتلتم ابن بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قال رسول الله ﷺ : هما ريحانتي من الدنيا ؟

المنديل

المنديـل يعـد مـن أهـم وسـائل الذكـرى ، أو هكـذا كان يقـال في غـير هـذا الزمـان .. وحـدث أن العشـاق كان يطـرزون عـلى طـرف المنديـل باقـات مـن الشـعر الرقيـق لاسـتمالة الطـرف الآخـر ، أو تظرفـاً ، عـلى نحـو مـا كتبـه أحدهـم :

أنا مبعوثٌ إليكِ　　　أُنـسُ مـولاتي لديكِ

صَنَعتني بيديها　　　فامـسحي بي شَفَتيكِ

ويبـدو أن المنديـل عـلى مـا نسـتخدمه فيـه في زماننـا هـذا مـا كان يناسـب إلا المرفهـين . لمـا سـئل جابـر بـن عبـد اللـه رضي اللـه تعـالى عنـه عـن الوضـوء مـما مسـت النـار ، قـال : كنـا في زمـن النبـي ﷺ وقليـلا مـا نجـد الطعـام، فـإذا وجدنـاه لم يكـن لنـا مناديـل إلا أكفنـا وسـواعدنا وأقدامنـا، ثـم نصـلي ولا نتوضـأ. وفي طبقـات ابـن سـعد أن عمـر كان يمسـح بنعليـه ويقـول: إن مناديـل آل عمـر نعالهـم . وفي الصحيحـين عـن الـبراء بـن عـازب رضي اللـه عنهـما قـال : أُهدِيَـت للنبـي ﷺ حُلَّـةُ حريـرٍ ؛ فجعـل أصحابـه يَمسُّـونَها ويعجبـون مـن لينهـا ، فقـال أَتَعجبـون مـن لـين هـذه ! لَمَناديـلُ سـعد بـن مُعَـاذ في الجنـة خـيرٌ منهـا وأَلْـيَن .

وليـس شرطـاً أن يكـون المنديـل قماشـاً ، بـل قـد يكـون عـلى نحـو منديـل عبـدة بـن الطبيـب . قيـل إن عبـد الملـك بـن مـروان قـال يومـاً لجلسـائه: أي المناديـل أفضـل ؟ فقـال قائـل منهـم: مناديـل مـصر ، وقـال آخـرون: مناديـل اليمـن، كأنهـا نـور الربيـع. فقـال عبـد الملـك : مـا صنعتـما شـيئاً ، أفضـل المناديـل مـا قـال عبـدة بـن الطبيـب :

لمَّا نَزَلنا نَصَبْنا ظـلَّ أَخْبِيةٍ　　　وفـارَ للقَـومِ باللَّـحم المَرَاجِيـلُ

وَرْدٌ وأشقرُ لم يُؤْنِيه طابِخُه　　　مـا غَـيَّرَ الغَـلْيُ منـه فهـو مأكـولُ

ثُمَّتَ قُمْنَا إلى جُرْدٍ مُسوَّمَةٍ　　　أَعْرَافُهُـنَّ لأيـدينا مَنَـادِيلُ

يقـول : إنهـم لمـا نزلـوا واديـاً نصبـوا خيامهـم (فالخِبـاءُ بيـت صغـير مـن صـوف) ثـم يطبخـون اللحـم في القـدور ويسـتعجلون في تناولـه ولا ينتظـرون أن ينضـج تمامـاً ، بـل يكفـي أن يتغـير لونـه ، فـإذا شـبعوا مسـحوا أيديهـم في أعـراف خيولهـم المسـومة . وقـد سـبقه امـرؤ القيـس حـين قـال :

نَمُشُّ بأَعْرَافِ الجِيَادِ أَكُفَّنَا　　　إذا نَحـنُ قُمْنَا عن شِـوَاءٍ مُضَهَّب

المضهـب : الـذي لم يبلـغ نضجـه مـن اللحـم . ونمُـشٌّ: نمسـح لإزالـة الدسـم .

ومـن المناديـل المشـهورة منديـل الرهـا ، فقـد قيـل إن ملـك الرهـا (وهـي مدينـة في جنـوب شرق تركيـا حاليـا باسـم أورفـا) كان يعـاني مـن الـبرص والتهـاب المفاصـل ؛ فرغـب في قـدوم المسـيح (عليـه السـلام) إليـه لينـال الشـفاء منـه ، فأرسـل إليـه المسـيح بمنديـل مسـح بـه وجهـه ، فانطبعـت عليـه صـورة وجهـه . فاحتفـظ بـه الملـك في إطـار ذهبـي .. ثـم أُخفـي في جـدار الى أن اكتشـف بعـد خمسـة قـرون وذاعـت شـهرته . وبعـد أن اسـتولى المسـلمون مدينـة الرهـا ، أراد الامبراطـور البيزنطـي نقـل المنديـل إلى القسـطنطينية ودفـع فديـة لأمـير المدينـة ، وكان للـروم عنـد تسـليمهم هـذا المنديـل فـرح عظيـم .

وفي مسرحيـة عطيـل لشكسـبير ؛ عُـدَّ منديـل ديدمونـة دليـلا مرئيـا عـلى خيانتهـا ؛ فقتلهـا عطيـل ، رغـم أنـه أحبهـا وهـي أحبتـه وفضلتـه عـلى كل النبـلاء مـن أهـل جنسـها وتزوجـت منـه سراً برغـم سـواد بشرتـه . وذلـك لأن صديقـه المخـادع (ياغـو) اسـتغل مـا بينهـما لينتقـم مـن عطيـل ، فأوغـر صـدره بـأن امرأتـه تخونـه مـع صديقـه الـوفي كاسـيو ، ويزعـم أن كاسـيو أبـدى لـه بحبهـا لـه وأنهـا أهـدت لـه منديلـه الـذي أعطتـه لهـا بعـد زواجـه ، ويؤكـد لـه أنـه رأى المنديـل معـه.. كان ياغـو قـد سرق المنديـل عـن طريـق زوجتـه مـن ديدمونـة وألقـاه في غرفـة كاسـيو دون علمـه . فلـما طلـب عطيـل المنديـل ، تكتشـف ديدمونـه بفقدانـه .. فيثـور ويـصرخ ويقتـل ديدمونـة .

وقـد جـاء في قصـة (زينـب) لكاتبهـا هيـكل (وتعـدُّ أول روايـة في الأدب العـربي الحديـث) أن حامـد ، ابـن أحـد مـلاك الأرض الأثريـاء ، يلتقـي بفتـاة ريفيـة عاملـة اسـمها (زينـب) ، ويشـغل قلبـه بحبهـا . ولكـن علاقتهـما لا تسـتمر لأنهـا فضَّلـت عليـه إبراهيـم رئيـس العـمال ، ويفـرض عليهـا أهلهـا الـزواج مـن غـيره ، ولا تفلـح معاملـة زوجهـا الحسـنة في تحويـل مشـاعرها عـن إبراهيـم ، بـل تعيـش صراعـاً عنيفـاً بـين واجبهـا الزوجـي وإصرار تعلقهـا بإبراهيـم ، ولا يحـول دون ذلـك إرسـال إبراهيـم للخدمـة العسـكرية إلى السـودان ، بـل يشـتد عذابهـا ، ثـم تمـوت ومنديـل إبراهيـم الـذي أهداهـا لهـا قبـل سـفره في يدهـا.

وجـاء في موسـوعة تفسـير الأحـلام أن المنديـل ينبـئ في الحلـم بمسرات وأفـراح عابـرة بالنسـبة لمـن يـراه . وبالنسـبة للمـرأة : إذا رأت منديـلاً قـذراً في الحلـم فهـذا ينبـئ بأنهـا سـوف تتعـرض لإغـراء يجرهـا إلى سـبيل الخـزي والعـار. وإذا فقـدتَ منديـلاً فـإن هـذا ينـذر بعمـل فاشـل لا يـد لـك فيـه .

مولانا

افتر ثغري عن ابتسامة عريضة في جلستي عندما دخل مولانا الشيخ حسن .. سأل قبل أن يجلس على كرسيه : أحفظت سورة (يس) يا ولد ؟

وتلبدت سحنته واكفهر ، واختلطت المعالم البارزة على صفحة وجهه إلى أشياء باهتة، لم يتيسر لي أن أحدق فيه رغم تكرار هذه المهزلة .. وتحشرج صوته وهو يكرر سؤاله . غير أني جلست متهالكاً على الكرسي ، وغمزات إخواني ونظراتهم تجلس معي ، وقد امتلأت قاعة الفصل ، وهي تردد بأنفاسها اللاهثة المتعودة على كلماتي : أبداً .. أبداً ... يا مولانا .... عندما تمددت كعادتي على المنضدة ، صحت بأعلى صوتي : لا .. لا ..

وكف ناظر المدرسة تربت على كتفي ، وجدت وجهي وقد تندَّى كله بعرق بارد يواجهه .. قال في أبوة حانية : لماذا تُغضب هذا الرجل الطيب .. وتثير ضده المشاكل ! .. كيف يمكنني أن أعلل له سبب غضبه مني ، وعلة تحامله ضدي ..

لم استطع أن أخبره أني سألته مرة سؤالاً واحداً .. ربما كان فيه غير قليل من الخبث .. ربما .. وكثير من (الشقاوة) ..

وحبس التلاميذ أنفاسهم .. وصمت من حولي كل شيء ، بينما كان يتقدم نحوي .. حاولت أن استمر في سؤالي .. ولكن الصمت يكاد يأخذ بخناقي ..ونظرات التلاميذ تشوي وجهي .. ومولانا الشيخ ما يزال يتقدم .. لسوء حظي لم يتعثر هذه المرة بين صفوف الأدراج كعادته .. بدأ ذهني يعمل في سرعة ووجل .. بدأت أدرس كل الاحتمالات الممكنة .. تمنيت لو سمح لي بالجلوس .. لو أستطيع أن أهرب من هذا الموقف .. لكنه يقف أمامي بكل .. غضبه .. عندما فتحت فكي بعد جهد لأقول له شيئاً .. أي شيء يذهب بعض غضبه .. هوت كف ثقيلة على صدغي ..

بعد هذه الحادثة بسنوات ، انفجرت ضاحكاً في منتصف الصفوف ، وأنا أقف أمام تلميذ سألني سؤالي القديم .. ولكن العبارات كانت مختلفة .. كان رأسه عالياً .. نظرات عينيه تشع حادة .. قوية .. لماذا لم يرتجف عندما تقدمت نحوه . ولم تتجه إليه نظرات إخوانه ؟.. إنها كانت تصوب تجاهي .. ربما مستنكرة..

لقد حيرني هذا الأمر طويلاً .. ما الفرق بيني وبينه ؟ لقد تذكرت ، كنت متعمماً حينما تجاسرت بالسؤال ، بينما تلميذي المعتد برأيه بلباس أفرنجي .. كان مجرد أن يطول شعرك قليلاً مشكلة تحتاج إلى حسم .. أقصد حلاقة بالموسى .. كان الحديث أمام

الكبار جريمة .. إلا إذا سئلت .. أما إذا ناقشتهم .. لا أدري كيف أصنف نوع هذا الجرم .. إذ لم يحدث ذلك في زماننا ... ولكن هل تظن هذا فرقاً !

لا شك أنك سمعتني أو سمعت أحداً من جيلنا القديم ونحن ندعي في كل مجلس أن الجيل الحالي كله جاهل ، بينما كان العلم الحقيقي عندنا في الماضي ، أو رأيت أحدنا وهو يسب الجيل الحالي ويتهمه بكل منقصة ؛ فهل من دليل ؟

حتى في أمر الدين ما أظن أنا كنا أكثر تقىً .. إن زيارة واحدة لأي مسجد سيدحض قولنا. ولكن أليس في شباب اليوم ما نأخذه عليه .. أراك تريد أن تهمس في أذني : بدلاً من أن تبحثوا في عيوبهم حاولوا أن تفهموا كيف تتعاملون معه ، أن تعرفوا ماذا يريد .. ما سقف طموحاته.. وقبل ذلك أتوقع أن يقول بعضكم : ترى ما كان السؤال ؟ سأقول بحنكة الكبار ، وبعد أن أتنحنح ، وأبلع ريقي : ما في داعي ..

ما هو الحل ؟!

كنت أعمل في بداية الثمانينات في مدينة دنقلا ، وفي طريقي إلى المعهد أو السوق أمر عليها ؛ إنها إحدى نساء قريتي ، ورغم أنها تكبرنا سناً بكثير ، لكنها كانت تتفجر حيوية وطفولة ، براءة وبساطة .. تستقبلنا كل يوم بشوق ومودة ، وترحاب وبشاشة ، وكأنها كانت تنتظر عودتنا من سفر بعيد .. وتجدها وزوجها في تنافس في حسن استقبالنا وإكرامنا .. حتى بدأنا نعتاد على هذا السيل من دفق المشاعر الصادقة بلا رتوش ، فأمر بها في طريقي فلا يعطياني فرصة حتى للتحيات بل عليَّ أن أجيب غالباً ..

واحدة من أهم قضاياها الملحة السؤال عن المسلسل اليومي ، ولم يزعجها أني لست متابعاً. فتصر أن تسأل عن التفاصيل ؛ فاضطررت أن أتابع المسلسل ليلة بليلة حتى أدمنت مثلها متابعة الأحداث .. وأشاركها بعض تساؤلاتها .. وبدأنا نتخيل كيف سيتصرف البطل أو الشخصيات في الحلقات القادمة .. وبدأت الحلقة تتسع .. إذ انضمت إلينا زوجتي بعد أن تحولت من الاهتمام بالتفاصيل المظهرية للممثلات كتصفيف الشعر ، وما يتصل بالمكياج والستاير ... لا سيما وقد كنا في بداية حياتنا الزوجية . وتحول زوجها الشيخ الوقور من مناقشتي في القضايا الدينية والتفاصيل الفقهية إلى اهتمامنا المثير ، وانضم إلينا غيرهما .. ولكنها ظلت أكثرنا تفاعلا مع الأحداث .. وأكثرنا نقداً للوقائع ..

أشهد لها أنها لفتت نظري إلى أهمية الفن .. ووظيفته الكبرى ، وأثره في تلوين

حياتنـا .. وقدرتـه في تغيـير أنمـاط حياتنـا .. كثـيرون هـم الذيـن يزعجهـم مـا يقـدم مـن الموسـيقى الغربيـة والعربيـة في حفـلات التخريـج لطـلاب يفـترض فيهـم أنهـم أمـل أمتنـا المرتجـى ، وهـم دخرينـا وركازنـا .. وهـم المسـتقبل كلـه .. مـع أن غالبهـم لا يقـرون بثقافتنـا ولا يعترفـون بتراثنـا ..

فما هو الحل ؟!

كثـير مـن شـبابنا يعيـش أزمـة القـدوة، الحيـة ، لأنهـا لم تعـد تتوافـر في المنـزل أو الشـارع .. وإعلامنـا يقـدم لهـم المطرب عـلى أنـه قـدوة أو يقـدم اللاعـب عـلى أنـه قـدوة أو يقـدم الشـخصيات المرموقـة اجتماعيـا بغـض النظـر عـن كفاءتهـا .. ولـك أن تقـارن مـا يخصـص للفـن والرياضـة مـن مسـاحة في كل صحيفـة بغيرهـا مـن اهتمامـات المجتمـع وقضاياهـا وثقافتهـا فيهـا .. لقـد سـعدت تمامـا لمـا رأيـت أن أسرتي يتابعـون بفـرح واضـح برنامـج (غنـاء وغنـاء) (لمـا تمثلـه مـن تـراث ، وأسـفاً لمـا تحولنـا عنـه إلى بعـض الغثـاء .. كان هـذا في أول أمرهـا).. ولعلهـم يسـمعون غالـب مـا قـدم فيـه لأول مـرة..

نادتنـي ابنتـي الصغـرى ذات ليلـة لأشـاهد معهـا البرنامـج الأمريـكي عـن مسـابقات فنية ؛ قالـت لي انظـر الفـرق بـين احترامهم للمشـاهد ، وبين كلفتتنـا .. لكني تعمـدت ألا أوافقها .. هـل نكتفـي بمجـرد الوعـظ والإرشـاد ؟ وكلـمات التوجيـه المبـاشر .. كـما نفعـل في كل قضايانا الاجتماعيـة والسياسـية ؟ .. نكتفـي بالاحتجـاج ، وأن المفـروض كـذا .. وننتظـر مـا يفعلـه غيرنـا فنبـدأ بالانتقـاد وبيـان فداحـة مـا قـدم أو أنجـز .. متـى نبـدأ نحـن بالعمـل ؟ وقبـل ذلـك .. مـا هـو هـذا العمـل ؟

مجرد تسهيلات

لم يكـن والـدي يختلـف عـن عمـي إلا في أمـر بسـيط هـو يقـول إنـه منضبـط ، بينـما كان عمـي (مفتَّـح) !! ولهـذا طالـت إجـراءات اسـتخراج معاشـه .. ولم يكتـف عمـي باسـتخراج معاشـه بسرعـة ، بـل نصـح أخـاه بـأن يقـدم بعـض التسـهيلات .. والشـيخ يقـول في حـدة : بعـد هـذا العمـر تريـدني أن أدفـع لهـم رشـوة !! لا لـن يحـدث ، مهـما كانـت النتيجـة .. عـاني العـم كثـيراً ليصحـح لـه أن الأمـر مجـرد تسـهيلات لا رشـوة .. لمـاذا تريـد أن تعقـد الأمـور عـلى نفسـك يـا أخـي ؟ وأصر كلٌ عـلى موقفـه ..

ولكـن الوالـد عـاد إلى القريـة مكلومـاً يشـتكي إلى اللـه فشـل مسـعاه .. ولمـا جاءتـه البـشرى بـأن أمـوره تيـسرت ، ولم يتبـق لـه إلا اسـتلام مسـتحقات نهايـة الخدمـة .. أقبـل رافعـاً رأسـه ، معتـزاً بتوفيـق اللـه لـه .. وأصـدر أوامـره أن نكـون في معيتـه .. فأطعنـا ..

ظننـت أنـه سـيكون في غايـة السـعادة في هـذه اللحظـات الأخـيرة .. بـدلاً مـن ذلـك رأيـت عـلى وجهـه سـحابة مـن الهـم تعتريـه .. ويـده لا تـكاد تغـادر جيبـه .. وقـلَّ كلامـه .. ومـن منـا يسـتطيع أن يقـع في المحظـور فيسـأله..

أخـيراً وقـف أمـام الـصراف ، واسـتلم باقـي مسـتحقات معاشـه .. واسـتلمنا منـه الحقيبة .. وظـل واقفـاً برهـة ، ثـم أخـرج يـده بورقـة مدهـا عـبر الشـباك .. فـإذا الـصراف يتحـول إلى أسـد هائـج .. سـمعت فيـما سـمعته : أتُقـدِّم إليَّ الرشـوة أيهـا الرجـل .. هـل تظنـون أن كل النـاس مثلكـم يفسـدون آخرتهـم بالرشـاوي .. هـل ... و .. والرجـل لا يجـد فرصـة للدفـاع عـن نفسـه .. ظـن أنـه إن قـال إنهـا هديـة بعـد أن اسـتلم مالـه تمامـاً تنجيـه مـن تعذيـب الرجـل لـه .. فـإذا الـصراف يـزداد هياجـاً : المصيبـة أن رجـلاً في مثـل سـنك يسـمي الرشـوة هديـة .. وأتوقـع أن تسـميها بعـد قليـل تسـهيلات .. وفقـد الوالـد توازنـه .. عندئـذٍ همـس في أذنـه أحدهـم : إنـه غضبـان منـك لأن مـا دفعـت لـه قليـل .. سـمعته يقـول في صعوبـة : لكننـي اسـتلمت معـاشي مـن المـال.. ولا يضـيرني إن رضي عنـي أو غضـب ..

سألته بعد سنوات عن الواقعة .. صمت برهة .. ورشف من الشاي جرعة .. قال أخيراً : لقد تمنيت لحظتها لو أنشقت لي الأرض .. أو تخطفني الطير.. أو هوت بي الريح في مكان سحيق.. ثـم أغـرق الرجـل في ضحكـة مفاجئـة .. ثـم قـال : الإنجليـز كانـوا حريصـين أن يعلمونـا الرشـوة .. وقـد حـكى لي أخونـا نـصر أنـه لمـا أراد أن يسـتخرج تصديقـاً لمشروعهـم الزراعـي ذهـب إلى وادي حلفـا وقابـل مسـتر بـن وهـو يحمـل كيسـاً مـن المـال وادعـى أن زوجتـه لمـا علمـت أن مسـز يـن مسـافرة إلى بلدهـا لم تعـرف مـا تقـدم لهـا مـن هديـة فبعثـت بالمـال لتشـتري مـا تشـاء عـلى ذوقهـا.. ضحـك الإنجليـزي بصخـب ، وقـال : يـا شـيخ نـصر ، حتـى موتاكـم في القبـور يرجـون منكـم الفاتحـة !! فـما طلبـك ؟

ترى كيف كنا سنقول ؟

عـلى طريقـة المسـابقات المكشـوفة أقـدم لكـم ثلاثـة خيـارات : هديـة .. حافـز .. مجـرد تسـهيلات ..

المحور الثالث
قبس من محطات حياتي

بعض من الذكرى

عندما شاورني الشيخ حنفي (جزاه الله عنا كل خير) في الكتابة عن محطات حياتي تخارجت منه بالموافقة ، دون أن افكر كثيرا .. فحياتي كما أظن بسيطة .. لا تتخللها نتوءات .. أو منعرجات .. ولا تحيط بها منتزهات أو قصور شاهقات ..

ومن ناحية أخرى أنا من محبي الشيخ حنفي .. ومن بين ما يقربني إليه إنه من مناصري فريق الهلال .. وقد كان من حسن حظي أنني سكنت بجوار نادي الهلال مدة من الزمان مع صديقي محي الدين سنجر ونجيب .. وكان من عادتي في عصر كل يوم أن أدخل النادي (لا الاستاد فما دخلته حتى هذه اللحظة) وأجد مجموعة من الكراسي الوثيرة في منتصفه .. وتعوَّد صاحب البوفيه أن يناولني (مع كثير من الاحترام) شاياً تقيلاً بالحليب (دبل) فأدفع له .. ولا أتحرك من مجلسي إلا مع المغرب .. وشاءت الصدف أن ينضم إلينا أخي الأستاذ محمد عثمان نكولا (رحمه الله) .. وكان يشكو من بطء الإجراءات لتثبيته في وظيفة التدريس .. بل لا يجد ملفه .. فاتجهنا إلى وزارة التربية لمقابلة مدير شؤون العاملين بها .. وكان من حسن حظنا أنه كان غائباً ذلك اليوم .. وقيل لنا إن غيابه بسبب هزيمة الهلال ، وعرفنا أنه يسكن في أمبدة .. يعني قريباً من نادي الهلال حيث نسكن .. فاشترينا مجموعة من الصحف لنعرف أسباب الهزيمة كما يزعم الصحفيون عادة .. وذاكرنا اليوم كله جيداً .. ثم توجهنا إلى صاحبنا ونحن في غاية الاحراج : كيف نعرفه بأنفسنا ؟ كيف ندخل الموضوع ؟ .. لما دخلنا الدار وجدت استقبالاً خرافياً من الرجل .. إنه يقول لي : هذا كتير يا أستاذ ! أن تزورني بنفسك ! أوَ ما رأيت ما حدث !!!...و ... ويكرر في تحيتي والترحيب بي .. وجلسنا في صدارة مجلسه مع صحبه .. طبعاً كانت معلوماتنا كافية عما حصل .. واستلمنا الموضوع بتقل وكلام مسؤولين ...

ولعله انتبه في الآخر ونحن نستأذنه للانصراف .. فسألني بأدب جم .. لابد أن صديقك هذا له طلب عندنا ؟ فأومأت بالايجاب ... فقال : إذن فطوركم عندي في المكتب غداً ..

وموضوعك محلول يا صديقنا طالما انت في معية أستاذنا .. وبعد وداع مهيب منه ومن بقية الهلالاب لامني أبو عثمان : لماذا لم تقل لي أن الرجل صديقك إلى هذا الحد !
قلت له وأنا لا أتمالك نفسي من الضحك : البركة في الشاي الدبل ....

لا تقارنوا ..

وأنا أجلس في هذه اللحظة لاكتب لكم عن محطاتي ، تذكرت أن موقعي من الاعراب بعد صديقي ورفيقي في سنوات العمر وبعض مراحل الدراسة : أخي محمد أحمد .. هو مرتب في كل شئونه ، ويحترم الأرقام ، وترتيب الأحداث ، وله تخصص في الجرد والموازنة وتنظيم التقارير .. نغبطه دائما في جديته .. عيبه الوحيد عندي إنه يذكرني دائماً باننا اصبحنا في المواجهة كما كان الشيخ أحمد وابو إدريس وعم عبد الماجد و... و.... وغيرهم من خيار خيار سركمتو ، ممن كانوا واجهة مضيئة للبلد .. كانوا يحلون ويربطون .. أهل الحل والعقد ... فمن نحن !!! ... وهو لا يقول هذا غالباً إلا إذا زدت على معلقة السكر في الشاي معلقة أو معلقين حسب الحجم .. فيعكنن مزاجي .. ولكن جديته ومكانته عندي لا تجعلني آخذ حقي منه كما أفعل مع صديقي اللدود أبو محمود .. ذلك أنه كان يشجع فريق المريخ قبل أن يكون شيخاً مهيباً ، فبدانا أنا وصديقي أبو صلاح (رحمه الله) نشجع الهلال نكاية فيه ، مع أننا لا نعرف من لاعبيه غير اسمين أو ثلاثة : جكسا ، سبت دودو ...

أما أخي محمد فقد كفاني الناس تقديره فيما يساهم به في العمل العام في صمت ونكران ذات .. فمثله جدير بالاحترام والتقدير .. وقد حمدت لشيخنا حنفي وموقع أبو سليم تقديمه بهذا الشكل الحضاري الجميل ..

وخوفاً من ان أقارن به .. وهو من هو .. آثرت أن اختار من محطات حياتي ما أراها مناسبا للذكر : ما أظن أني نجحت فيه .. وما لم احقق فيه ما كنت ارجوه .. وعفوا لأحبتي ممن يظنون في سيرتي نجاحاً ..

اذكر قبل سنوات أن قلت لوزير التعليم العالي ، : لقد عملت في كل مراحل التعليم ، في الابتدائي والمتوسطة والثانوية وعملت في الجامعة .. ولم تتبق لي غير وظيفة واحدة .. ضحك الجنوبي الظريف ، وقيل إن هواه كان شمالياً .. قال : تعال نقسّمو بيناتنا ...

ولكني فوجئت بسيف المعاش مسلطاً .. وأنا أهتف : متى وصلت !!!!

تمهيد ضروري ...

مشكلتي أني تحدثت من قبل عن كثير من محطات حياتي في هذا الموقع .. وفي مواقع مختلفة شاركت فيها بالكتابة : مسكاقلو .. وميمن تو .. ومنتدى كرور .. كدن تو .. عن طفولتي وشبابي وتعليمي .. عن علاقاتي .. عن مزاجي وكثير من تفاصيل حياتي .. ولكي يكون في مكان واحد مضطر أن أعيد بعضه كما سجلته من قبل في تلك المواقع والمنتديات .. وأضيف ما يكمل لكم الصورة على ترتيب مجريات حياتي وعلى ما هي عليه .. ولكن من الضروري أن اعترف أن كثيراً مما سجلته عن نفسي ومحطاتي بالصور الملونة .. وقد تجد فيها بعض البهارات للتحلية .. ولاعطائها نكهة الحكواتية وتنظير المعلمين .. وبين قصد الامتاع والتوجيه التربوي اجتهد في اختيار بعض الزوايا.. وعفواً مقدماً إذا وجدت تفاوتاً في أسلوبي .. أو تكراراً في أحاديثي .. فقد كتبت كثيراً مما ستقرأ عني في لحظات مختلفات ومزاج سوي حيناً ، ورداً على استفزاز أحياناً .. بعضه كان قريباً من الشعر .. وبعضه أقرب للرثاء .. فاقرأوا ما تيسر منه عن رضىً إن أردتم .. أو تجاهلوا ما لا ترضون عنه .. إن ذلك لا يغير من حبي لكم ..

البداية

يحكون أن غالب أبناء قريتي سركمتو في جيلي كان الشيخ بدري يتولى تسميتهم.. فقد كان المتولي أمام السلطات بتسجيل المواليد والوفيات ، ومقاس النيل (يعني يقيس منسوب نهر النيل من ارتفاع وانخفاض) .. فسمع الشيخ بدري أن زينب نكولا قد رزقها الله تعالى بطفل ، فسجل اسمي : عوض محمد آدم .. لأنها كانت فقدت أخاً لي كان اسمه كمال ، ويزعمون أنه كان جميلاً .. وأرجو أن لا تنتبهوا إلى ما في هذا الوصف من تلميح بأني لست كذلك ..

لكن الحاجة فاطمة حلوة (فاطمة يوسف سليمان) جدتي لأمي كانت ختمية على السكين .. أصرت أن تدعوني (سيدي محجوب) وظل خالي أبوسليم وفياً لتسمية أمه لي فلم يكن يناديني إلا به في حالات رضاه عني ..

ومن الطريف أن أحدهم اختبر شباب إحدى رحلاتنا الترفيهية قديماً : سألهم ما الاسم الغريب في اسم محجوب الرباعي فقيل اسمه الأول ، فهو الوحيد الذي لا يحمل اسم نبي ، فوالدي : محمد آدم إسماعيل .. ونسي السائل أن جدتي كانت تظن أن أسيادها في مصاف الأنبياء ..

وبين الوالدين صلة قرابة فوالدتي أبوها إبراهيم أحمد ووالدته كبارة خضر .. أخت عائشة خضر جدتي لأبي .. ولهذا ما أن يدعى عائلة الواراب كنت أحدهم .. أو يدعى عائلة الولياب كنت منتسباً بأمي إليهم ..

واذكر أن الأستاذ محمد عثمان الفركاوي رحمه الله عرض علي أن اشتري بعض نسخ كتابه (الولياب) فقلت أداعبه : وهل أنا منهم ؟ قال : إنك في الذؤابة من الولياب.. فقلت أمازحه : فلماذا لم تذكر اسمي بينهم .. وقد ذكرت من دوني فيهم !!..

أما أجدادي لأبي فقد ذكر أن جدنا أبو القاسم من قرية البركية أو من الحفير (لست متأكداً) كان قاضياً.. وتزوج في تبج ومن نسله آل بدري والبركية .. ومن زوجته في وادي حلفا جاء آل القاضي ... والزوجة الثالثة كانت جدتنا في سركمتو .. وكان جدنا حاج عربي صاحب المقام في (ترويي) .. وإلى وقت قريب كانت نساء العائلة يفتخرن بجدي آدم الذي يعرف الكتابة .. وكذلك ينُحنَ على موتاهن بمقام أجدادي ، وبمسيدهم العامر .. وفيه تخرج والدي ، وأكمل تعليمه في المدارس الليلية في مصر.. وكنا نحسد فيه قوة حفظه ، وكثرة محفوظه من الشعر وغيره .. وجمال أسلوبه وخطه .. وعهدته حتى آخر أيامه كثير الاطلاع .. جيد الفهم ..

الغريب أني سألته مرة عما يفعل بما يقرأ في نهم .. فقال بطريقته الخاصة : ألا تحفظ قول المتنبي :

مَا مُقامي بأرْضِ نَخْلَةَ إلاّكمُقامِ المَسيحِ بَينَ اليَهُودِ

وبالبيت نفسه أجاب الشاعر الكبير ، قريبنا عبد الرحيم كدودة .. وكم يحزنني أن ديوانه لم يجد من يطبعه حتى الآن .. كما تولى المغفور له أحمد يويو طباعة خطب والدي على نفقته .. غفر الله لهم جميعاً ..

وجمع والدي في تعامله مع الآخرين الحدة والفكاهة .. ولعل ما أجد في بعض تعاملي من حدة هو مصدره .. ولم ينلني من ظرفه ودعاباته المصرية شيء ..

تذكرت بعد هذا كله أني لم أذكر متى ولدت .. قيل إن الوالد لم يرض أن يكوت اسمي بغير ما أنادى به عندما أرسلت للمدرسة الابتدائية في عكاشة ، فقد كان اسمي المسجل عوض ؛ ويدعونني باسم محجوب ؛ فمزق شهادة الميلاد .. وفي السة الثانية طُلب منا أن نقف أمام مكتب ناظر مدرسة عكاشة لمقابلة الطبيب .. لما خرجت من مكتبه كان قد تسجل أني مولود سنة ٥٢ واسم الطبيب عثمان عبده .. في شعوري

أنا أصغر مما قُدِّر لي .. ويدعي صديقي سعيد أني أكبر منه وهو مولود سنة ٤٩ ..
ولا أريد أن أكذب الحكومة وأصدقه ..

ما الذي يمنعك أن تنجح :

يظن بعض الناس ان الشهادات هي التي تكفل للإنسان النجاح في الحياة .. وعندئذ يتوقف النجاح على الحصول على هذه الشهادات .. ومع ذلك فكثير من الناس تلقاهم في حياتك .. بسطاء .. لم ينالوا حظاً كبيراً من التعليم .. ولكنهم يذهلونك بما يملكون من حكمة ومعرفة .. وما اكثر الذين ننهل من علمهم ونقر لهم بفضلهم مع انهم لم يحصلوا على ألقاب علمية .. ولم يكن سر نجاحهم معجزة أو كرامة أو منحة .. بل كان لشيء آخر .. متاح للجميع .. يمكن لكل فرد منا أن يحققه .. وهو نفس ما يحتاج إليه الناجحون في حياتهم العلمية ..

إنه :

- تحديد الرؤية .. وضوح الرسالة .. المثابرة لتحقيق الهدف .. توظيف كل الامكانات لذلك .. يعني : ماذا تريد أن تكون ؟ ماذا تريد أن تحقق ؟

إذا حددت إجابتك .. ما الذي يمنعك من تحقيقه ؟ طالما حققه آخرون غيرك .. لم تكن امكاناتهم في الغالب أفضل مما تملك .. الفرق أنهم وضعوا ما يريدون تحقيقه نصب أعينهم .. ووظفوا كل إمكاناتهم لتحقيقه .. وثابروا واجتهدوا .. فلماذا لا تفعله أنت أيضاً ؟ لماذا تبحث عن شماعات ومبررات لعدم نجاحك .. إذا ناقشتها بتجرد ستجدها مبررات واهية ؟ لماذا تشتت جهودك هنا وهناك ؟ تمسك اليوم موضوعاً ثم تنتقل الي غيره .. لماذا تركز اهتمامك على ما يمكن أن يقوله الناس عنك ؟ ثق أنك لن ترضي كل الناس .. فإرضاؤهم ليس في الإمكان .. الناس ليس لهم وقت أو اهتمام ليسمعوا مبررات فشلك .. الناس فقط يصفقون للناجح .. فلماذا لا تنجح ! ولكن دعك من التفكير في تصفيقهم .. فإنهم أحياناً يصفقون لأن غيرهم صفقوا .. وقد يصفقون مجاملة .. وقد يصفقون لتجديد نشاطهم .. وقد ...

المهم أن تتأكد أن لكل نجاح مهره .. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم .. وكذلك لكل نجاح عثراته في البداية .. فإذا تعثرت .. لا تهتم ماذا قال الناس عنك .. فقط .. انفض ثيابك مما علق به من تراب .. وواصل المسير ..

وقد سألني أحد أصدقائي ، قال : هل حققت ما تمنيته ؟!

قلت في جدية : لأول مرة يضعني سؤالك أمام نفسي ، أترى فعلت ذلك ؟!

لاشك أنك تتفق معي أنه لا سقف لطموحات الإنسان .. فما أن تصل نقطة محددة في طريقك ، تجد أنها لا تستحق أن تقف عندها .. ومن ثَمَّ تنطلق إلى نقطة أبعد مدى ..

أحياناً بعض الناس يتفلسفون بأن الطريق يبدأ بعد الدكتوراه .. مع أن الشهادة في ذاتها مجرد رخصة ..

المهم : ماذا تريد أن تحقق في حياتك ؟ ما رسالتك ؟

كثيرون لا يعرفون أني لم أكن متفوقاً في دراساتي الأكاديمية .. ولا أدعي أن ذاكرتي قوية .. أو ذكائي عالياً .. ويشهد الله أني لا أقصد بهذا الكلام تواضعاً .. ولكنها حقيقتي ..

صحيح أني لم أترك القراءة يوماً .. كان أكثر ما يزعج والدتي أني أسهر ليلاً في القراءة .. وهذا معناه بالنسبة لها استهلاك كمية أكبر من الجاز الأبيض .. مع أن قارورة الجاز كانت بقرش .. ولكنها كانت مبلغاً وقدره في ذلك الزمان (الجميل) ..

كما أني ما شعرت يوماً أني لا أعرف أمراً إلا حاولت أن أعرفه .. فأحاوله .. أو أقرأ ما يتصل به ..

ومع ذلك فشلت في تحقيق أشياء .. ولكني حققت أشياء .. والحمد لله في الحالين.. لأن ما فشلت فيه علمني أشياء ..

صعب للغاية أن تتكلم عن نفسك .. ولكن بعضهم أقنعني أنه قد يفيد شبابنا.. على الأقل حتى لا ينبهروا بما عندنا .. بل هو ميسور لهم أيضاً .. وما أكثر طلابي ممن أغبطهم على ما حققوا ..

مساهمتي

صديق آخر يسألني عما ساهمت به في خدمة أهلي ..

ففكرت كثيراً .. أترى قد بدر مني إنجاز يُعتدُّ به في خدمة أهلي عامة أو خاصة ؟!!

فما وقفت فيما حسبته كذلك إلا وجدت لغيري منَّةً وفضلاً : سبقاً ، أو حجماً ، أو قيمةً ..

وكأنا إزاء أهلنا وبلدنا كصغار التفوا حول أمهم .. يمتنون عليها بما قدموا لها من إحسان : فهذه كنست الدار .. وتلك حلبت الغنم .. وجلب الفتى منهم الحطب .. وقضى لها آخر أمر السوق .. وهكذا ..

وفي الحديث أن ابن عمر (رضي الله عنهما) رأى رجلاً يطوف حول الكعبة ، وهو يحمل أمه على عنقه .. فلما رآه قال له : أتُراني جزيتُها ؟ قال ابن عمر : لا ، ولا بزفرة واحدة ..

وإنّا - لا أنا وحدي - نجتهد ، ونقدم جهد المقل .. إذ نشأنا وقد وجدنا آباءنا وأهلينا يتنافسون على فعل الخيرات ..

ولك .. ولكل شبابنا .. ولي .. أن نردد تنفيذاً وعملاً قول الشاعر

وللأوطان في دم كل حريد سلفت ودين مستحق

وليس لمن يسدد دينه أن يتباهى ...

وليس لمن يذكر فضل أمته وبلده وأهله عليه أن يحاربهم .. ولكن خذ من حديث المصطفى ﷺ : (فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ) والمل هو الرماد الحار ..

وما أنا إلا من غَزِيَّة ...

ولكن إن رشدت ..

ليلة المولد يا سر الليالي

كان أكثر حضور الناس للمسجد في ليلة المولد النبوي .. إذ كان صحن المسجد يضاء بالنار في وسط الحلقة .. أو بمجموعة من (المصابيح) الكبيرة.. وفيما بعد بالرتاين [1].. ويجلس الرجال والصغار في حلقة دائرية .. ويبدأون بإلقاء المدائح المرغنية (وتسمى السفينة ولا ادري سببا محددا للتسمية) مرة جلوسا ، ويلقون بعضها وقوفا بشكل منتظم ... وفي بعضها يعرض الشيخ وبعض الرجال على وقع الطبل وإنشاد المنشدين في حركات طالما أحببناها عند أستاذنا أحمد عبد الرحمن وعم همد جودة وآخرين (وتسمى هذه الحركة السريعة بالشِّرِّي .. ولعلها مقتبسة من حركة طائر القلدونة فهو يمشي في خيلاء على الارض بسرعة وينحرف أحيانا شمالا او يمينا .. واظن أن اليمامة (الدقي) تفعل ذلك .. واذكر أنهم كانوا يرتجزون بقولهم : قلدونا شِرَّ جونا .. تنن دارا .. متن دارا .. ورجز آخر : شرِّي شرّي وو سيا .. إندو قبالا وو سيا ..)

ثم يبدأ الناس قي قراءة (مولد الأسرار الربانية) لمؤلفه السيد محمد عثمان الميرغنى الختم رضى الله عنه.

١ - الرتينة : مصباح يُشْتعل بالوقود ، يصدر ضوءًا ، وهي أشد نوراً من اللَمْبَة: . ..

ويبدأ المولد بقولهم : (الحمد لله الذي اصطفى لمحبته الذات المحمدية .. من القِدم وجعلها واسطة لكل إنسان .. وأبرزها أولا في حضرته الواحدية .. وفرّع عنها ساير الأكوان .. وأمدها بأنواره العظيمة الشعشعانية ...) ويقول عن وصف الرسول ﷺ : وأما وصفه (ﷺ) من حيث جهته الخلقية ... وفي قسم من المولد يقولون : ثم أرفعوا أيديكم يا معشر الحاضرين والسامعين إلى التي هي قبلة الدعوات العلية .. فإن الدعاء مستجاب عند هذا المكان ... وينتهي كل قسم بقولهم .. (اللهم صلِّ وسلم على الذات المحمدية .. واغفر لنا ما يكون وما قد كان)

وغالباً ما يبدأون مجالسهم بقولهم : (به الإعانة بدءا وختما .. وصلى الله على سيدنا محمد ذاتا ووصفا واسما ..)

وأذكر من قصائدهم :

يا رب بهـــم وبآلهم ، عجِّل بالنـــصر وبالفرج

اشتد هواي على المُهَج يارب فعجِّل بالفرج

وهي القصيدة التي يقول فيها :

واشغل أعداي بأنفسهم وأبليهم ربي بالمرج

وكنا نقرأ للسيد محمد عثمان الميرغني (النور البراق في مدح النبي المصداق) ولا أدري لماذا كنا نسميها الورَّاقي ..

وكذلك كان الناس يأتون المسجد ليلة عاشوراء .. وكانت مراسيمها مصحوبة بتناول العشاء .. ويعتقدون أن التوسع في الأكل في هذه الليلة واجب .. وفي أماكن كثيرة يتفقون على ثمن الذبيحة ، ثم يتقاسمون لحمها بينهم في أكوام متساوية .. وكنا ننتظر بفارغ الصبر صبيحة عاشوراء .. إذ يذهب أصحاب الولادات الجديدة بكابيدة من النَّوي (أي : السمن البلدي المعتبر) .. ويتجمع خلق كثير على الشاطئ ..

ذات مرة كنا في انتظار كابيدة حلتنا سيانيري على الشاطئ ؛ فتأخرت .. وسمعنا زغاريد الفرح في ديابين .. فأسرعت وصديقي أحمد حبو للحاق بكابيدتهم .. فإذا بهم قد قضوا عليها .. فعُدنا نسابق الريح (كِتِّقْ أَقِلَّ لجدا) تجاه سيانيري .. فإذا بهم يعلنون بزغاريدهم انتهاءهم أيضاً مما يحملون من الطعام ..

تذييل مهم

تعليل كثير من تصرفات وعادات الناس يعتمد غالبا على الظن .. ولا يغني الظن

كثيرا .. على سبيل المثال نجد أن الناس اختلفوا في تصرفاتهم في عاشوراء فبينما يحرص اليهود والنصارى بالصوم فيه شكراً لله .. وكان صيامه فرضا في الإسلام ثم نسخت فرضيته بصوم رمضان ؛ فخيَّر النبي ﷺ المسلمين في صومه ، نجد أن بعض الشيعة اتخذوا يوم عاشوراء مأتما وعويلا ؛ يعلنون فيه عن حزنهم وأسفهم بما يفعلونه من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثي ؛ لأنه اليوم الذي استشهد فيه الحسين رضي الله عنه في كربلاء سنة ٦١ للهجرة ..

وفي مقابل هؤلاء تجد أقواما يتخذون من هذا اليوم عيدا وأحدثوا السرور فيه .. ويستحبون فيه الاكتحال والاغتسال والتوسعة على العيال وإحداث أطعمة غير معتادة .. ورووا أنه من وسَّع على أهله يوم عاشوراء وسَّع الله عليه سائر سنته .. وأن من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام .. ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام ..وكلاهما غير مصيب ، ولم يستحب أحد من أئمة المسلمين هذه الأفعال ..

فلماذا أخذنا في منطقتنا بالقول الثاني ؟!! وفي هذه الحالة لا أرى أن عادات عاشوراء على الأقل لها أصل في النصرانية أو النوبية القديمة أو الفرعونية ..

صحيح أن ارتباطنا بالنيل بخاصة يحتاج إلى كتاب كامل وجمع وتدقيق وتوثيق للمعلومات التي يتوقع أن ترد فيه .. على سبيل المثال قيل لي إن أهلنا كانوا يضعون سرة الطفل الوليد على حزمة من القش ثم يضعون جمرة من بعر الحمير ثم يدفعون بالحزمة إلى داخل النيل .. وللعرسان علاقات بالنيل .. وكذلك المواليد .. وغيرها .. وكنت قد رأيت في بعض كتب الأب فانتيني بعض عاداتنا المتصلة بالنيل .. ويجزم أنها بتأثير الثقافة النصرانية في المنطقة .. والعجيب أنه يعتقد أن طريقتنا في تقسيم القراصة إلى أربعة أجزاء نوع من رسم الصليب على الطعام للبركة !!

وقد أجد وقتا لتسجيل بعض التفاصيل عن عاداتنا المرتبطة بالنيل وغيرها مما يعلق بالذاكرة من عاداتنا وتقاليدنا وحياتنا بالقرية وبالمنطقة ..

أحداث على تخوم كربين

يوم أن أخذنا شيخنا الأستاذ أحمد إلى مدرسة فركة الصغرى .. لم تسجل أحداثه في ذاكرتي .. رغم أهمية مثل هذا اليوم لكل طفل .. ومن ثم لا أذكر بالتحديد من هم الذين تشرفت بالتسجيل معهم .. وربما كان ذلك لأنه لم يتسنَّ لي أن أواصل معهم ..

فقد كان من سوء حظي أن أكون مع شقيقتي (سعيدة) في معية الوالدة ، حينما جاء دورها لتكون مع أبي في كريمة .. وربما كان من سوء حظي أيضا أني لم أحظ بالتلمذة على يد الأستاذ وردي مع أنه كما قيل هو الذي سجلنا في المدرسة .. وعلى الرغم من أن تسجلينا في المدرسة تم حسابيا في عام استقلال بلادنا .. إلا إني لا أجد في ذاكرتي إشارة لوعينا بهذه المناسبة .. ولاشك أن أهلنا سعدوا بها كثيراً .. فمناسبة بهذا الحجم من الأهمية ما كان ليخفي أمرها على أحد .. مع أن قريتنا لم تعرف حينها ترف وجود راديو فيها .. وقد اجتهدت قبل قليل لأتذكر أول من امتلك في شياختنا الراديو فلم أصل لشيء لكن إذا اعتمدت على معلومات صديقنا محسوب فإنه عمنا علي همد .. هكذا قال .. ولكنه لم يؤكد.. لكنني تذكرت أن أول من امتلك ساعة يد في محيطي كان خالي أبوسليم ..

قبل سفرنا إلى كريمة بأيام غرقت معدية القرية ، وغرق ريس البحر عثمان عواضة .. وذلك في يوم عرس شوربجي وفوزية مكي .. وبعده بليلة أو ليلتين كنا في كرامة انتهاء بناء منزل محمد عواض في بوابة كفري .. وليلتها أخذت علقة من العيار التقيل من الوالد لأني غرقت في كربين مع صديقي شيخ صالح ويو فاطمة بليلة .. وتم انقاذنا في اللحظات الأخيرة .. وفي اليوم الثاني كان سفرنا إلى كريمة .. وفيها تم تسجيلي للمرة الثانية ولكن مستمعاً ..

تخريمة :

أكد لي أخي فرح أن أول راديو كان في ديابين .. وأنهم كانوا يذهبون كل مساء لاستماع الراديو .. وأن زمن الإرسال كان حوالي ساعة واحدة .. للأسف لم يحدد في أي بيت ..

مواصلة من التخوم :

فيما بعد كريمة .. كان والدي يتباهى أحياناً .. وبالتحديد إذا كان راضيا عني : أن ناظر المدرسة لما طلب من محجوب أن يقرأ له أي شيء يحفظه بدأ يتلو سورة يس .. ولما سأله عن حفظه للأناشيد بدأ بأناشيد سنة رابعة .. ولم يكشف له من

كان يحدثهـم أن الأسـتاذ أحمـد كان يضـع أطفـال الخلـوة في مقدمـة الخلـوة ، أي أمامـه مباشرة .. ويجلـس وراءهـم تلاميـذ الصفـوف الأربعـة بالترتيـب .. ومـن ثـم كان المايسـترو (عفـواً أقصـد شـيخنا أحمـد) يديـر عمليـة التدريـس بسلاسـة وحنكـة .. وكنـا نسـمع بقلـوب خاليـة مـا يقـرأه الجميـع ونحفـظ كل شيء ..

المشـكلة أن طريقـة تدريـس الشـيخ هـذه لم تجـد تصنيفـاً عالميـاً .. بـل لم تجـد حتـى دراسـة علميـة جـادة .. وهـي بـلا شـك جديـرة بذلـك .. ويصلـح تطبيقهـا في مثـل قرانـا النائيـة والقليلـة السـكان ..

ولم نكـن نعـرف قـي الخلـوة الأقلام والكراريـس .. بـل كنـا نكتـب عـلى ألـواح الأردواز، وهـي أشـبه مـا تكـون بالسـبورة شـكلا .. ونمحـي مـا نكتبـه بسـهولة .. ولا تعجـب إن قلـت لـك ببعـض الإعتـزاز أننـا كنـا نسـتعمل في خلاوينـا في دراسـة الحسـاب دولاب اليـوسي مـاس UCMAS وهـي اختصـار لــ Universal Concept of Mental Arithmetic System ويعدونـه اليـوم مفهومـا جديـدا و مدهشـا لتنميـة مهـارات الأطفـال وتنميـة قدراتهـم الذهنيـة والارتفـاع بمسـتوى تفكيرهـم و تفوقهـم في مناهجهـم الدراسـية بشـكل عـام ، ويسـمى : « المفهـوم العامـلي لنظـام الحاسـب الذهنـي » ..

الشيخ عبد الرحمن وشيء من الخلوة :

يبـدو لي الآن أننـي مـا كنـت منتظمـاً في الخلـوة .. إذ أذكـر أكـثر مـن واقعـة كان الشـيخ يرسـل فيهـا زبانيتـه مـن التلاميـذ للقبـض عـليَّ .. وعندئـذٍ لا تسـل عـن العقـاب بالفلقـة .. ومـا أدراك مـا الفلقـة .. وعـلى كل كان العقـاب البـدني مشروعـاً .. بـل ومسـتحباً .. ويشـكر مـن يعاقـب لـك صغـيراً .. ولم يكـن في القريـة ولي أمـر محـدد لـكل طفـل .. بـل كل كبـير هـو بالـضرورة ولي أمـر كل طفـل .. ومـن حقـه أن يعاقبـه ..

كانـوا ينظـرون إلى الأمـور بمنظـار شـفاف ورحـب .. فضَيَّقْنـا الآن بالتعليـم مـا كان واسـعاً .. وعقَّدنـا مـا كان بسـيطاً سـهلاً .. ولم نعُـد نرعـي للكبـير حقَّـه .. وعشـنا في قرانـا وفي ريفنـا البسـيط وكأننـا في دوامـة المـدن ولم يعـد يجمعنـا إلا المناسـبات الرسـمية .. أمـا أن تنـادي والـدتي ببسـاطة وعـلى مـرأى ومسـمع مـن الجميـع : مـاذا أعـددت مـن العشـاء في هـذه الليلـة يـا نبيهـة .. سأرسـل لـك سـعيدة .. فـإذا كان الإدام قليـلا فذلـك معنـاه اننـا سـننتقل إليهـا بقضنـا وقضيضنـا (يعنـي جميعنـا : الكبـار منـا والصغـار لا يتخلـف منـا

أحـد) إن هـذا فرصـة لنـا ولهـم .. ومـا أسـهل إضافـة بعـض الماء عـلى الحلـة .. والشـدي المـر (الكِـسْرة) عـلى قفـا مـن يشـيل .. كانـوا يكتفـون في طعامهـم بلقيـمات يقمـن صلبهـم .. كانـوا رغـم فقرهـم أعـزةً كأطـوادٍ شـامخات .. كان كل واحـد منهـم أمـة ..

وكان شـيخنا الكبـير عبـد الرحمـن يـأتي الخلـوة مـن وقـت لآخـر .. وكان حبنـا لـه لما كان يقصـه علينـا مـن قصـص طريفـة .. ويشـدنا إليـه بأسـلوبه في السـرد .. ولا أذكـر أنـه ضرب أحدنـا عـلى كـثرة أخطائنـا .. وقـد وجـدت في مكتبتـه العامـرة فيـما بعـد مرتعـاً وزاداً .. ومـا أكـثر مـا كنـت أناقشـه .. فأجـد عنـده العلـم الغزيـر .. وأذكـر أنـه سـألني ذات يـوم إن كنـت أملـك شـيئاً مـن مؤلفـات محمـود محمـد طـه .. فأعطيتـه مجموعـة مـن مؤلفاتـه .. وسـألني عنـه .. فحدثتـه عـما أعرفـه عنـه .. لاسـيما وقـد درسـت الثانويـة في رفاعـة .. وكنـا نحتـك بأسـتاذ التاريـخ خالـد الحـاج أحـد أهـم تلاميـذه .. بعـد أيـام أعـاد لي كتـب الرجـل .. ولم يـزد عـلى تعليقـه : إن الرجـل قـرأ كتـب القـوم وأعـاد بضاعتهـم في حلـة جديـدة .. ولكـن كلامـه نظـري .. ولم أجـد فرصـة أخـرى لأناقشـه ..

وكنـا في نـادي القريـة إذا أردنـا جمـع تبرعـات لدعـم نشـاطنا الريـاضي .. بدأنـا بـه .. لا للتـبرك بمـا يدفعـه .. ولكنـه كان أكـثر أهلنـا في قيمـة مـا يدفـع .. كان يدفـع مبلـغ ثلاثـة جنيهـات كاملـة .. وكان يليـه في الدفـع التاجـر جريـس .. إذ يسـاهم دائمـاً بجنيهـين ..

وكان يـوم الأربعـاء مـن أجمـل أيـام الأسـبوع في الخلـوة ؛ ففيـه نمـر عـلى البيـوت لجمـع بقـول مختلفـة (قمـح ، ذرة ، كشرنقـي ، دقنتـي ..) وبعضنـا يجمـع الحطـب.. وبعضنـا يبـاشر الطبـخ ..

وكان شـيوخ الختميـة وجماعـة شـيخ فـرج (مـن كلـب) يأتـون بعـد مواسـم الحصـاد لجمـع مـا يخصـص لهـم مـن الزراعـة .. وأظنهـم كانـوا يخصصـون حوضـاً كامـلاً في كل سـاقية .. وسـواقي سركمتـو وحدهـا في حـدود العشريـن (ومـا كلهـا تكـون عـلى رأس العمـل) .. ولعلهـم كان لهـم نصيـب مـن التمـر إمـا صدقـات أو نـذور أو وقـف ، وكان لريـس المركـب نصيـب معلـوم ومثلهـا لصمـد السـاقية وللحداديـن) .. هـذا غـير مـا يدفـع لشـيخ البلـد مـن عوائـد وخلافـه فـإذا جمعهـا كان لـه نسـبة معلومـة .. أتوقـع أن هـذه الجوانـب جـاء توثيقهـا عنـد شـيخ الوثائقـين العـرب في رائعتـه (السـاقية) أو في ملاحقـه التـي لم تنـشر معـه ..

وكم أنا حزين لأني لا أملك له نسخة ..

للصغار موقع من حبنا :

للصغـار في حيـاة البلـد أدوار مـن أطرفهـا فيـما علمـت أنهـم كانـوا إذا تعـثرت ولادة يطوفـون بالبيـت وهـم يرفعـون أصواتهـم في تناغـم جميـل : انُّـو منقـا فرقـي .. نورتـون خلاسـك (مـا الـذي ترجـوه الحامـل .. مـن ربهـا الخـلاص ...) .. ويبعـث بهـم عـادة في إعـلان خبر الوفيـات .. كذلـك يسـتخدمون في ترحيـل القـش وجـوالات البلـح بعـد الحصـاد .. وفيـما بعـد حمـل أكيـاس القمـح أو الـذرة إلى فركـة (أول طاحونـة وصلـت المنطقـة) .. ثـم تحولـت رحلتهـم إلى طاحونـة القريـة في كفـري ..

وكان شـيوخنا يكلفـون مجموعـة مـن الجـيران لإعـلان المناسـبات الدينيـة وهـم يحملـون أعـلام الختميـة الجميلـة .. وفي سَـيرة العيـد يصطفـون خلـف الشـيخ مـع بقيـة المنشـدين بينـما كان حملـة البيـارق الأربعـة يسـيرون في المقدمـة .. أمـا سـيرة الوجـه القبـلي (بقيـادة عـم عـلي سـابر وعـم أبـو طـه وبقيـة قيـادات قبـلى العظـام) فلـم يكـن لهـا بـيرق بـل كانـت تقـف قريبـا مـن مصـلى العيـد في انتظـار سـيرة الوجـه البحـري ؛ فـإذا حـضرت وهـي تنشـد مديحهـا (السـفينة) .. واجهتهـا سـيرة قبـلي وهـي تنشـد بدورهـا (سـفينتها) مـن نحـو :

يا رسـولَ اللهِ يا سـندي أنت مقصـودي ومعتـمَدي

ونحو :

مرحبا بالمصـطفى يا مسـهلا مسـهلا في مرحبـا في مسـهلا
يا جمـيلاً لاح في شـمس العـلا نـورُهُ غـطَّ العـلا غـّط العـلا

فـإذا مـا انتهـوا مـن الفاصـل المدحـي تقدمـوا فتسـالموا .. ومـن ثـم اصطفـوا في المصلى جميعـاً ..

وللصغـار تكليفاتهـم التقليديـة في الزراعـة وخاصـة في (الكِجِّـي) وهـو نفـير لحراثـة أحـواض الزراعـة .. وفي (الناقـر) أي زراعـة الجـروف .. وفي خدمـة الضيـوف في الأفـراح والمآتـم .. كان علينـا حينئـذ أن نحمـل طشـت الألمنيـوم الجميـل والإبريـق ، ونمـر عـلى الضيـوف والكبـار لغسـيل الايـدي .. وقـد نكلـف بتوزيـع المـاء أو حمـل الطعـام ، وكان يتكـون مـن صحـن النحـاس الخـاص (الأنجـر) وقـد امتـلأ فتـة مـن كـسرة الـذرة المـرة (الشَّـدِّي)، وطبقـة خفيفـة مـن كـسرة القمـح (الأدويـرا ، وفي روايـة : السـلَّاب) ، وتأخـذ قطـع اللحـم المحـدودة موقعهـا عـلى رأس الفتـة في خيـلاء .. وإذا وقـع حظـك الأسـود مـع بعضهـم تخاطفوهـا في لمـح البـصر .. وبعضهـم يدفنهـا في قـاع الفتـة السـاخنة للغايـة ..

راجع عن بعض ما ألمحت اليه فيما حرَّره الأديب محمد خليل كاره بأسلوبه السلس وأدائه الرائع الجميل في تلافيف ذاكرته ..

محطة فركة الأولية :

عندما عدنا من كريمة كان لابد أن يتم تسجيلي في مدرسة فركة ، وناظرها يومئذٍ عبد الرحيم صالح ميرغني .. ويزعم بعض كبارنا أني ما كنت منتظماً .. وكيف انتظم وأنا أجري مسافة طويلة من (سيانيري) إلى فركة وهي مسافة تقدر بحوالي خمس كيلومترات !! كنت ألهث بكل قوتي وراء من يملكون الحمير .. فإذا تأخرت دقائق أجد مصطفى جودة في طريقه بكل أبهة إلى المدرسة أيضاً .. ولكن على فارهته الضخمة وقد تحلق من حوله كلاب شرسات .. بسيطة ؛ هذا يعني أن أتحول إلى بيت يو صليحة المتطرف .. وهي تعرف كيف تستفيد من وضعي المتأزم فتكلفني بأي شيء .. ثم أعود في ميعادي .. ولا من شاف ولا من درى .. المشكلة أن عودتنا من كريمة كانت في الشتاء .. ولا أظن شبابنا اليوم يعرفون ما كنا نعانيه من جيوش النمتي .. والبرد القارص ينهش لحومنا .. والاستيقاظ في الفجراوي لكي نلحق الحصة الاولى .. يذكرني بشعر للتجاني :

قام من نومه يُدَغدِغُ عينيه مُشِيحا بوجهه في الصباح

وكل الذي نحمله في بقجة الفطور لقيمات من الكِسرَة المرة أو باقي كابيدة لا يقمن صلب طفل حتى يعود في آخر اليوم الدراسي .. المصيبة إنَّا كنا نقضي عليها قبل المدرسة في (أردين كِد) وقد يقترح أحدهم (وفي الغالب العبد لله) أن نعود أدراجنا سالمين ولكن في الميعاد .. ولا شك أننا سننال حظنا من الجلد غداً ، بسبب وبدون سبب .. فأين تكمن المشكلة ؟!

لم أكن أعرف ما يحاك لي من الخلف .. إلا بعد وصول خالي أبوسليم في إجازة .. لقد عرفت أن الداخلية وحدها هي القادرة على تأديب أمثالي.. وما أدراك ما الداخلية !! وأين ؟ ... في عكاشة !!! .. لقد أصبح على الطفل المدلع أن يعتمد اعتمادا كاملا على نفسه في كل شيء .. لا طعام .. لا رحمة .. لا حقوق أطفال .. ولا حقوق إنسان .. ورحم الله البارودي كان أكثر دلعاً عندما قال في سريلانكا :

أعيش في غربة لا النفس راضية بها ولا الملتقى من شيعتي كثب ..

فكيف بالله كان يقول لو عانى ما عانيناه في الداخليات .. عندما قرأت في تلافيف ذاكرة أخي كارة قصة اللقمة التي وقفت في زوره والناظر فوق رأسه .. عرفت أن كل الداخليات كانت زفت ..

الترحيل إلى سركمتو :

كان من سوء حظي أن زواج قريبنا إبراهيم بابنة عم والدتي تم في نفس السنة التي قبلت فيها بمدرسة عكاشة .. وكان عم إبراهيم يظن أن الواجب يملي عليه أن يأخذني إلى بيتهم .. أردفني برضائي الكامل على حماره العاتي وسرجه وفروته .. بعدها كان يردفني على كراهيتي المقيتة ويجبرني أن أذهب معه .. في حيِّه فقدت لأول مرة حريتي عندما أكرهت أنا (الفتى المدلل وسط البنات) أن أسعى بغنمهم مع (بنات) كلما قرأت عن الجنيات والغولات تذكرتهن .. ولا تمسح السنون الطويلة كراهيتي لتلك المرحلة من حياتي ..

كنت أنزوي غير بعيد منهن .. وهن يتنابذن بأقبح ما سمعت في حياتي .. وقد يأخذن بشعر بعضهن .. فإذا أخذن قسطاً كافياً من الشر تحولن نحو الغريب الصغير .. فدفعنه دفعاً إلى أعالي شجر الدوم (الأمبو).. وما أدراك ما طلوع جذوعها وقساوة شوكها !! فما بالك إذا صحب ذلك رجمه بالحجارة .. دون شفقة أو رحمة .. ليسرع في إنزال الدوم لهن ..

والمصيبة أنهن يسرعن عائدات بغنمهن .. فيجد الطفل نفسه وحيداً في صحراء تحيط بها جبال شامخات .. وشجيرات قبيحات تبدو له كأنياب أغوال ..

لا أحد يهتم به إن بكى أو صرخ .. ليس هذا فحسب .. بل يتعشى بعشاء فاخر من علقة (عم إبراهيم) .. بسوط ناعم كالحرير .. ولذع يقطع نياط قلبه .. كل ذلك لتأخيره في العودة ..

لن أحدثك عن النوم المتقطع والكوابيس .. وليل يتقاصر دونه ليل امرئ القيس المدلل ..

ثم إذا أفرج عنه .. وضعوا في جيبه بضع بلحات .. يأكلهن بنهم قبل أن يلحق بصديق له في أطراف الحلة .. فيجد أمه قد وضعت نصيبه من البلح مع نصيب ابنه .. فيجريان وقد وضعا أيديهما في أيدي بعض .. في مرح وحبور .. على غير عادة التلاميذ إذا عادوا إلى الداخلية من مساء يوم الجمعة ..

على ظهر السفينة

في أول إجـازة لي في مدرسـة عكاشـة .. لم يتبـق بالداخليـة غـير بضـع أغـراب .. وانزوينـا جميعنـا في ركـن قـصي مـن إحـدى الداخليـات .. ونضـب كلامنـا .. وتاهـت عيوننـا .. فـلا تنظـر إلا لبوابـة الداخليـة .. في أصيـل اليـوم الثـاني وقـف في البوابـة (حسـن سـالي) كهـلال ليلـة العيـد .. لم ننتظـر أن ينـادي أحدنـا .. كنـا جميعـاً بـين يديـه .. هـل اهتـز الرجـل لمرآنـا !! لا أدري .. جلـس عـلى الأرض بيننـا .. طمننـا .. أو هكـذا أظـن اليـوم .. وعَدَنـا أن يبلـغ أمرنـا إلى ذوينـا .. تـرك بـين أيدينـا بعـض بلحـات وكلـمات .. لمـا تحـرك .. توقفـت قلوبنـا عـن النبـض .. لكنـه التـف نحونـا فجـأة : مـن منكـم محجـوب ؟ خالـك عثـمان ... لمـا انتهيـت عـلى طبطبـة عـم حسـن مـن فاصـل البـكاء الحـاد .. كان رفقـائي قـد جلبـوا (الجلابيـة) و(الـسروال) بـكل مـا فيـه مـن حيوانـات .. ومـن ثـم رفعنـي عـم حسـن فـوق جـوالات التبـغ (القمشـة) عـلى ظهـر جملـه .. وتقدمنـي بحـماره العـاتي .. وبينـما كنـت بـين اليقظـة والأحـلام لم يكـن الرجـل يسـتأذنني بـل يقـول لي إنـه سـيتأخر قليـلاً عنـد أحـد التجـار .. ومـضى في طريقـه .. وهـل كنـت أملـك إلا أن أطيـع !! ومضيـت عـلى هـدى الجمـل .. لم أكـن أعـرف كيـف أقـوده أو أوقفـه .. ولا شـك أن سـفينة الصحـراء كانـت تعـرف طريقهـا تمامـاً .. فلـم تتحـول إلى (دِرِّي) ولا توقفـت في (أدبـر) ولا في (شرقشـا) .. ولا نزلـت إلى (دكـة) .. بـل واصلـت تمخـر بـين أمـواج الجبـال العاتيـات .. وضباعهـا الجائعـات .. ومـردة شـياطينها العابسـات .. ولم يكـن الطفـل النائـم محتاجـاً للتفكـير في كل ذلـك .. فقـد وضـع اللـه تعـالى في هدهـدة سـير السـفينة قـدراً عظيـماً مـن التخديـر .. مـا جعلنـي لا اسـتيقظ إلا في ضحـى الغـد .. وعـم حسـن يمسـك بخطـام السـفينة مـن عـلى ظهـر فارهتـه ..

وظللـت مدينـا لعـم حسـن .. لكنـه في صيـف سـنة ٧٢ لم يتذكـر أحـداث تلـك الليلة .. مـع اجتهـادي في تذكـيره بمـا حـدث بـكل البهـارات والتوابـل وبآيـات الرضـا والامتنـان .. ومـع عشـاء آل سـالي الفاخـر في القريـة ١٦ الـذي أعـدوه لي ولسـعد اللـه .. أخذنـا بأطـراف الأحاديـث بيننـا ..

الجوع كافر

هـذه العبـارة لم تـرد في حديـث نبـوي وإن كان معناهـا صحيحـا .. وليـس شرطـا أن يكـون قائلـه قـد عـانى مـا عانينـاه في داخليـة عكاشـة مـن جـوع .. مـا كنـا نعانيـه يتنـافى

مـع كل حقـوق الأطفـال وحقـوق الإنسـان .. بـل وحقـوق الحيـوان .. ولاشـك أن الحكومـة كانـت تـوفي بالتزاماتهـا حيالنـا .. ولكـن بعـض النفـوس جبلـت أن تكـون خسيسـة .. أمـا أهلنـا فـما كان يعنيهـم مـن الـذي يـسرق قـوت أبنائهـم .. ولا يهمهـم أن يعرفـوا .. فقـد كان الفقـر يهـد حيلهـم .... ولم يكـن ليتجـاسر منهـم أحـد فيجـأر بالشـكوى إلا مـن بـه رمـق مـن معرفـة ، أو يسـنده مـال .. كخـالي عثـمان نكـولا .. ولكـن كـثر مـن يشـتكيهم .. وكـثر إيداعـه السـجن .. ولم يكـن يعـرف الوسـائل الناجعـة في مثـل هـذه الحـالات .. فأوراقـه كلهـا كانـت فـوق الطاولـة .. وقبـل أن يغـادر (مسـتر بـن) مديـر مركـز حلفـا بلادنـا علَّـم كل المسـئولين كيـف يتصرفـون .. وهـو صاحـب الحكمـة الذهبيـة : (حتـى الميتـين في القبـور ينتظـرون منـك الفاتحـة) ..

ولابـد للنـاس مـن أن يتصرفـوا .. أمـا أنـا وصديقـي عبـد الرحيـم محمـد عـلي فقـد اكتشـفنا أن المسـافرين في قهـوة عكاشـة يخلفـون وراءهـم أحيانـاً بعـض مـا لم يستسـيغوه في زادهـم .. المشـكلة أن كلاب الحـي كانـت تعـرف ذلـك .. وهـم طلقـاء .. فنذهـب لنجلـس قريبـاً مـن القهـوة في أطـراف المقابـر .. فـإذا تحـرك المسـافرون نحـو (اللـوري) انطلقنـا نحـن بدورنـا نسـابق الريـح .. والـكلاب ..

وكاد الغيـظ أن يقتلنـا ذلـك اليـوم إذ لم نجـد شـيئا .. فرجعنـا نلعـن المسـافرين !! فجـأة أشـار صديقـي عـلى بلحـة فـوق قـبر .. فانطلقنـا نحوهـا .. وأمسـكت بهـا بـكل قـوتي .. وأمسـك بخناقـي الكُلبـاوي الـشرس وهـو يتميـز مـن الغيـظ : أنـا الـذي رأيتهـا أولاً .. قلـت في بـلادة : وأنـا الـذي أمسـكت بهـا قبلـك .. وبـدأ الـصراع بـين المقابـر مـن أجـل البقـاء .. ولم ينقذنـا إلا (يـو هُنَّـة) وأظنهـا أخـت (يـو بطـة) .. فصلـت بيننـا .. بـل وأعطتنـا (طماطمايـة) كاملـة .. لا أذكـر مـا مصـير البلحايـة !!

لمـا تقابلـت مـع صديقـي عبـد الرحيـم في الريـاض .. وجلسـنا في مطعـم النيلين بالنسـيم .. بدعـوة كريمـة منـه .. قلـت : تتذكـر يـا .... ولكنـه سـبقني بنفـس الجملـة .. وضربنـا معـاً الخشـب !.. سـحب كرسـيه إلى الـوراء أثنـاء تنهيـدة سـحب فيهـا قـدراً هائـلاً مـن الأكسـجين .. وقـال : أمـان الجـوع مـا كافـر ...

تهانينا للناجحين ..

وما الذي يمنعك أن تنجح أيضاً ؟!!:

يظـن بعـض النـاس أن الشـهادات هـي التـي تكفـل للإنسـان النجـاح في الحيـاة .. وعندئـذ يتوقـف النجـاح علـى الحصـول عـلى هـذه الشـهادات .. ومـع ذلـك فكثـير مـن النـاس تلقاهـم في حياتـك .. بسـطاء .. لم ينالـوا حظـاً كبـيراً مـن التعليـم .. ولكنهـم يذهلونـك بمـا يملكـون مـن حكمـة ومعرفـة .. ومـا أكـثر الذيـن ننهـل مـن علمهـم ونقـرُّ لهـم بفضلهـم مـع أنهـم لم يحصلـوا عـلى ألقـاب علميـة .. اذكـر منهـم العقـاد والشـعراوي ... لقـد كان نجـاح هـؤلاء وغيرهـم لـشيء آخـر .. ويمكـن لـكل منـا أن يحققـه .. وهـو نفـس مـا يحتـاج إليـه الناجحـون في حياتهـم العلميـة .. إنـه :

- تحديد الرؤية .. وضوح الرسالة .. المثابرة لتحقيق الهدف .. توظيف كل الامكانات لذلك ..

يعني : ماذا تريد أن تكون ؟ ماذا تريد أن تحقق ؟

إذا حـددت إجابتـك .. مـا الـذي يمنعـك مـن تحقيقـه ؟ طالمـا حققـه آخـرون غـيرك .. لم تكـن إمكاناتهـم في الغالـب أفضـل مـما تملـك .. الفـرق أنهـم وضعـوا مـا يريـدون تحقيقـه نصـب أعينهـم .. ووظفـوا كل إمكاناتهـم لتحقيقـه .. وثابـروا واجتهـدوا .. فلـماذا لا تفعلـه أنـت أيضـاً ؟ لمـاذا تبحـث عـن شـماعات ومـبررات لعـدم نجاحـك .. إذا ناقشـتها بتجـرد سـتجدها مـبررات واهيـة ؟ لمـاذا تشـتت جهـودك هنـا وهنـاك ؟ تمسـك اليـوم موضوعـاً ثـم تنتقـل إلى غـيره .. لمـاذا تركـز اهتمامـك عـلى مـا يمكـن أن يقولـه النـاس عنـك ؟ ! ثـق إنـك لـن تـرضي كل النـاس .. فإرضاؤهـم ليـس في الإمـكان .. النـاس ليـس لهـم وقـت أو اهتـمام ليسـمعوا مـبررات فشـلك .. النـاس فقـط يصفقـون للناجـح .. فلـماذا لا تنجـح ! ولكـن دعـك مـن التفكـير في تصفيقهـم .. فإنهـم أحيانـاً يصفقـون لأن غيرهـم صفقـوا .. وقـد يصفقـون مجاملـة .. وقـد يصفقـون لتجديـد نشـاطهم .. وقـد ...

المهم أن تتأكد أن لكل نجاح مهره .. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم .. وكذلك لكل نجاح عثراته في البداية .. فإذا تعثرت .. لا تهتم ماذا قال الناس عنك .. فقط .. انفض ثيابك مما علق به من تراب .. وواصل المسير ..

وتهنئتي لمن حالفهم من شبابنا النجاح هذا العام .. وأسأل الله تعالى أن يحقق أمانيهم فيما يسعدهم ويسعد أمتهم والإنسانية جمعاء ..

خربشات على جدار الذاكرة

الحـق ، والحـق أقـول ، لا أدري مـا سر هـذا العنـوان ، فهـو غريـب حتـى عنـدي ، ولا أدري لم جسَّـمت الذاكـرة وصنعـت لهـا جـداراً !! وفي ظنـي أن مصفوفـات الذاكـرة كالبريـد الالكـتروني ، مـا تقـادم مـن رسـائله لا تجـد لـه أثـراً .. بـل هـي أشـبه بالأرانـب البريـة ، عليـك أن تصبر عليهـا حتـى تصطادهـا ، إنهـا لا تجـري منـك حتـى تختفـي ، بـل تبعـد عنـك كلـما تقدمـت إليهـا بمقـدار ؛ وكأنهـا تسـتفزك .. وفي التنزيـل صـورة الـذي ﴿ يَحْسَـبُهُ الظَّـمْآنُ مَـاءً ؛ حَتَّـى إِذَا جَـاءَهُ لَـمْ يَجِـدْهُ شَـيْئًا ﴾ إنـه بزيـد مـن عطـش الظـمآن .. وللسـبب نفسـه يلجـأ العسـكر في الإدارة الداخليـة فيأتـون بالميـاه البـاردة ويصبونهـا أمـام مـن كتـب عليهـم العقـاب ليحرقـوا أعصابـه !!

والخربشـة عـلى الحيطـان تضايقنـي ، وأعجـب مـن أولئـك الذيـن يمـلأون بعـض الجـدران (بتذكاراتهـم) حتـى غـدت كأنهـا لوحـة سرياليـة ..

ولفظـة الخربشـة (وكذلـك الخرمشـة : في اللغـة الفصحـى بمعنـى إفسـاد العمـل والكتـاب ونحـوه أو عـدم إحكامـه ، وفي اللغـة المعـاصرة تعنـي آثـار أظافـر القـط ونحـوه) وهـي تذكـرني بالقطـط ، وبينـي وبينهـا ود مفقـود منـذ طفولتـي .. ومـن عجـب أن غالـب كوابيـسي قطـط سـوداء تخربشـني فاتقيهـا بالبطانيـة ، فاسـتغيث صائحـاً بمـن حـولي بـلا جـدوى .. تبـاً لهـا مـن حيـوان يسـمونها مجـازاً بالأليـف .. بـل أَلِفـتُ ألا أواصـل طعامـي إن جاءتنـي (تحكحـك) في سـاقي .. وكلـما شـاءت الأقـدار أن أدرس قصيـدة أبي الطيـب في مـدح بـدر بـن عـمار ، ووصفـه للأسـد الـذي قتلـه .. لا أجـد امامـي غـير صـورة قـط شرس، يقـول :

أَلْقَى فَريسَتَهُ وبَرْبَرَ دونَهَا وقَرُبْتَ قُرْباً خالَهُ تَطْفِيلا

ما زالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِحتى حَسِبْتَ العَرْضَ منه الطّولا

ومـن رأى قطـاً وهـو يفـترس الفـأر ، تأكـد أنـه والأسـد مـن فصيلـة واحـدة .. ومـا سـارت أمامـي قطـة عـم إدريـس في أبَّهـة ووقـار .. إلا توعدتهـا سراً أن أرميهـا بحجـر .. والعجـب أنهـا كانـت تعـرف متـى يـشرب عمـي الشـاي .. فتـأتي في خيـلاء وتجلـس أمامـه متربعـاً ، فيطعمها ويسـقيها .. فتتجـه إلى أقـرب (حتـة) بـاردة .. وتـروح في سُـبات عميـق ...

في خواطـري هـذه لا أريـد أن أشـبه نفـسي بالقـط .. ولكنـي أريـد بهـا اسـتفزاز ذاكـرتي قبـل أن تمحـو مـا عليهـا .. أو يضربهـا فايـروس النسـيان .. لكـم مـودتي ..

تذييل :

عندما أكتب أشعر إني أسيطر على الموقف .. فأنا والورق .. ومعي القلم .. لا أسأل عندئذٍ ماذا أكتب .. فإذا أردت أن تكتب فلا تفكِّر في الكلمات والجمل .. فكِّر فقط في موضوعك .. ركِّز انتباهك فيه .. لا تحاول أن تبهر قارئك بأسلوبك .. لكن حدِّد من تريد أن توصل إليه رسالتك .. حاول أن تشركه بحماس في قضيتك .. ضعه أمامك .. ناقشه .. حاول أن تقنعه ..

هل يمكن أن أنجح من أول مرة ؟! بدلاً من هذا السؤال راجع بهدوء تام ما كتبته .. أبحث عما ينقصه .. رتِّب معلوماتك .. قدِّم .. أخِّر ... حتى يكون كلامك متطابقاً لما تريد أن تقوله ..

كان خالنا أبو سليم (رحمه الله) يملي عليَّ بعض أبحاثه .. ويطلب مني فقط أن أسجل ما أقدر أن أسجله من كلامه .. ويبدأ في الإملاء .. وتمضي الساعات .. وليس عليَّ أن أقاطعه أو أناقشه .. مهمتي فقط تسجيل ما يمليه عليَّ .. عندما اقرأ الكتاب في صورته النهائية يأخذني العجب .. فالمعلومات هي المعلومات .. ولكنها تأخذ شكلاً جديداً : اسمه (أسلوب أبو سليم) .. ونكهته .. وبهاراته الخاصة ..

لكن هذا معناه أنه كان يعرف موضوعه تماماً بكل تفاصيله ..

فإذا أصبحت الفكرة عندك واضحة تماماً فاكتبها بأسلوبك ..

كنا حضورا في سركمنتو

عندما تتنافس النساء لمقالدتك.. فاعرف أنهن احبابك.. عماتك.. خالاتك.. صديقات العمر من أهلك وعشيرتكم.. من لعبن معك في طفولتك..

استقبلتنا في باب الزعيم شيبة الخالة يو حليمة تتقدمها شلالات الفرح الطاغي.. ولا تنتظر بنت عمتك وبنت خالتك : عواضة وفايزة أن اتخلص من أحضان يو حليمة فيفتحن تيار الاشواق ويرفعن ايديهن لمصافحتك.. ونهضت أستاذة الجميع ست رقية بكل امجادها ورهق السنين لتكون في صف المستقبلات بحفاوة الاهل ومعزة الجيرة.. وتقدمت الحييات بنات هؤلاء وأولئك أو زوجات ابنائهن لياخذن دورهن في التحية خفرات.. ثم أقبلت زينة الزينات وعروستنا بكل حلاوتها.. كما أظن.. فقد كانت

محجبة هذه المرة ولا يرى منها حتى يديها.. تقودها وزيرتها زهرة المدائن سليلة آل حاج..

المشكلة اني أواجه أكواما من الانفعالات المتضاربة.. فقد دخلت عرين الزعيم لتسليم هدية العريس لعروسه كما سلمني مربي الاجيال الأستاذ بدري ابو طه..

و ينتابني شوقي للبيت وأهله : علي بشرى جالسا في مصلاه عن يمين الباب للداخل.. وعزيزة العزيزة في دهليزها اقصد دهريسها من الباب القبلي.. وزيرهم القديم البارد شرابه..

شوقي لكربين فوق وتحت.. قبلي وبحري.. شوقي لشجرة الليمون أمام بيت الأستاذة وان لم أجدها.. (الارتن كدي) الذي اختفي ليكون ضمن صالون الزعيم الحضاري ومرتعا لجلساته وسهراته الخاصة مع الخاصة.. وكذلك اختفت المضيفة..

أن شوقي يمتد إلى يو سيبة (وما زلت مشتاقا لها وعندي لوعة) أراها الان وقد مدت رجليها أمام البيت وتستمتع بونسة بابة ليلي الرائعة كروعتها.. شوقي لنادي كربين الخرافي بحضور اساطين الونسة : يو عواضة وعم مطر وبقية الشلة.. وعم علي جارة ويو عواضة كلودة.. و... و....

لقد اشتبكت الأمور وتداخلت ملفات الذكرى وانا ارى ابنة العم بنات شتلة تقاوم عواطفها وصحتها لتقف مرحبة بي (وبصديقي اللدود سعيد الذي يدعي أنه لا يسلم الا كبيرات السن.. ويزعجني بعض استثناءاته..) ولا تجد شتلة الا كتفي لتستند عليه فاتهاوى بجانبها جلوسا..

هل ابكي.. هل اقهقه ضاحكا.. هل اخفي دمعات تكاد تفر من عيني..

ويسألنني عما استند عليه من العصا الابنوسي.. فأقول لأبشر للجميلات.. وتقول إحداهن ضاحكة : ومن يبشر لنا..

اما الرجال والشباب فتسمع لحركتهم في الصيوان وحوله ازيزا.. قلوبهم بيضاء نظيفة كجلاليبهم.. عممهم فوق.. أصواتهم قوية واضحة.. أجد في مصافحتهم عناء.. فقد نسوا اني هرمت.. ولم أعد احتمل الوقوف طويلا..

عندما تسمع صوت الزعيم مجلجلا في ترحيبه لضيوفه وأصدقائه تعرف ان الدنيا ما زالت بخير.. واقبلت الوفود من كل حدب وصوب مهنئين يشاركون الزعيم افراحه.. جاءوا من كل السكوت ومن وادي حلفا وجاء وفد عبود وارنتي بسبائط الرطب

الشـهي.. ولم يسـعهم خيمـة أفـراح سركمتـو رغـم اتسـاعها إلا بالمضايـرة.. ولكننـا اسـتمتعنا باللقـاء ، وغنانـا المغنـون ؛ فسـعدنا مـن عـلى البعـد.. ونزلنـا إلى حيـث الصهريـج ومـضرب المـشروع الزراعـي وأتعبنـا المـشي عـلى الرمـل .. ولم يفسـح لنـا الشـاطئ مكانـا للنـزول إلى النهـر العظيـم.. ولم نتعـر لنبـترد.. ودفعنـا سـعيد للصـلاة ، ولنلحـق بركـب المهنئـين فعدنـا إلى الصيـوان.. ومـا أكـثر مـا يمكـن أن يقـال..

بعض من توضيح :

لقـد كان مـا سـطرته عـلى عجـل بعضـاً مـن تقريـر قدمتـه للسـلطات العليـا.. لأنهـا غابـت عـن مرافقتـي لأول مـرة منـذ أكـثر مـن أربعـين عامـا.. لكنهـا سـلطت عـليَّ أخوهـا الشـيخ سـعيد.. فكتـم أنفـاسي.. ليتـك رأيـت معـي شـلالات الفـرح الطاغـي على أهـلي وهـم يعـبرون عـن مشـاعرهم دون رتـوش.. لا لي .. ولكـن لوليدهـم العائـد .. لا تكلـف في شيء .. لا حقـد لا أضغـان.. لم تدنسـهم المدنيـة.. ولم تفسـدهم مظاهرهـا.. بسـطاء ولكنهـم أعـزة.. شـامخون.. ينادونـك بـلا ألقـاب.. لا يعـيرون لآثـار الزمـان وتقلباتـه عليـك.. يرونـك طفلهـم المدلـل.. أنـا بينهـم محجـوب .. وكفـى.. إنهـم أهـلي وأهلـك.. أمهاتنـا ، خالاتنـا ، عماتنـا ، أخواتنـا ، بناتنـا.. واذكـر مـن الرجـال مـن تشـاء.. إنهـم مـن يجعلـون للقريـة بهاءهـا وشـموخها ونكهتهـا.. قلـت مـا قلـت.. وأنـا شـديد الاعتـزاز بهـم.. وإن جـاء دون مـا ثـار في داخـلي مـن تيـارات الشـوق والحنـين.. دون أن يعـبر عـما أمّلـت مـن التعبـير عنـه.. وتقولـون لي أبدعـت!! اذهبـوا إليهـم لتعرفـوا معنـى الإبـداع..

عفـوا اخـي أبـو شـهاب.. لقـد أشـعرتني كـم أنـا وشـبابنا مقـصر .. فنسـيت أن أرفـع لـك شـكري وتقديـري عـلى مـا اتحفتنـي بـه مـن صـادق قولـك ومشـاعرك.. فتقبله واعـذرني..

تجربتي للغناء

لم أكـن في شـبابي معجبـاً بمطـرب محـدد .. عنـدي بعـض أغنيـات أدنـدن بمطلعهـا أو بمقطـع فيهـا ، بصـوت منخفـض .. بعـد أن أتأكـد أنـه لا يوجـد بقـربي أحـد .. فـلا آمـن أن أصـدم أحـداً بصـوتي (الجميـل) .. يكفـي أن أذكـر منهـا الأغنيـة التراثيـة (مـلاك) ..

ومـن طرائفـي معهـا أننـي وبعـض شـباب قريتنـا كنـا نشـارك أهلنـا في قريـة دال رقصـة

الألِّي [٢] وكان مطربنا الفنان الكبير محمد مختار (رحمه الله) ، وآخرون لا أدري كيف كانوا يجدون الشجاعة لتقديم عروضهم .. أو من الذي أقنعهم أنهم يمكن أن يقدموا ما يسمى غناءً .. زال عجبي لاحقاً لما سمعت بعضاً ممن يطلق عليهم لقب الفنان الكبير ..

كنا يومئذٍ في المدرسة الوسطى .. وجرت العادة أن يبدأ الكورس تكرار المقطع الأول معاً .. ثم يستقيم للمطرب الغناء حيال الايقاع والتصفيق المنغم وضرب الغناء حسب طلبه أو نزولاً لما يطلبه المستمعون في الحلبة .. وهذا ما حدث ذات ليلة .. ولكني فوجئت أن صوتي وحده هو الذي ظهر جلياً .. وأن الكورس يردد بعدي .. فرددت حتى يستلم مطربنا الراية .. ولكن يبدو أنه كان مقلباً .. فقد انسحب المطرب من الصف .. وبدأت الزغاريد المشجعة (مبتهجة بميلاد فنان جديد) تملأ الساحة والآذان .. فانسحبت بدوري .. وبدأت محاولات التشجيع والإطراء لأدائي الممتاز .. ولم أعد أكرر ثانية ..

حتى محاولات إثبات الشخصية في رقصنا العنيف (الألي) في تلك السن طلقتها بالثلاثة بعد أن وجدت نفسي ذات ليلة مظلمة وحدي في منطقة خلوية في دال أيضاً .. ذلك أن التعب : حركة ورقصا ، جعلني في أثناء وقفة الزفة في تلك المنطقة أن أغمض عيني .. ولعلي شعرت بما حولي من السكون المطبق .. فاندفعت واقفاً بانزعاج وخوف قاتل .. ولم أعرف وجهة الزفة .. فبدأت أنادي بكل قوتي .. وإذا بي اصطدم بطفل يستيقظ باكياً .. قبل أن أسأله تأكدت من شكل رجله [٣] .. تبعته متردداً .. ولما وصلت مكان الفرح كان الناس قد قضوا على الوِدَّا [٤] بما يتضمن من الأسلي والبلح واللقمة .. ولمصيبتي من العشاء ..

وفي صيف ٧٧ [٥] وفي أيام السيل عندما قصدت أن أشارك في الألي .. بعد صفقتين رفعت رأسي فإذا بجانبي اثنان من تلاميذي .. فكتمت رغبتي .. وانسحبت إلى حيث ينبغي أن أكون .. واكتفيت من الغناء بقول المطرب (أعاين بعيوني .. بس بعاين) أو كما قال ..

ولكن تشجيع صديقنا الدكتور يحيى (رحمه الله) وخالنا الصديق سيد حاج ..

---

٢ - نوع من الايقاع يتم بالتصفيق مع ضرب الأرجل على الأرض / وقد يصحبه غناء المغني وترديد المجموعة ، وقد يؤدي أحدهم كريرا معينا فيردده كذلك المجموعة ..

٣- لما كنا نسمع أن للشياطين أرجل كحافر الحمار ..

٤ نوع من الفشار من حبوب الذرة ، ويقدم مع البلح واللقيمات وبعض قطع اللحم في طبق لتكريم الضيوف في الأعراس خاصة ..

٥ - قصدت زيارة قريتي للوقوف على أحوال الناس بعد أن اجتاحتها السيول ، وكنت يومها معلما في مدرسة صواردة المتوسطة .. وقد صادف وصولي حفل عرس الإخوان فتحي عبدان وبدري عبد الرحمن ..

وجـو القاهـرة الـذي يفـرض عـلى النفـس الفـرح والبهجـة .. لم اسـتطع أن أتمالـك نفـسي ، وأتفـرج كعـادتي فقـط ، وأنـا أرى أمـام عينـي حشـود الروعـة وشـلالات الفـرح الطاغـي [٦]..
ترى هل لتلك السويعات من عودة !!..

رقصة الكِرِّي

كلمـة (الكِـرِّي) : الصفقـة المعروفـة التـي نعتمـد فيهـا عـلى إصـدار الصـوت مـن الداخـل ، ويبـدو أن أصلهـا مـن كلمـة (الكريـر) العربيـة ، ففـي لسـان العـرب : الكَرِيـرُ صـوت في الصـدر مثـل الحَشْرَجَـة وليـس بهـا ، وكذلـك هـو مـن الخيـل في صدورهـا .. وقـال : والكَرِيـرُ بُحَّـة تَعْـتَرِي مـن الغبـار ..والكَرْكَـرة صـوت يـردّده الإنسـان في جوفـه .. والكَـرّ : الحبـل الـذي يصعـد بـه عـلى النخـل وجمعـه كُـرورٌ ..

وقـد أبـدع في (الكـري) جماعـة في دال ، وإن كان يعجبنـي أسـلوب حسـن خليـل ، وقريـب منـه أسـلوب أحمـد كبـدي في سركمتـو .. والكـري كان يحتـل في حفـل الغنـاء الفواصـل الأولي حتـى يدخـل الليـل فيسـتلم أهـل الغنـاء .. وكان يعجبنـي منهـم قديمـاً أداء دهـب دلـوشي ..

ولكـن أجمـل كـري رأيتـه كان في بدايـة السـتينات .. وفي (دشـنة) بالـذات .. ويـو أريـن حبـي [٧] بصفـة أخـص .. وفي أول ليلـة بعـد نصـب الكـري ، (وهنـا بمعنـى الراكوبـة) تقـدم رؤوس القـوم .. قمـم شـامخة .. أرقـام لا يمكنـك أن تتخطاهـا وأنـت في سـيرة سركيمتـو أذكـر منهـم جيـداً : أبـو ادريـس .. أبـو شـايق .. عبيـدي سـلامة .. و ... و (سرور) كان نجـم الرقصـة الافتتاحيـة .. وبـدأ الرجـال .. وارتفـع صـوتٌ تهتـز لـه الجبـال .. وضربـات الأرجـل كمطـارق الحديـد ترسـخ معـاني العـزة والرجولـة ، وسـكت الجميـع ، واشرأبـت الأعنـاق .. فاندلفـت يـو آمنـة (مـن دال) سـاحرةً الأعـين والقلـوب .. تميـد بقدهـا كـما البانـة رشـاقة وفتونـا .. وانتـشرت خصـلات شـعرها الوديـك لتجـد مرتعـاً خصيبـاً عـلى رؤوس الرجـال .. فيتحـول الكريـر فحيحـاً .. والأنفـاس لهيبـاً .. وقطـرات المـاء بلـوراً ..

وعلا فوق صدى الطبل الكرير ... كل جسم جدول فيه خرير

---

٦ - وكان ذلك في عرس قريبتنا نعمة محمد سيد وكذلك في عرس صديقنا محمد سيد حاج وعرس قريبتنا نجمة في أيام متتابعات

٧ - الحبي : التهاب في الجلد يصحبه طفح جلديّ وبثور ، فيعزل المصاب في بناء خاص ويعالج ليلاً بكشط البثور لوضع الدواء ثم يغطى الجلد بالطين .. ويستمر العلاج ٤٠ ليلة ، فإن لم يتم واصلوا ٤٠ أخرى .. ويجتمع الناس كل ليلة أثناء العلاج لتسليتها بالغناء والرقص الجماعي ، خارج البناء (الراكوبة)..

فحسدتها النساء .. وقديماً كان في الناس الحسد .. أو أردن أن يأخذن من الانبهار المعلن جانباً .. فتوسط الحلقة فلانة وفلانة .. وتثنين .. وتأنين ، في خفة الطيف يرقصن وقد حبست منا الأنفاس والعيون منبهرين ننظر اليهن بابتهاج ..
الآن حبوبات .. ومنهن من أسأل لها مع الأحياء منهن الرحمة ..

حفلة عرس!!!
حسين ألالا ..

سمعت أنه غنى في عرس عثمان تجريدة .. كنت في الداخلية .. وغنى في بيتنا بكربين أكثر من مرة مع صديقه سيد إدريس ، الذي يفتخر بقرابته للمشرانجي .. أسألوا عنهم ناس (مري) .. ويكاد يبكي امتناناً لما صنع به أهل سركمتو لما احترق دكانه في عبري .. ولم أحضر لحسين في سركمتو إلا حفلة كاربة في بيت سيد القطار ..
لكن جماهير حفلة عرسي في الكلاكلة استمتعوا بليلتين مشهودتين يغنيهم حسين .. بصوته وأدائه المميز ..
أول معرفتي به لما ذهبت وصديقي العلامة محمد عبد الوهاب إلى عبري لتدشين قوافل الطلاب إلى السكوت ، والتبشير بمشروع (اتحاد السكوت) .. وكان حسين ألالا هو الذي يحيى الحفلات ويعيش معنا في داخلية عبري الوسطى .. وكلفنا أنا والبرف أن ننطلق إلى عمودية كوشة .. ولم نجد وقتها (عربة) تقلنا إلى سركمنو .. فركبنا أرجلنا (حداشر خ .) .. وكان ما كان ...
ثم عينت في مدرسة صواردة الوسطى .. وما كنت استطيع أن استمر فيها لولا قريبنا عبد الله عوض الله وأريحيته .. فما أن يأتي نهاية الأسبوع إلا وأجد راحلة فارهة تقلني إلى حيِّهم في (دفيتود) آخر صواردة .. ويصدف كثيراً أن ننتقل إلى (عبود) حيث صديقيه حسين وسيد إدريس .. أو يأتوننا في دفيتود ؛ فنسعد بفواصل من الونسة الظريفة .. وقد يتخللها بعض الغناء .. وقد نُدعَى إلى حفلات الأعراس يغنينا فيها حسين بمزاج عالٍ .. أذكر منها حفلة في (إرَوْ) .. وفيها التفت فجاة نحوي أثناء إحدى فواصله .. وسألني أليست فلانة ... هي التي ترقص ؟ .. فقلت له : أنا محجوب .. قال في حسرة : وما الذي أجلسك في هذه اللحظة جنبي !؟
الحقيقة إن الأمر كان يستحق .. فقد كان الرجال يهدرون .. سرابيلهم تتنزى عرقاً

.. وتتقطع أنفاسهم وأيديهم بالتصفيق بلا هوادة .. وكأنهم يقومون بقداس يقدمون فيه أنفسهم قرباناً .. وهي تسيح أمامهم .. وتنفتل .. وتتطاير .. وتنزل برأسها إلى الخلف فيغطي شعرها الساحة .. وننزل بقلوبنا معها .. فإذا هي تقفز كغزال شرود .. أو كراقصات الفلامنكو شموخاً وأنفة .. تتمايل بجسمها الأعلى يميناً وتتركنا لتكون في الجهة الثانية ...

ليلتها .. ليلتها داعبت حسيناً .. قلت له : حقو الواحد يتم نصف دينو ... قال : وعليَّ أن أحيي لك حفلة الحنة والعرس صباحي .. وما تخاف مجاناً .. لما ذهب إليه سعد الله ومن معه في بيت أخيه حسن للاتفاق على احياء حفلة عرسي .. كان قد سبقهم غيرهم للاتفاق معه لاحياء حفلاتهم .. كان يقول ، وهو لا يعلم أن صاحبي ينتظران دورهما : عفواً .. فأنا مضطر لاحياء ليلة لواحد مولانا .. مع أنو لن يفكر حتى في عشانا .. أعمل إيه !! دا ندر عليَّ .. وقد كان .. أسأل الله تعالى أن يرحمه ويغفر له ..

لكن جماهير حفلة عرسي في الكلاكلة استمتعوا بليلتين مشهودتين يغنيهم حسين .. بصوته وأدائه المميز ..

أول معرفتي به لما ذهبت وصديقي العلامة محمد عبد الوهاب إلى عبري لتدشين قوافل الطلاب إلى السكوت ، والتبشير بمشروع (اتحاد السكوت) .. وكان حسين ألالا هو الذي يحيى الحفلات ويعيش معنا في داخلية عبري الوسطى .. وكلفنا أنا والبروف أن ننطلق إلى عمودية كوشة .. ولم نجد وقتها (عربة) تقلنا إلى سركمنو .. فركبنا أرجلنا (حداشر خ .) .. وكان ما كان ...

ثم عينت في مدرسة صواردة الوسطى .. وما كنت استطيع أن استمر فيها لولا قريبنا عبد الله عوض الله وأريحيته .. فما أن يأتي نهاية الأسبوع إلا وأجد راحلة فارهة تقلني إلى حيِّهم في (دفيتود) آخر صواردة .. ويصدف كثيراً أن ننتقل إلى (عبود) حيث صديقيه حسين وسيد إدريس .. أو يأتوننا في دفيتود ؛ فنسعد بفواصل من الونسة الظريفة .. وقد يتخللها بعض الغناء .. وقد نُدعَى إلى حفلات الأعراس يغنينا فيها حسين بمزاج عالٍ .. أذكر منها حفلة في (إرَوْ) .. وفيها التفت فجاة نحوي أثناء إحدى فواصله .. وسألني أليست فلانة ... هي التي ترقص ؟ .. فقلت له : أنا محجوب .. قال في حسرة : وما الذي أجلسك في هذه اللحظة جنبي !؟

ليلتها .. ليلتها داعبت حسيناً .. قلت له : إنَّ من حقي أن أكمل نصف ديني ... قال : وعليَّ أن أحيي لك حفلة الحنة والعرس حتى الصباح .. ودون مقابل .. لما ذهب إليه سعد الله ومن معه في بيت أخيه حسن للاتفاق على احياء حفلة عرسي .. كان قد سبقهم غيرهم للاتفاق معه لإحياء حفلاتهم .. كان يقول ، وهو لا يعلم أن صاحبي ينتظران دورهما : عفواً .. فأنا مضطر لإحياء ليلة لشيخ .. مع أنه لن يفكر حتى في تقديم وجبة العشاء لنا .. أليس من الواجب أن نفي بالنذر !!.. وقد كان .. أسأل الله تعالى أن يرحمه ويغفر له

بلدي ..
في حبك بهاتي

لا أحد يستطيع أن يقنعني أن بلدا أجمل أو أحسن من قريتنا إلا إذا رأيت غيرها .. وتجردت مما يربطني بها أهلا وتاريخا ولسانا .. وأين لنا بشخص فيه هذا القدر من الجفاء ليقطع جذور هويته وينسى مراتع صباه ، ولا يرعى حرمةً لبلد ترعرع في ثراه .. وغذَّاه هواؤه .. وأظله دوحه .. وأنضجته شمسه ..

لست أنا ذلك الجافي ..

وَمَا أَنا بالدَّاعي لعزَّة بالرَّدى ... وَلَا شامتٍ إنْ نعلُ عزَّة زلَّت

فواللهِ ثمَّ اللهِ مَا حلَّ بعْدَهَا ... وَلَا قبلَهَا من خُلَّةٍ حَيْثُ حلَّتِ

وكنا قديما .. (ونحن في المرحلة المتوسطة في منتصف الستينات) نحفظ لشوقي مسرحيته الشعرية قيس وليلى .. كانت النية أن نقوم بتمثيلها في قريتنا .. فيها يقول شوقي على لسان قيس:

جبل التوباد حياك الحيا ... وسقى الله صبانا ورعى

فيك ناغينا الهوى في مهده ... ورضعناه فكنت المرضعا

وعلى سفحك عشنا زمناً ... ورعينا غنم الأهل معا

هذه الربوة كانت ملعباً ... لشبابينا وكانت مرتعا

كم بنينا من حصاها أربعاً ... وانثنينا فمحونا الأربعا

وخططنا في نقى الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وع

وقليل من شبابنا اليوم عاش مثل الذي قاله شوقي .. وقد شعرت ذات يوم وأنا أقف على حدود (سيانيري) بعد طول غياب أنها تناديني .. واندهش مرافقي يومئذٍ (الزعيم أبوشيبة) لما أجهشت بالبكاء .. ولم تسعفني الكلمات لأبرر له سبب ذلك .. ترى ماذا تذكرت في تلك اللحظة .. ومع ذلك كنت في عجلة من أمري لأعود إلى الخرطوم !!! وما أكثر الذين تركوه وراء ظهورهم ليعيشوا في بلاد لا تمطر إلا هماً ..

ترى ما وطن الانسان ؟ ..

نبي الأمة بأبي هو وأمي ونفسي .. وقف على مرتفع يوم هاجر يخاطب مكة : « مَا أَطيَبَكِ ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ أَخرَجُونِي مِنكِ ما سَكَنتُ غَيرَكِ » وأتيحت له الفرصة ليعيش بين جنباتها بعد فتح مكة .. ولكنه عاد أدراجه إلى المدينة وعاد معه أصحابه .. وكان إذا قدم من سفر فأبصر طرق المدينة أسرع بناقته .. وإن كان على دابة حركها من حبها ..

ويعجب بعضنا قول شوقي :

وطني لو شغلتُ بالخلدِ عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي..

وكان آباؤنا يعيشون كل حياتهم في جنبات أم الدنيا وكبريات المدن العربية .. ثم يعودون بكل آلام الروماتيزم إلى أمهاتنا فيرحبن بهم .. ويذبحن لهم في الغالب تيساً ..

أنا أعرف لماذا أحب قريتي .. فهل كذلك أبنائي ممن ولدوا وتربوا في أحضان الغربة.. وليس لسانهم بلساننا ؟ !

هذا السؤال جرَّ لي ذات يوم مشكلة ، وما زالت لها بعض أصداء في قلبي .

ترى من الذي قال قبلي : عندما تختلف اللغة بين متحاورين ، فلا تتوقع أن يفهم أحدهما الآخر . ؟!

من نشاط الشباب

مواصلة فيما كان من النشاط الشبابي في سركمتو مما يعلق بالذهن لطرافته أو لصلتي به .. لاسيما وقد كان لنا شرف قيادة النشاط أكثر من مرة بعد أن تحوَّل الجيل الذي كان قبلنا إلى العاصمة للدراسة أو لطلب المعاش .. فخلا لنا الجو ..

وكان نشاط الشباب محموماً في أوائل السبعينات.. حتى إننا فكرنا أن ننافس

مدينـة عـبري ليحـق لنـا تحويـل مركـز الشـباب إلى سركمتـو .. ومـا كان لنـا أن نحقِّـق مـا نريـد إلا بمزيـد مـن النشـاط .. وتزامـن ذلـك مـع إنشـاء سـوق بالقريـة (بالقـرب مـن النـادي) .. وكان السـوق متكامـلا يرتـاده النـاس مـن أماكـن بعيـدة .. وتفنَّـن النـاس فيـما يقدمونـه فيـه .. اذكـر منهـا الفـرن الحديـدي بـإدارة المعلـم عبـدان والعـم عـلي جابـودة .. وتفننـت النسـاء في تقديـم مشـغوليات نسـائية وصناعـات قوميـة وخاصـة المـربى اللذيـذ .. وينـادي عـم عبـاس دحيـة بأعـلى صوتـه : السـوق رحمـة .. السـوق رحمـة .. ولكـن للأسـف لم تسـتمر السـوق طويـلا ..

ورأينـا أن مـن مقتضيـات التنافـس أن نقيـم حفلـة ضخمـة في سركمتـو احتفـالا بأعيـاد مايـو المجيـدة .. وندعـو لهـا المسـؤولين مـن دنقـلا وعـبري .. ولقـد كان .. وقـد اسـتطعنا أن نسـتغل هـذه المبـادرة بمطالبنـا لإعـداد النـادي بـكل مسـتلزماته مـن راديـو ومسـجل ومكنـات خياطـة ورتايـن وملابـس رياضيـة وكـور .. ولم يقـصِّر عمـر كتائـب في توفـير كل مـا طلبنـا تنفيـذا لأوامـر عليـا .. مـع أنـه كان غـير مقتنـع بولائنـا للثـورة .. مشـكلته أنـه أيضـاً يفـسِّر موقفنـا اليـوم خطـأً .. فـإذا فسرنـا ضيعنـا كَرْتنـا ..

ثـم فكـر الشـباب وللغـرض السـابق نقـل نشـاطهم إلى مناطـق أخـرى فكانـت رحلـة (ألْ بَـلي) المشـهورة ، والتـي لم تنجـح كـما كنـا نتوقـع لخطئنـا في التوقيـت ، واندفاعنـا لتحقيـق قناعاتنـا دون تبـصُّر لجوانـب أخـرى جديـرة بالنظـر مهـما كان موقفنـا صحيحـاً في نظرنـا نحـن .. وكدنـا بسـببها أن نختلـف نحـن (الشـباب) فيـما بيننـا لـولا أن تداركنـا بُعْـد نظـر الكبـار بقيـادة حكيـم سركمتـو عـلي حافـظ وشـيخنا الأسـتاذ أحمـد عبـد الرحمـن .. وآخريـن مـن دونهـم .. نذكـر منهـم بعرفـان وتقديـر الأخ محمـد يـس فقـد كان دوره كعادتـه كبـيراً لتـلافي المشـكلة بـين الطرفـين .. ذلـك أن حسـم القضيـة كان يقتـضي كـما حكـم الكبـار أن تدفـع لجنـة النـادي غرامـة ماليـة مقدارهـا جنيهـين ونصـف (إذا لم تخنـي الذاكـرة) وكانـت حجتهـم أن لجنتنـا كانـت سـبباً في الاختـلاف بـين شـباب القريـة ؛ لفشـلنا في إقنـاع مـن اختلفـوا مـع مبـادرة اللجنـة ، وإنـه كان ينبغـي أن نلغـي الرحلـة بسـببهم .. ولمـا رأى عـم عـلي أننـا مـصرون عـلى الرفـض أراد أن يدفـع مـن جيبـه نيابـة عنـا فبـادر محمـد يـس بذلـك .. وقـد يكـون غـيره الـذي دفـع .. لسـت متأكـداً ..

وعـدتْ سـحابة الصيـف كعادتهـا بـين أفـراد الأسرة الواحـدة .. وانقـضى الصيـف نفسـه .. فرجعنـا إلى مدارسـنا نحمـل بـين جوانحنـا قـدرا عظيـماً مـن الانتـماء للقريـة ..

خارج القوس :

كانـت قضيـة مـشروع رحلتنـا إلى صـاي ؛ واحـدة مـن أهـم التماريـن الديمقراطيـة التـي مـرَّ بهـا شـباب سركمتـو .. صحيـح أنـه كان تمرينـاً صعبـاً .. ولكنـه كان ضروريـاً .. فالاختـلاف سُـنة جاريـة .. ولكـن المهـم كيـف نسـتفيد منـه ونوظفـه لصالـح المجموعـة .. وصحيـح أننـا تجاوزنـا تلـك المشـكلة بسرعـة .. لكننـا كنـا بدأنـا نمـارس الديمقراطيـة بطريقتنـا الخاصـة التـي ألفناهـا مـن أهلنـا .. فقـد كانـوا يختلفـون للصالـح العـام إلى درجـة الشـتائم أحيانـاً .. فـإذا تحركـوا مـن المسـجد .. دفنـوا كل شيء وراءهـم .. إنهـم - ويشـهد اللـه - فاقـوا قـول الشـاعر العـربي (أظنـه البحـتري):

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

إذ لم يحـترب أهـلي لـشيء عـام أصـلاً .. والبيـت الواحـد لا يحتـاج أفـراده لمـن يذكرهـم بالقـربى .

إنهـم كانـوا دائمـاً (سـوا) وإن شـاركنا أهلنـا في دال الصفـة .. فـما حـدث أن اختلـف أهلنـا قديمـاً ولا حديثـاً في أمـر.. أمـا الشـباب فـما اختلفـوا إلا ليكونـوا أكـثر تلاحـماً بعـده .. ولا أعـرف لهـم في تاريخنـا القديـم خلافـاً إلا مـا ذكرنـا .. أمـا في الحديـث ؛ فقـد التأمـت الجـروح وأصبـح تاريخـاً .. وقـد وعينـا الـدرس .. واكتشـفنا أننـا أحـلى وأجمـل ونحـن أسرة واحـدة ..

لنبدأ الحكاية ..

كان لابـد لنـا أن نزيـد مـن مسـاحة نشـاطنا لا لنقنـع الكبـار بـل لنضـع بصمتنـا في خارطـة المنطقـة .. لثقتنـا بقدرتنـا كشـباب (وكنـت يومئـذ واحـدا منهـم) وثقتنـا بأننـا لنكـون في الواجهـة لابـد لنـا مـن إيمـان كافٍ بمـا نقـدِّم .. ولابـد لنـا مـن تضامـن (أي العمـل بـروح الفريـق : لا رئيـس ولا مـرؤوس) خاصـة ولأنهـم - ويبـدو أنهـم مـا زالـوا - كالحلقـة المفرغـة لا تعـرف أيهـم المقـدم .. ولأنهـم مميـزون ؛ لأنهـم مميـزون .. مشـكلتي دائمـا : لمـاذا نـرضى بـأن نكـون المرتبـة الثانيـة مـا دام في إمكاننـا أن نكـون في المقدمـة .. ولهـذا لا يعجبنـي قـول الشـاعر :

إنْ تُبْتَـدَرْ غايـةٌ يَوْمًـا لمكْرُمـةٍ تَلْـقَ السَّـوابِقَ منَّـا والمُصَلَّيـنَـا

لا أريـد أن آتي إلا سـابقاً كالخيـل لا مصليـاً..

كان تركيزنا في المسرح ، ربما لوجود فرق مقنعة في أدائها الرائع ، مثل فرقة غرَّم بقيادة سيد شباب رحمه الله وكان أداؤه مذهلا في أدواره المختلفة وخاصة عندما يقلِّد والده الشيخ أحمد .. وتجلى صديقنا الأستاذ عبد الرازق في التمثيل .. وكان أداء الطفل تاج الدين عجيباً ..

وكانت فرقة شفان بقيادة سيد حلاوة نداً قوياً لشباب غرم .. وقد أجاد أبو السيد في تقليد جدته يو حبيبة باقتدار .. والعتب على غربال ذاكرتي فقد سقط منها ثلة من الرائعين ..

وكانت سركمتو كلها تقريباً تقضي معنا ليالي الخميس ..

الغريب في الأمر أننا لم نشتهر في تلك المرحلة من أوائل السبعينات في الغناء .. كانت فقرة الغناء آخر الفقرات .. ولا يكاد ينتظرها أحد إلا اضطرارا ..

هذا لا يعني أن من يؤرخ لهذه الفترة ينسى أبو دوية ومحمد عبيدي ومحمد مختار وآخرين من دونهم شاركوا مرة أو أكثر أثناء صخب الألي .. واذكر إنني عملتها مرة بعد أن ورَّطني محمد مختار .. ولم أعد لمثلها أبداً حتى بيني وبين نفسي ؛ إنكارا لصوتي .. وعلى كلٍّ لم يشتهر مطربونا كأقطاب التمثيل ممن ذكرنا إلا في مرحلة أخرى .. وما يزال روائع محمد مختار وهيمي وفاطمة تأخذ بالألباب .. وكذلك كثر المؤدون .. منهم من نضطر للتصفيق له ومنهم دون ذلك .. ومنهم ....

يوم سكت علي حافظ !!

اذكر إننا كنا في حفل وصول (دُنقُل) من مصر .. ليلتها اصطف الناس جلوساً في حلقة كبيرة ، وبدأت المحاكمة .. مجموعتين من المتهمين : الأولى أطلقوا يدهم ، وانطلقوا بمعدية سركمتو بدون إذن الريس لحضور حفل راقص في قرية دال .. والمجموعة الثانية أطلقوا يدهم ، وتعدُّوا على زرع محروس (أي كان محمياً) في أطراف القرية ..

وكان شيخ البلد يومئذ عبد الرحيم توفيق .. وكانت هذه المحاكمة أول قضية ينظر فيها منذ تعيينه شيخاً على القرية قبل أيام .. وكان عليه أن يصدر حكمه .. وإذا حكم شيوخنا ، فلا رَادَّ لقضائهم من أهلنا .. ثقةً بعدالتهم .. وبُعد نظرهم ..

حتى أطلقوا على عبد الرحيم لقب (القانون) .. ولم يكن قلة الكلام في المجالس صفة خاصة فيه .. بل عرف بها عامتهم .. ولعل الشيخ عبد الرحيم لهاتين الصفتين وغيرهما هو أول من عُيِّن شيخاً بالإجماع .. فبعد أن بلغنا أنه لا يريد أن يتولى الشياخة - وكان هذا يعني أن الشياخة قد تخرج من بيت شيوخنا كابراً عن كابر - توافد الناس إلى المسجد يوم الجمعة (لمبايعته) .. كل الناس .. حتى ناس فلان وفلان ممن لم يدخلوا المسجد من قبل وربما من بعد .. ورضخ عبد الرحيم لرغبة الناس .. وكان ما كان ..

لما جلس ليلتها في حلقة القوم كانت كل الأعين مصوبة إليه .. كلهم آذان صاغية .. كلهم يريدون أن يعرفوا كيف سيتصرف هذا الشاب .. لاسيما وأن القضية معقدة .. أتعرفون من المتهم في القضية الأولى !! إنه ابن أكبر صوت في مجالس القرية كلها .. أنه حسن علي حافظ .. لم ينتظر الناس طويلاً بل جاء صوت الشيخ الشاب حاسما ، مخاطباً عم علي : أنتم كبارنا .. وعيب على مثلي أن يحكم في مجلس فيه أمثالكم .. ولعل عم علي كان متوقعاً ما سيقوله الشيخ ومهيئاً للتصرف بمقتضياته .. فأصدر أمره لفتاه أن يجلس أمام الناس في وسط الحلقة .. فجلس الفتى كما أُمِر بكل أدب .. بادره أحدهم : يا حسن .. أأنت فعلت ما نسب اليك ؟ قال وبأدب شديد : نعم .. اعترف .. واعترف أني غلطان .. تنفَّس الناس كلهم أجمعون (الصعداء) إلا عم علي !! .. فهو وحده الذي لم يرفع وجهه عن الأرض .. لأول مرة .. بل ولآخر مرة تفتقد سركمتو صوته في المجالس .. ولم ينقذنا إلا صوت آخر : إذن قم من أمامنا .. فانسحب حسن ..

ولا اذكر ما الحكم الذي صدر على المجموعة الثانية لتعديهم على الزرع المحمي..

من حكمة أهلنا : أن من يعترف على نفسه يصبح كجهينة التي قطعت قول كل خطيب ..حتى ظننا أن ذلك فروسية وشهامة .. ولم نعرف في حسن طوال حياته إلا الشهامة والتفاني في خدمة الناس والبلد .. والتشبه بوالده فروسية ووضوح موقف .. اللهم إني أشهد له بذلك ..

فيما بعد ، وفي طابور الصباح في مدرسة صواردة الوسطى .. خاطب مدير المدرسة تلاميذه - لما أحدث بعضهم شغباً : تأكدوا يا أبنائي إن كل واحد منكم مرآة أهله .. ومن خلال هذه المرآة نعرف أهلكم .. فاعملوا حسابهم .. الغريب أنهم صفقوا له .. لكن نزلت مني دمعتان : ترى هل مثَّلت أهلي بما يحبون !!هل مثلتهم بما يشرفهم ويرفع رأسهم !!

هدم النادي

فكر أهلنا أن يوقفوا نشاطنا في النادي .. بل وأراد بعضهم أن يهدم النادي بحجة أن النادي أصبح بؤرة فساد .. وأن الاولاد والبنات يتلاقون فيه .. وكان السبب المباشر أن أحد الشباب سخِر في إحدى فقرات سهرة الخميس من الظريف أبو الحديد .. وأغضب ذلك كثيرا من أهل القرية ، ولهم الحق .. المهم أننا كشفنا بالصدفة ما بيَّته الكبار حيال النادي .. وكان التوقيت لاتخاذ الموقف الموحد هو يوم الجمعة .. كانوا على ثقة بأن الشباب سيكونون في تلك اللحظة في قرية دال المجاورة لشياختنا لحضور حفل عرس .. لكننا تخلفنا وتجمعنا (لجنة النادي وآخرون) خفية في دار عم عبد الماجد .. ثم تحركنا نحو المسجد .. فلما صلوا وبدأوا في مناقشة القضية فوجئوا بنا ونحن نجلس بينهم .. دفاعنا كان بسيطا وموجزاً .. قلنا لهم : إن من بينكم من يحضر كل نشاطنا .. ونقبل به حكماً .. كان من نعنيه هو عم همد .. وكان يجلس كعادته خارج سور المسجد مع آخرين .. عندئذ اعتدل عم همد وقال بطريقته الخاصة : قالوا أن الشيخ الهضيبي ذهب إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، ورفع إليه ما وصلت إليه أخلاق النساء ، وما بلغنه من تبرج وفجور ، وأن ... ثم قال : أتدرون ما كان رد عبد الناصر بعد أن قاطعه !؟ .. وقف ، وقال : ليكن كلّ فرد مسؤولاً من سلوك أسرته وبناته ..

ورجع عم همد إلى اتكاءته الخاصة .. لم يسأله أحد تفسيراً .. ولما تحركنا نحو قرية دال ، كان كبارنا قد انفضوا .. تخيلنا أن بعضهم أضمر في نفسه : إن همد جودة لن يستطيع أن ينقذنا إن أخطأنا مرة أخرى .. ووعينا الدرس بعدها فتوسعنا في دائرة نشاطنا داخليا وخارجياً ..

وديل أهلي ..

تمرين اجتماعي

كان عرس شقيقتنا الأثيرة : حياة أبوها (اللهم اغفر لها وارحمها) فرصة لشاب مثلي ، حينئذٍ ، في غياب الوالد ؛ أن يقوم بواجبه الاجتماعي خير قيام ، فتحركت مع أسرتي تلقاء القرية تسبقني أشواقي لها .. ولم أضيع بعد وصولي لحظة لأي أمر آخر غير ترتيب المهمة التي جئت من أجلها .. وبدأت في التخطيط : الذبائح ، دعوة الناس

، الطحين ، الحطب ...الخ وأثناء استغراقي في مناقشة هذه التفاصيل الدقيقة نادتني الوالدة .. والقت تعليماتها في اختصار : خد معك صديقك إدريس .. وتذهبوا مباشرة لأرسير .. وليس عليك إلا دعوة أهلنا للحضور للفرح .. وقد كان ..

غاظني في ارسير أنهم لم يناقشوا معي شيئاً .. وكأنهم قالوا لي بلغة الإدارة : (عُلِم) .. فقفلنا راجعين .. وفي نفسي شيء ..

اليوم الثاني أقبلت أرسير بقضها .. بقيادة شيخنا المهيب أبو أدريس .. ولم ينسوا شيئاً مما يعينهم لتجهيز المكان لاستقبال الناس واحتياجات العرس .. فقلت في نفسي : إذن لتكن قيادتي في تحضير مراسيم العقد .. ففوجئت بالمأذون الشاب (بكري بسيلي) قد أقبل في ركب فركة .. فقلت : لا بأس .. إذن لأتهيأ لأخذ مجلسي وكيلا عن شقيقتي .. نادتني الوالدة للمرة الثانية على انفراد : الواجب أن تدعو عمك سيِّد ليكون الوكيل فهو كبيركم (وكان رحمه الله قد وصل لتوه من وادي حلفا).. فإذا وافق .. شُر عليه أن يكلف شيخ البلد ، فهو كبيرنا .. وطبعاً شيخ البلد سيكلف بدوره عم خضر فهو كبيرهم ..

لما بدأت في التنفيذ الفوري سُرَّ عمي لتكليفه ورحَّب كثيرا بتكليف الشيخ بنفسه ، فلما وصلنا إليه شاور بدوره على عم خضر .. وكان حينها يجلس عن يمين المأذون ..

فيما بعد قلت للوالدة : ألم يكن الأنسب أن نكلف عم خضر مباشرة ؟ قالت باختصار : اعتبره درساً لك في فهم شئون البلد .. ما زلت حتى هذا التاريخ اجتهد ..

قبل سنوات كنت في معية صديقنا الدكتور أحمد جمال ؛ لحضور احتفال أهل السكوت به بعد إبعاده من الوزارة .. وفي سركمتو نصحتنا الوالدة : أرى أن تبدأوا زيارتكم بشيخ البلد .. هذه المرة لم أسألها السبب فهو من المعلوم بالضرورة .. إذ كان لابد لابن جمال أحمد داؤد أن يبدأ بزيارة ابنة عمه .. ضحكت الوالدة : ألم أقل لكم أنكم لم تتعلموا بعد طبائع أهلنا.. إن من يزر بلداً .. عليه أن يبدأ بكبارها ..

ومن هنا أرفع التمام لشيخنا الهمام (أبو أحلام) ولاءً ومحبةً ..

نجاح بالغش

عندما تقدمت لأجلس أمام لجنة الامتحان الشفوي في القرآن الكريم في جامعة أم درمان الإسلامية ، أوشكت أن أتراجع وأعود على أعقابي ، إذ لم تقتصر اللجنة على ثلاثة من العلماء كما هي العادة ، بل انضم إليهم في آخر لحظة الشيخ ود العبيد (رحمه الله) وآخر ، ووقفا بجانب الشيخ المحيسن المقرئ المشهور ، والشيخ عبد

العظيم الخياط وآخر ، فكيف أتجاسر علي هذه الكوكبة من العلماء بحفظي الكليل ولساني الأعجمي ، إنهم لاشك سيعدون عليَّ أنفاسي ، ولن أنجو من سخرية بعضهم ، وتقريع شيخ النحو ود العبيد .

وأوشكت أن أنجو بجلدي لولا رقة أحدهم في ندائي : تفضل يا بني .. وقد كان .. وبدأت في غاية الاضطراب والوجل أقرأ كما طُلب مني .. ولم أكد أقرأ بضع آيات ..إذا بي أشعر هزة خفيفة تعتري بعضهم .. ولم أعرف لذلك سبباً .. غير أن شيخنا ود العبيد والشيخ السوداني الآخر لم يعتريهما ما أصاب غيرهما .. فتوقفت فجأة عن إكمال التلاوة .. ثم أعدت تلاوة الآية نفسها .. فارتفع صوت الشيخ المحيسن : لم أعدت التلاوة ؟ قلت متلعثماً : قرأتها أولاً على رواية ورش ، ثم أعدتها لكم على حفص .. فإذا بالشيخ ينهي الجلسة بقوله : أحسنت .. أحسنت !!

فخرجت من القاعة ، وأنا لا أكاد أصدق أن كذباً يمكن أن ينجح طالباً في امتحان القرآن الكريم ، إذ لم أكن أعرف عن رواية ورش إلا أنها قراءة بعض شيوخنا في دنقلا ، ولست متأكداً إن كان في منطقة دنقلا من يقرأ بها في يومنا هذا .. سألني شيخنا ود العبيد بعد أيام : أأنت من دنقلا ؟ فترددت قليلاً ، حتى لا أجيبه خطأ بالإيجاب ، وقبل أن أجيبه طفق يمدح أهل دنقلا ..

ولم يكن للشيخ أن يكتسب ودي لمجرد أنه كان سبباً غير مباشر في نجاحي ، أو تواضعه بالسؤال عن موطني .. فقد كنت ممن يجدون عنتاً شديداً في متابعته في دروس النحو ، وكنت مخطئاً بلباسي الإفرنجي .. فما أن يرانا بهذا الزي .. إلا نظر إلينا شذراً ، أو هكذا كان يخيل إلينا لطول ما كان يسلقنا بألسنة حداد .. بل صدف أنه كان كلما رأى أحدنا (وكان قصير القامة ، كثير التعليق) رفع عقيرته بعبارة واحدة ، تخرج من فيه كالقذيفة .. وقد ملأها تفخيماً وسخرية .. كانت العبارة هي : (تبيَّن لي) .. ثم يتحول إلى استفزازه بأسئلته العويصة .. فإن لم يجب تحول عنه نحونا من الأفندية كما كان يطلق علينا بسبب لباسنا من ناحية ، ولأننا درسنا في مدارس ثانوية، لا معاهد دينية .. بل تميز غيظاً وكاد أن يضرب أحدنا لأنه لم يقف له لما مرَّ بجانبه ذات يوم .. ولكن الشيخ لما وقف أمام السبورة في إحدى المحاضرات وجد عليها بيت الشاعر :

تَبَيَّنَ لِي أَنَّ القَماءة ذِلَّةٌ وإِنَّ أَعِزَّاءَ الرِّجالِ طِوالُها

فاهتزت القاعة بضحكته الخاصة ، وهو يقول : وأخيراً ...

توجيه مفاجئ

في بداية مشواري في حقل التدريس.. ممزوجاً بعنفوان الشباب .. دخلت مدرسة أجنبية للبنات .. وأي بنات ؟ !.. بنات حركن مشاعر صديقي التجاني يوسف .. الشاعر المعروف .. فكاد أن يفتن بهن ، ويهيم بجمالهن فتغنى بحسنهن ، وأوشك أن يخرج من الملة ، وهو يقول : وعبدناك يا جَمال ... ويقول غيره ممن اكتوى بالمعاينة أنه كان متواضعاً في شعوره ، متبلداً في الإحساس .. ويزعم أن من رآهن رأى الجمال البشري كله .. وعانى الوجد كله .. إلا إذا كان ريفياً مثلي ، بلسان غير فصيح ، وسلوك غير متحضر .. غير أن صديقي أبو صلاح لاحظ ـ وإن كنت لا اتفق معه في كل ما ادعى لإغاظتي ـ أنني بدأت استخدم المنديل ، وأغير القميص كل يوم ، وأقف أمام المرآة أحياناً .. وانخفضت درجة صوتي كثيراً .. ولجأت إلى الابتسامة بدلاً من الجلجلة في الضحك بسبب أو غير سبب .. وانتظمت في مواعيدي .. بل رآني أكثر من مرة وأنا أتهيأ للخروج حتى في أيام الأحد (العطلة الأسبوعية) ناسياً طبعاً .. لكن ما اتفق معه أنني كنت أجلس الساعات الطوال لتحضير دروسي ، مستعيناً بخبرته التدريسية غالباً .. ولم أتخلف عن طابور الصباح إلا مرة واحدة : فلما طرقت الباب تلك المرة كانت المديرة من خلفه .. وانهالت تلومني بلغة جمعت بين الإيطالية والإنجليزية .. وفهمت بعد عناء شديد أن الموجه الفني مع البنات في الفصل .. ولم تشفع لي كل اعتذاراتي (بالعربية طبعاً) أن لي موعداً لابد أن أبلغه ، وأني ما جئت اليوم لأدرس .. وبدلاً من ذلك أخذتني من يدي وأسرعت بي بين الصفوف ، ثم دفعت بي داخل الفصل .. وكان الرجل حينئذٍ يصول ويجول ، وصوته يجلجل ، وما أن خطوت خطوة في الفصل إذا به ينسحب إلى كرسي بجوار السبورة ، ويفتح حقيبته الجلدية الحمراء ، ويخرج دفتره الكبير ، ويبدأ يسجل شيئاً .. فآثرت أن أتوجه إلى البنات .. وماذا يمكن أن يفعل مدرس مبتدئ في هذه الحالة .. وكيف يقدم حصة بدون تحضير .. والمصيبة أن الموجه يعد عليك أنفاسك .. ويبحث عن أخطائك .. قلت فلتكن الحصة (إنشاء) .. قلن في صوت واحد : حصة الأمس كانت إنشاء ، إذن الحصة أدب .. قلن : حصة الأدب غداً ، ولم نأت بالكتاب .. إذن (مكره أخاك لا بطل) ولا حل إلا في قواعد النحو .. وبدأت الحصة .. أقصد المحاضرة .. عندما انتهيت منها كيفما كانت طلبت أن يفتحن الكتاب ، وقلت

في زهو المنتصر : المطلوب حل التمرين الأول والثاني .. قالت سليطة اللسان : ألم نحلهما قبل أسبوعين ؟! .. وخرج المفتش .. وخرجت ..

بعد سنوات طوال .. وفي حلقة تدريبية ذكر أحد الحاضرين مثالاً سيئاً لعدم التحضير في الدرس ، وحكي قصة شبيهة بقصتي .. سألته باهتمام : ما اسم المدرسة ؟ .. كانت مدرستي .. كل الأجوبة عن أسئلتي المتعددة كانت تشير أنه يقصد حصتي .. فسألته : ما اسم المدرس ؟ قال دون تفكير : لا اذكره .. فقلت بسرعة : الحمد لله الذي أنساكه .. قال في تعجب : وما الذي يهمك من أمره ؟ قلت في سذاجة : لأني كنت ذلك المدرس ...

من طيبات العمرة

عندما توجهت في صحبة ابن خالي إلى الأراضي المقدسة للعمرة ، ما كنت أحسبني عائداً بالسرعة التي عدت بها ، ولكن إلى الرياض ومع أسرتي .. وعدت من العمرة محملاً بمجموعة من الكتب ، وشاركت ابن خالي في اصطحاب مجموعة من التفاح لم يصل منها إلى البيت غير حبتين أو ثلاثة بعد أن اعتدى عليها أحد أقربائنا في بورسودان .. ولم أزعل حينها ..ولكن لما رأيت تلهف بناتي الصغار حينئذٍ على ما وصل سالماً .. وعرض بعض قطعها على صديقاتهما أصابني بعض الغضب ، فلما استقر بنا المقام في الرياض .. باءت محاولاتي في أن يتناولا الفواكه بالفشل .. وغالباً ما تتحول إلى البرميل أمام الدار .. بل إن حرمنا المصون ما عادت تجلب لنا علب الطحنية لزوم التحلية .. بعد أن كانت تتفنن في إخفائها عن الأولاد .. أترى مثل هذه المواقف هي التي أخرجت (أستاذاً) من السودان ؟ لا أظن .. بل إن هذا الأستاذ لا يؤمن بقول أبي الطيب :

وإذا كانَتِ النّفُوسُ كِباراً تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ

بل ذهب ـ مثل غيره ـ لتحقيق ثلاثة أهداف ، وبعضهم يكتفي بالمال ، فهو وحده الذي يوفر : البيت والسيارة والحجة ! .. المشكلة أن حرمنا المصون تحولت على غير عادتها في الخرطوم إلى قسم المشتروات ، وتتحول من سوق لآخر .. ولكنها غالباً لا تشتري .. وأعود من الدوام وأجدها ذاهلة وكأنها مريضة ، ولا أظن أن امرأة تلبس بتلك السرعة إذا قلت لها ألبسي حتى نخرج .. فنطوف قليلاً على غير هدى ثم نعود وقد تهللت أساريرها .. ولم تشتك مما تعاني لأحد : بعد أن فاجأنا أحدهم بما حسبه

نكتة : قال إن أحدهم اشتكى لأصدقائه ما يعاني ، ولم يكن قد مضى غير شهور على قدومه من السودان ، فقالوا له : لا عليك ، فإن السنوات العشر الأولى تكون هكذا زهجاً.

فكانت كلما اشترينا شيئاً قالت هذا لا يصلح للسودان : حتى الكبابي ، لابد أن تكون شبيهة بما يستعمل في السودان ..

وطلعنا البر !!

عندما بشرني ابن الخالة كارة بأن الجالية كلها ستخرج الليلة في شرفكم ، وشرف وجيه فركة المبجل صديقنا فؤاد تينة وأسرته ، كدت أطير فرحاً ، فمن ناحية هي مناسبة للقاء صديقي في ذلك الزمان الجميل فؤاد بعد طول بعاد .. وفرصة أن أعرف هذا (البر) الذي يقولون عنه ، حتى حسبناه ضرورة لازمة ، ومتعة لا تعدلها متعة .. فقلت له إذن بقيت واحدة .. فلما عرف أنها الكبسة استغرق في ضحك طويل .. وخرجنا في رتل من (السيارات) الفارهة في منظوري تلك الأيام ، حتى توقفت أمام مجموعة قليلة من الأشجار بجوار شارع عمومي .. وبدأ الناس يتقاطرون من كل حدب وصوب .. فسألت مجاوري : ومتى تنتقلون إلى موقع الرحلة ؟ فاكتفى بابتسامة .. وبدأ بعضهم في تهيئة المكان .. والحقيقة أن أُنسي بالأخوة وحفاوتهم.. وحلاوة اللقاء واستعادة الذكريات .. كانت تمنح المكان كل ذلك الجمال .. هذا كان في زيارتي المقتضبة للعمرة .. فلما سكنت الرياض أدمنت الخروج .. وأصبحنا [وخاصة النساء والأولاد] ننتظر ليلة الخميس بفارغ الصبر .. ويرن في كل بيت تلفون .. ونتأكد من الموقع .. والمعالم البارزة بجواره ، ومخرج ١٥ أو ٩ أو ... ويو تيرن ، وهلمجرا .. وننتقل كل مرة إلى موقع جديد دون أن نتوقع جديداً ..

المحور الرابع :
حوار الصفوة

مقدمتي للحوار

بلا رتوش .. ودون إعداد أو تفكير .. أبدأ ردي ..

فجأة وجدت نفسي مدعواً في صالون حوار الصفوة ..

فجئت مهرولاً أدلف بأسئلتي .. فإذا بي في كرسي المسؤول ..

جئت لا أدري بأني أملك شيئاً أعطيه .. فإذا المطلوب تاريخي ولحظات حياتي ..

قلت قد يسألك الناس بشيء من مودة .. فإذا بي أواجه هذه الكوكبة من فرسان الكلمة .. من أقطاب الفكر من أحبابي وخدني وعشيرتي .. والخلص من أصدقائي ..

كنت أحيا ناعم البال .. سعيداً بحوار الآخرين .. فإذا عاشقة الجنة تضعك في منصة الصدارة حتى تجيب ..

دون أن أدري وجدتني أمام فيض من مشاعر .. سيل من كلمات الإطراء .. وجدتني وأنفاسي تتصاعد أمام هذه الباقة المونقة من عبارات العاشقة .. الزخم المتدفق من كلمات الإخوان :كفي ، كوشاوية ، د. صلاح ، ود سادة ، إيهاب ، معتصم ، فاطمة ..

من مخبرهم أيها الدرويش .. أن لا قِبَل لك بأن تقدم وينتظر الناس أن تقول .. لا قبَل لك بأن تكون محط أنظار .. قل لهم إنك رضيت بمحض إرادتك .. وما شعرت أنه قدرك أن تكون مدرساً .. رضيت أن تقدم أبناءك .. تفرح لفرحهم .. تعتز بنجاحاتهم .. وتغادر المجلس قبل أن يلتفت لك حتى حيرانك .. يزعجك أن يُرحَب بك .. يوتر مشاعرك أن يتكلم الناس عما قدمت .. لأنك أدرى بنفسك .. وبقدراتك المتواضعة .. ووبضاعتك المزجاة .. إن هي إلا كلمات ترددها وتجترها .. وها أنت تراه عاجزاً عن رد التحية بمثلها ..

إنهم أهلك وأحبابك لا بأس عليهم أن يجاملوا ..

دعوني .. وقد فاضت مشاعري .. وبلغ بي التوتر منتهاه أن ألجأ لكلمات اسماعيل حسن :

بلدي حنان .. وناسا حُنان ..

يكفكفوا دمعة المفجوع ..

يحبوا الدار ... يموتوا عشان حقوق الجار ..
يخوضوا النار عشان فد دمعة
وكيف الحالة لو شافوها سايلة دموع
....
ديل أهلي ..
دَيلَ قبيلتي .. لما أدور أفصل للبدور فصلي ..
أصحاب روحي والإحساس ..
وسافر في بحار شوقهم زمان عقلي ..
أقول بعضي ..
ألاقيهم تسربوا في مسارب الروح ..
بقوا كلي ..
ديل أهلي
محل قبلت ألقاهم
معايا معايا .. زي ضلي ..

الفرق بين معلم اليوم والامس ؟

عندما قرأت ما طُلِب مني أن أبدي فيه رأياً .. تحيرتُ .. لأن عالماً تغيرت معالمه بهذه السرعة المذهلة في بضع سنين .. لجدير أن نلهث للحاق به .. ونتخذ لنا فيه موضع قدم .. ونعدو وراء هذه الطفرة التي شملت كل حياتنا .. تغيرت وسائلنا .. تغيرت أدواتنا .. امتد سقف طموحاتنا .. لم يعد مجتمع الأمس موجوداً .. حتى ما تبقى في ذاكرتنا من عبقه تبخر .. وكيف يبقى !! وقد أصبحت القرية بلا عمدة ولا شيخ ولا كبير .. حتى تجمُّع الأسرة لم يعد يلتقي إلا في رسميات .. زواج .. وفاة .. مجرد تسجيل حضور .. كبير العيلة لم يعد له أثره .. ولا هيبته ..

قارن في حياة القرية .. أية قرية .. ما كان قبل سنوات قليلة والآن .. هل كان الأمس جميلاً .. ؟ ربما.. ولكن السؤال في أي ناحية !! لأضرب لك مثلاً .. أبي ، كان يسمى بلغة المكاتب في تلك الأيام : محمد أفندي .. يعني موظف .. له راتب .. ومع ذلك أشك أني كنت امتلك جلابيتين مرة واحدة .. قطعاً كانوا يفصلون لنا قميصين وجلابية

.. وعليك أن تلتزم الحرص بأقصى درجاته .. أو سمِّه (شطارة) .. ولهذا كنا ننتظر العيد بفارغ الصبر .. وخاصة الكبير .. ولا تنسى أننا كنا لا نرى اللحم إلا فيه .. إلا إذا أسعفنا الحظ بموت كبير.. أو زواج .. أو سفر معتبر أو عودته ..

أخي عوض كفي .. أخشى أن توقظني من كابوس الذكرى إلى ما سألت عنه .. عندها سأقول .. إن منهجاً لا يواكب عصره لا يستحق أن يبكى عليه .. إن منهجاً لا يجيب عن تطلعات أمة ويرسم لها خارطة الأمان ، ويحقق لها الحياة الكريمة .. ويأخذ بيدها لارتياد آفاق الغد المأمول ويفسح له مجالاً بين الأمم لا ينبغي أن نسطر فيه حرفاً ..

متوقع أن تقول : وهل المنهج الجديد يحقق ذلك ؟ فأقول : لست متأكداً من ذلك .. ولكني متأكد أن ما تسميه جديداً عفى عليه الزمن عند غيرنا .. ومع ذلك أحسبك ستتفق معي إن قلت : أن المنهج الجديد لم يأخذ فرصته للتقويم العلمي .. وما تسمعه هنا أو هناك : مجرد انطباعات .. غير علمية .. بالطبع بعضها قد يكون صحيحاً .. ولكن المشكلة أن صحته غير مؤكدة ..

مثال أقدمه لك .. أحد أقربائي من الأساتذة كان لا يجد فرصة إلا وينتقد (الجماعة) .. وبالتالي ينتقد المنهج الجديد .. مع أنه (أقدم مني في التدريس .. وإن أصبح إدارياً في التعليم الأساسي) فكر هذا الصديق قبل سنوات أن يحضر لدرجة الماجستير .. واختار حسب تخصصه الدقيق مقرر الإنسان والكون .. وكل هدفه أن يؤكد أن هذا المنهج لا يصلح لتلاميذ هذا العصر .. وبالتالي يحكم على المناهج كلها .. على كلٍّ .. أعد الرجل (استبانة) علمية محكمة ، ووزعها على مختصين : موجهين للمادة ، مدراء مدارس ، معلمين .. وحلَّل النتائج .. وفوجئ بأن الجميع أكدوا أن المنهج في غاية الإحكام والدقة ..

إذن ما الإشكال ؟ قد تقول : في المدرس الذي ينفذ .. في البيئة .. في .. في .. أو كما نقول بلغة البحوث : افتراضات منطقية .. قد تقول : إن مدرس الأمس كان كذا وكذا .. وأنه أفضل من مدرس اليوم .. أشك في هذا الكلام .. ولا أكاد أقر به ..

ولكن انتظرني حتى أتفرغ لك .. ولهذا السؤال الجوهري .. فقد يساهم تشخيصنا معاً في بعض الحل .. ولم لا!

مقطع من الحوار

عندما وجدت إحدى الصديقات مشاركة لي أقول فيها : « وقد لا أجد وقتاً

لأبث أحبابي بما في خواطري من تأملات .. أو في نفسي من أحاديث .. أو في حقيبتي من حكاوي وذكريات ...إن إيقاع الحياة من حولنا لا يترك لنا وقتاً نتجالس فيه معاً.. (أحكليكَ وتحكي لي ..) أو كما تقول الأغنية »

كتبت تقول في مداخلتها :

كم نحن نفتقد هذا بالفعل ، وكم يجردنا العصر وايقاعه المتوتر من كل هذا الجمال والشاعرية والارتياح ، وتجردنا حتى من التفاعل مع الطبيعة ، والتزاور والتزود بنداوة اللحظات ، ورحيق الحياة الوادعة ، ورهافة الحس ، وروحانية التأمل ، وسكون الروح . تصارعنا الحياة وتغتال فينا من ألوان هذا الجمال مضامينه ، ولم تبق لنا سوى هذه الفتات من بقايا الذكريات الندية ، العالقة بالوجدان على هامش الزمن العجول. تتداخل الأزمنة فى سرعة مخيفة ، ويزيد الاصطدام بين الأجيال ، وتهرول الخطى ، وتضطرب العلائق ، وتتيه من الاقدام الطريق ، ويعم الضجيج والصخب ، وكل فى واديه لا جامع بينهم ولا انسجام ولا قلوب مؤلفة ولا طمأنينة ولا هدأة للبال ..... الله المستعان ..

أما عاشقة الجنة فكتبت :

رجاؤنا أن لا تغيب عنا كثيرا لأنه عندما تغيب.. تلحق بك كل حروف اللغة.. وتتبعك كل الكلمات.. فلا شيء بعدك يكتب..

عندما تغيب تترك وراءك كل الأشياء في حالة غياب ..

وفي حضرة جلالك يطيب الجلوس مهذب أمامك يكون الكلام......

أنا ورفيقة الدرب

قالت العاشقة:

(هناك مقولة: وراء كل رجل عظيم امرأة)

- فهل تؤمن بهذه المقولة ؟؟
- وهل المرأة في مجتمعنا النوبي تعتبر سنداً حقيقياً للرجل ؟؟
- وإذا بالإمكان حدثنا عن من كانت بجانب (لا أقول وراء) هذا الدكتور العظيم

وتداخلت أسئلة أخي حسن ، وصديقتنا فاطمة ..

فكان مما قلتُ لهم :

حسن .. وفاطمة .. وعاشقة الجنان ..

ثلاثة تشرق الدنيا بحسن حديثهم .. هم كالبدور ، وفي عين الحسود عَمَى ..

ثلاثـة عطفـت دنيـا الأثـير عـليَّ بهـم .. يجلـو الظـلام محياهـم ، ويعـذب مجناهـم .. وتحلـو ثناياهـم ومنطقهـم .

أقبلتـم عـلى مجلـسي كدعـاش الصبـاح ، بـل كنسـمة السـحر .. أقبلتـم ، وأنـا أتلفَّـت : أيـن أقطـاب البيـان ، وأركان الفصاحـة ؟ أيـن مـن تزدهـر المجالـس بحضرتهـم ؟ أيـن مـن إذا سـمعت لهـم حسـاً (أتكبكـب) وأعتـدل في جلسـتي .. وأبحـث في مفـردات التحيـة أرقها لفظاً .. وأزكاهـا عـوداً .. وأكثرهـا دقـة في ترجمـة مشـاعر الـود عنـدي ..

غالبـاً مـا أدَّعـي أن قـراءة عجلى تكفينـي لأفهـم مضمـون رسـالة .. فـما بـالي أردد النظـر فيـما تسـطرون مـرات واسـتزيد .. فأجد مذاقـاً جديـداً كل مرة ..

لاشـك أني محظـوظ بهـذا المنتـدى .. محظـوظ بصحبـة الأخيـار مـن أحبتـي وأهـلي .. محظـوظ بهـذا العقـد الفريـد من أصدقائي .. أسـتاذنا عـوض ، وأديبنا الدكتور ، وشـيخ المحفل المعتصم .. وبقيةٌ ؛ أخجل من نفسي أني لا أحيطهم عداً .. ولا أذكرهم فرداً فرداً .. فلله درهم .. محظـوظ بـأن أتلقـى هـذه الـدرر فيـما تتحفوننـي بـه .. حتى لأحسـب نفـسي عدت طفـلاً .. لا تسـكت بـكاءه قطعـةُ حـلاوة .. بـل يسـتمرئ البـكاء ، فنتيجتـه حـلاوة .. واهتـمام الجميـع بـه. وللصديقـة العاشـقة أهمـس بـأن للمـرأة عنـدي وقفـات حـب ووفـاء ، فقـد اغترفـت مـن حنـان أمـي بـركاتٍ .. وشـفقة جـداتي ، وعنايـة خـالاتي وعمتـي ، ومـن لي صلـة بهـا مـن نسـاء حلتـي والبلـدة ، وصداقـة الصديقـات مـن بنـات الأسرة ، ممـن سـعيت معهـن خلـف الغنـم وجلـب الوقـود ، وسـابقننا .. وسـبحن معنـا .. ويـوم أن فرَّقـوا بيننـا في المضاجـع .. سـاهمت لغتنـا في أن لا نفـرق بـين الذكـر والأنثـى .. جمعنـا بـين الشـقاوة والـبراءة ..ودعينـي أسـتعير مـن أبي القاسـم الشـابي بعـض أبيـات جنتـه المفقـودة :

كـمْ مـن عُهـودٍ عذبـةٍ في عَـدْوَةِ الـوَادي النَّضـيرْ
فِضِّيَّـةِ الأسـحَارِ مُذْهَبَـةِ الأصـائل والبُكـور
كانـتْ أرقَّ مـن الزُّهـورِ ومِـن أغاريـدِ الطُّيـور
وألـذَّ مـن سِـحرِ الصِّبـا في بَسْـمة الطِّفـلِ الغَريـر
قَضَّيتُهَـا ومعـي الحبيبـةُ لا رقيـبَ ولا نَـذير
أيَّـامَ كانـت للحيـاة حَـلاوةُ الـروضِ المَطـير
وَوَداعـةُ العُصفـورِ ، بـين جـداولِ المـاءِ النَّمـير

أيَّـامَ لم نَعـرِفْ مـن الدُّنيـا سـوى مَـرَح الـسُّرور
وبنـــاءِ أكـواخِ الطفــولةِ تحـتَ أعشـــاشِ الطيـــور
مســـقوفةً بالـوَرد والأعْشَـــابِ ، والـوَرَقِ النَّضـير
نبنــي ، فتهدمُـــــها الرِّيـاحُ ، فـلا نضــجُّ ولا نَثُــور

* * *

وأراكِ تسـألينني عـن الزوجـة .. إنـك بذلـك تسـألين رجـلاً رافـع الرايـة عاليـة .. وكيـف لا وهـي تشـيع في مملكتـي مـن حبِّهـا أريجـاً .. ومـن حسـن ترتيبهـا لبيـت فنـان نظامـاً .. وتكفـل عنـي شـؤون البيـت واجتماعيـات الأسرة مـا يفرغنـي لغيرهـا سـلطاناً .. وتتحمـل في صمـت انشـغالي عنهـا بضراتهـا مـن الكتـب وطـلاب العلـم ..

أحبهـا ؟ .. أعشـقها ؟ .. ممـتن أنـا بأفضالهـا عـليَّ؟ هـل تقـف ورائي أم بجانبـي أم أمامـي؟ ..

صدقـوني لم أفكـر في دلالات هـذه الألفـاظ .. ولم أقـف يومـاً في محطتهـا .. إنهـا معـي منـذ أن أصبحـتْ معـي .. وكفـى ..

تسـمع منـي مـا تحـس فيـه غـزلاً .. وتفيـق عـلى مـا تزعـم أنـه يسـمم بدنهـا .. مـرة كـده .. ومـره كـده .. والدنيـا كـده..

بـدأت معـي يـوم أن كانـت لا تجـد في جيبـي شـيئاً .. ولا في كلـماتي وشوشـة المحبـين .. ولا في تصرفـاتي تمثيـل العاشـقين .. طفولتـي كانـت أوديـة هامـدة لا تعـرف ريـاً .. فلـما عرفتهـا اهتـزت وربـت .. قلـت لهـا : هـل تقبلـين بي مـدى العمـر رفيقـاً ؟

وضعـت يدهـا عـلى سـاعدي لمـا عـبرت بهـا إلى سـاحاتي .. لمـا تصافحـت مـع وليهـا وضـع الشـيخ عـلى كفينـا منديـلاً .. وقرأنـا سـورة الفاتحـة ..

كان لابد أن نتزوج فتزوجنا .. وأن نعيش معاً فعشنا....

جـاء في تهذيـب الآثـار للطـبري عـن عمـر بـن الخطـاب رضي اللـه عنـه ، قولـه : { ليـس كل البيـوت يبنـى عـلى الحـب }

عفـواً .. قـد لا تكـون هـذه هـي الإجابـة المطلوبـة .. ولكنهـا واقعـي .. قدرهـا وقـدري .. أعمـل أيـه !!

"

الوصفة السحرية

أخي المعتصم ..

لا أدري لماذا يأتيني شيطان الشعر عندما يكون السؤال استثنائياً .. هكذا تعودت مع تلاميذي وحيراني .. وها أنا أتذكر صديقنا عمر عندما يفاجئني المعتصم بسؤاله عن الروشتة (الوصفة) السحرية .. سأله صاحبه عن مدى حبه للثريا .. فاسمع معي إجابته :

قلتُ وجدِي بها كوجدِكَ بالعذبِ إذا ما منعْتَ بردَ الشَّرابِ

وما أشد حبنا للممنوع ، فكيف إذا كنا في قمة العطش .. فإن لم يكن الماء البارد متيسراً فليكن مشروباً .. المهم موية ..

ثمَّ قالوا: تحبُّها؟ قلتُ بهراً:

عدد القَطرِ والحصَى والتُّرابِ

ولا أشك أنه كان صادقاً في تلك اللحظة .. كان كل همه الثريا .. لكنه إن تعززت عليه...

وأعرضت عنه .. يضطر إلى أن يقول عنها :

سلامٌ عليها، ما أحبتْ سلامنا فإن كرهتهُ فالسلام على أخرى

رسالته واضحة : إنها لا تشكل له هماً ، إنها مجرد محطة..

وهي نفسها لما سمعت أنه تزوج بدأت تهذي بما ليس في قلبها :

خبروها بأنني قد تزوجتُ فظلتْ تكاتمُ الغيظ سرا

ثمّ قالتْ لأختها ولأخرى جَزَعاً: لَيْتَهُ تَزَوَّجَ عَشْرا

وأشارتْ إلى نساءٍ لديها لا ترى دونهنّ للسرِّ سترا:

ما لقلبي، كأنه ليس مني وعظامي إخالُ فيهنّ فترا

من حديثٍ نمى إليّ، فظيعٍ خلتُ في القلبِ من تلظيه جمرا

ما أكثر ما نقول .. ما أكثر ما نجزم .. ويعترينا ما يعتري الناس من ضعف ومن قوة .. ولكنا حينئذٍ لا نكذب .. ولكنا نتجمل .. كثيرون سيتذكرون رواية إحسان عبد القدوس ، وتمثيل أحمد زكي .. لقد صوَّر الكاتب كيف نلبس لكل حالةٍ لبوسها .. كيف نتفنن في إقناع الآخرين بما عندنا .. كيف نحاول إعطاء الآخرين انطباعاً حسناً عنا بغير ما نحن عليه في الواقع .. قدراتنا ومواهبنا نبرزها في تحسين صورتنا .. نحمل

معنا مجموعة من الأقنعة .. مع الشيوخ شيخ : كلمات منتقاة .. ووقار عجيب .. وبين الشباب شباب : أناقة وشياكة .. وقاموس من شاكلة يا فردة .. ويا حبة .. وهلمجرا .. مثقف بين المثقفين اختيار مفردات وتنميق عبارات غالباً لا نعرف لها معنى .. المهم يقول علينا مثقف ..

لكننا أحيانا معذورون .. يوم خدعنا أنفسنا أن هذا ما يريده مَن حولنا . . وأيضاً المجتمع يقول ببساطة : (كُلْ ما يعجبك ، والبس ما يعجب الناس)

سألت ابنتي : لماذا اخترت هذا اللون ؟ قالت ببساطة : إنها الموضة .. ولعلها لم تستوعب سؤالي : إلام تنتمي هذه الموضة ؟ ! ونسيت قول شوقي : والغواني يغرهن الثناء .. ومع ذلك جاء في ديننا الحنيف عن علاقة الرجل بامرأته، وحرصه على دوام المودة بين الزوجين أن رخَّص لهما ما لم يرخص لغيرهما، فأجاز شيئا من الكذب كما أجاز في الحرب والإصلاح بين الناس، وقد روى ذلك الإمام مسلم في صحيحه عن أم كلثوم بنت عقبة : ((أنها لم تسمع رسول الله ﷺ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ : الْحَرْبُ ، وَالإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.)) وتكملة للوصفة السحرية ، اقرأ معي هذه النصوص .. وقارن في صمت :

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[سورة الروم ٢١].

والمرح يجدد النشاط، ويقضي على الرتابة والملل، فقد قال رسول الله ﷺ : ((رَوِّحوا القُلوبَ سَاعةً فَساعةً)) أي أريحوها بعض الأوقات من مكابدة العبادات بمباح لا عقاب فيه. وقال علي رضي الله عنه أجموا [أي :أريحوا] هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان أي تكل ..

ولقد كان الرسول ﷺ يداعب أهله ويمازحهم، فامتلأت بيوته ﷺ بالمرح والسعادة ؛ فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي ﷺ فِي سفرٍ ، قالت : فسابقته فسبقته على رجليَّ ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني ، فقال : « هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ«

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب .. وأتعرّق العرْق وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ) (العرق : العظم الذي عليه بقية من اللحم.)

وفي الصحيحين عَن عائشة - رضى الله عنها – قالت : رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد ، حتى أكون أنا الذي أسأم ... «

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إني أحبُّ أن أتزيَّن للمرأة،كما أحبُّ أن تتزيَّن لي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ . وقال ابن الجوزي: «وهو المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة"

الجيل الجديد

قلت لصديق :

لا عتب عليك إن لحقت بهذه الكوكبة الفريدة التي تحيط بشيخ لا يجد غير ألفاظ يتوكأ عليها .. يحاول أن يجاريهم في إحسانهم .. فلا يجد لما يقول طراوة .. ولا لأحاديثه نداوة .. فقد فات بها عنه الشباب طراوةً ونداوة ..فاتخذ مقعدك في قلوبنا حيث شئت فلك المقام الأسنى ، ولأدبك الرفيع موقعه ومذاقه ..

اسمح لي فقط .. وبلِّغ عني صديقنا عوضاً .. أن في جيلكم خيراً عميماً .. وثمرةً قطوفها دانية .. عيبنا أنَّا لا نحسن الظن بكم .. ولا نرى إلا الجانب السلبي منكم .. أقول هذا ، وقد تهيأ لي مما أقرأ لكثير منكم في المنتديات وما أسمعه في ملتقياتكم فأرى عجباً .. أرى جراءة في الطرح .. وثقة في إبداء النظر .. وسعة في الأفق .. بينما كان أسلوب تربيتنا يجعلنا نحتفظ بآرائنا فلا نكشف منها إلا ما نظن أنه رأي من نخاطبه ، ونحسب ذلك تحرياً للأدب والصدق .. وضعنا هالات للكبار .. نأخذ بما يقولون .. ولا يقولون إلا حقاً .. وإن لم يكن كذلك .. ونترك لهم الطريق .. ولا نخوض فيما هم فيه يخوضون .. ولا نجلس معهم .. ولا يجوز لنا أن نحاورهم .. ونترك لهم حتى صف الصلاة .. وكنا نظن كل ذلك أدباً ..
اليوم يحاورني الشباب في ثقة واعتداد : أخطئ ويخطئون .. أصيب ويصيبون .. قد أكون أكثر منهم خبرة ودراية لفارق السن والمهنة .. ولكنكم أكثر صلة بزمانكم .. أكثر قدرة على التعبير ـ لا الأدبي كما أوهم به غيري ـ ولكن التعبير عما تريدون بلا خوف أو رتوش .. وليس كل جيلي معلمون .. وليس كل جيلي اعتكف مع كتبه ودراساته .. منا الصالحون .. ومنا دون ذلك .. وخلف من بعدنا جيلكم بكل ما فيه من قوة ومن ضعف .. وما أكثر صالحيكم إذا قيس بنا .. لم نحاول أن نختار منكم الصفوة كما فعلوا مع جيلنا بالتصفيات .. كان مقياس الصفوة في جيلنا من يحفظ أكثر .. من يتقيد بقوانين المدرسة وخوف المدرسين أكثر ..

عشنا كل مرحلة التعليم خوفاً ورهبا .. ونسينا أن التفوق ليس في التلقي الأكاديمي وحده .. فقط ، أرجو أن لا تنتظروا أن نشكركم .. أو نقول لكم أحسنتم إن فعلتم ما تشكرون عليه .. ويقيني أنكم ستنظرون إلى من يأتي بعدكم كما ننظر لكم .. وكما نظر إلينا من كان قبلنا ..

ويبدو أننا أخذنا بما صح عن نبينا ﷺ : ((خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم)) .. فإن نظرنا من هذا الجانب أيضاً لرأيت عجباً .. كنا على امتداد منطقنا لا نكمل أحياناً نصاب الجمعة .. ويصلي الناس فرادي في المناسبات .. وقليل من يتجرأ ليكون للناس إماماً في الصلاة .. وانظر الآن ، فترى في شبابنا عجبا.. فلماذا لا ننظر إلا لأفراد قليل شأنهم .. ضعيف خطبهم .. وفي كل جيل طالحيه ..

وعفواً للإطالة .. ولكم أن تفندوا ما في كلامي من عوار .. فهو قول ..

دمع ووحدة وفرح

وصديقة تسألني عن دمعتي وعن حالات وحدتي وفرحي وغضبي ؛ فأجبتها :

رغم بساطة مفردات ما سألت عنه ، لكنه يلح على البحث عن دواخلي وأعماقي .. والناس عادة لا يتحدثون عن لحظات الضعف البشري ، مع أنها سر قوة الإنسان ، ذلك أن تصرفاتنا تنشأ نتيجة ما نشعر به ، وغالباً ما يشكل تلافي ضعفنا .. أو تجاوز ما لا ينبغي علينا البوح به .. بعضا مما نتخذه من مواقف أو قرارات .. فالجبان غالباً ما يدعي الشجاعة .. وتسمع البخيل فتحسبه يفوق حاتماً جوداً .. وهكذا ...

وكثيراً ما نخفي الدمعة .. ونحبس العبرات حتى لا يكشفوا عما نحسبه ضعفاً .. إلا ما كان من الشعراء.. ولكن غالب بكاؤهم بسبب ما يجدونه من الحب .. على نحو ما صرح به الشاعر:

بَكَيْتَ كما يَبْكِي الوَلِيدُ، ولَمْ تكُنْ   جَلِيداً، وأَبْدَيْتَ الذي لَمْ تكُنْ تُبْدِي

ومحجوب ، تستفزه كلمة .. أو يحرك وجدانه موقف ، فلا يغالب دمعته .. ويجد نفسه في مواقف يجد أن البكاء لا يجدي فيكتم ما يمور في داخله ، وقد تخنقه فيها العبرات .. فيرفع صوته .. ويشغل نفسه بما يوطنها من الحركة والتصرف ، أو يجعل يداه لدمعته ستراً .. وقد يستجيب إن خلا بنفسه أو أرخى عليه الدجى ستارا .. أو كان بين من يكتمون له سراً .. عندئذٍ تفيض دمعتي صبابة .. وقد أبكي عندما تهاجمني

الأفراح .. وما أشد ما تحركني مواقف في السيرة .. وقد نؤصل تأثرنا فننفعل بالتكبير.. ونادراً ما ننسى فنصفق وقد نصفِّر .. وهما المكاء والتصدية..

أما الوحدة فأحس بها ؛ عندما لا يفهمني من أخاطبه ..

وما أكثر ما أحس به من فرح .. فالدنيا لا تستحق أن نعكر فيها مزاجنا .. أو يصيبنا فيها لحظة زعل .. أفرح عندما أسمع صوت أمي مرحبة .. أفرح عندما يلهج حفيدي : جدو .. جدو .. أفرح عندما أنجز عملاً .. أفرح عندما ألتقط كلمة شاردة في عبارة .. أفرح عندما أرى أطفالاً يلعبون .. افرح ...

ولكني أغضب عندما أرى إهمالاً أو تهاوناً ....

ومع ذلك ، أخفيت شيئاً مما لا يجوز البوح به عادة ؛ فمعذرة .. ولك ودي ..

الرسم بالكلمات والنشاط الأدبي

أرجو أن لا تستغرب أن حبي للفن وأهله ؛ لأني كنت أرسم نفسي لأكون بينهم .. فخانتني الظروف .. وبحثت في طول الخرطوم وعرضها من يسلفني عشرة قروش كانت ناقصة في رسوم التقديم لكلية الفنون الجميلة .. بلا فائدة .. لما وجدتها بعد أيام .. قال المسجل ببرود: game over فبلعتها .. وقلت لأعوضها في فن الكلام .. والرسم بالكلمات بألوان البديع وصور المجاز ..

ثم سرقني الوقت .. وشغلتني زحمة المعايش .. وغصنا في أضابير المصنفات ، ولم نجد ما كنا نحلم به من لآلئ ودرر .. فجلسنا على ساحل الأوهام ونحن نقول دون أسىً أو ندم : ما كل ما يتمنى المرء يدركه ..

وكنا نقرأ فيما صح عن نبينا ﷺ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» .. وقد هُيئ لي في طريقي خير كثير .. أسأل الله الكريم أن يرزقني حسن شكره على ما أنعم ..

وإني لأذكر من طفولتي محطات .. أحسب أن لبعضها يداً فيما قدر لي من توفيق.. فقد كان لي في طفولتي بعض من (شقاوة) وبعض من (جرأة) وبسببهما كنت أتقدم لألقي كلمة أو أشارك في نشاطات المدرسة الأدبية .. وكنت أدعي أني ندٌّ لدفعتي نور الدين أحمد عبد المنان ومحمد الهادي حسن أحمد فرسي المطارحة الشعرية .. وكنت حينها أهذي بما كنا نحسبه شعراً ..

وفي مدرسة عبري الوسطى زاملت أيضاً صديقي عباس حسن كاشف وفوزي عبد

الرحيم كان عباس يغرينا بقراءة كتب آرسين لوبين ، بينما الثاني يتحفنا بمجموعة طيبة من كتب الأدب ، ويحبب إلينا أغاني الكابلي .. كان الاتفاق أن يأتي كل منا بمجموعة من الكتب ، ثم نتقاسم قراءتها ..

اثنان في عمري كنت أغّرر بهما بمناقشةٍ لا معنى لها ، وأدعي الفهم ، فيقدمان لي مجموعة طيبة من الكتب .. ولعل ذلك كان لوناً من التجنيد لجماعة الإخوان المسلمين .. أحدهما الأستاذ محمد بشارة عبد الحميد والآخر سليمان عبد السلام .. تغمدهما الله بواسع رحمته .. وأجزل لهما المثوبة ..

في المدرسة الثانوية كان يشار إلينا بالبنان لنشاطنا المكثف في الجمعية الأدبية والنشاط الثقافي في مسابقات الداخليات .. فلما تم تقسيمي في السنة الثالثة في المساق العلمي بحسب الدرجات .. أصر أستاذ اللغة العربية أن المساق الأدبي أنسب لي .. وكنت لا أهضم دروس الجبر..وودي بأستاذه فاتر .. وأتضايق من رائحة المعامل .. وتتداخل عندي الأوزان الذرية .. فوجد ما قاله هوىً عندي .. وكان ما كان .. وتحولت معي مجموعة ..

ولكن هل كل ما ذكرته وغيره كان كافياً لأن أسلك هذا الطريق !!

مشكلتي أن العمل الأكاديمي قتل حسي الأدبي وطموحاتي في أن أكون أديباً .. بدلا من ذلك ترك لي حسي النقدي .. وجعل مني موكلا بالجمال التقط ملامحه وأتتبع تقاطيعه ، وأتنسم شذاه .. أنى وجدته ..

أنا مدرك تماماً أن فضيلة الإيجاز عندي غائبة .. فاغفر لي ما تقدم من إسهابي ..

خواطر لغوية

قال لي صغيري : كيف نجمع كلمة جبهة ؟ قلت ضاحكاً : أي جبهة ؟ امتعضت أمه ، وقالت مستنكرة : وهل ثمة فرق ؟ قلت : إذا كان قصده الجماعة فالناس يجمعونها على جبهجية ، وإذا نسبوا لاسمه قالوا فلان جبهجي ، يقولها البعض ويظنه شتماً وقدحاً في الموصوف به . قالت : نحو أهل الخليج الذين يظنون في لفظ زول عيباً .. ثم قالت : فما أصل الكلمة : قلت : الجبهة : ما بين الحاجبين إلى الناصية ، أي موضع السجود وتطلق أيضاً على الجماعة من الناس ، وعلى الجماعة المؤلفة لجلب خير أو دفع شر عن قومهم ، وتطلق على الجماعة من الخيل و جبهة القوم

سـيدهم ، و جبهـة القتـال خطـوط المواجهـة بـين جيشـين ، ويقولـون : لا تفتحـوا علينـا هـذه الجبهـة . اي لا تثـيروا هـذا الموضـوع ، لما يـؤدي عرضـه لنـا مـن مشـكلة .. وجبهـة الأسـد أربعـة أنجـم في صـورة الأسـد . وعـلى ذلـك فإنهـم أطلقـوا اسـم الجبهـة الإسـلامية عـلى الجماعـة الإسـلامية . ويبـدو أن الصغـير كان يريـد أن يعـرف كيـف نجمـع كلمـة جبهـة أيـاً كان معناهـا فقلـت : جمعهـا جِبـاهٌ ، ولـك أن تدنـدن معـي بكلـمات الـسر قـدور وأداء الكاشـف العجيـب بألحـان برعـي :

ديك جدودي : جباهم عالية .. جباهم عالية .. جباهم عالية

مواكب ما بتتراجع تاني ... أقيف قدامه .. واقول للدنيا :

أنا سوداني.. أنا إفريقي .. أنا سوداني

قالـت أمـه : لمـاذا وصـف الجـدود بـأن جباهـم عاليـة ؟ قلـت : بـشيء مـن الجـد والصرامـة : لمـا يشـعرون بـه مـن عـزة وعلـو مكانـة كإشراقـة الشـمس : شـمس العـزة التـي ملـت الدنيـا بنورهـا الأكـبر .. وشـمس الإيمـان بالأوطـان .. ولهـذا حُـقَّ لـه أن يفخـر بـين الملأ , ويسـمع صوتـه مفتخـراً الدنيـا كلـه : أنـا سـوداني،،أنا إفريقـي .. أنـا سـوداني ..

قالت تستفزني : وهل يجوز الفخر ؟

قلت : ألم تسمعي للعطبراوي يملأ كل فمه وهو يردد :

انا سوداني انا .. انا سوداني انا ،

وكلنـا نباهـي مثلـه بالوطـن ونفتـتن .. نتغنـى بحسـنه أبـداً .. دونـه لا يروقنـا حسـن .. ونفتخـر

بأننا :

من نَفَرٍ .. عمَّروا الأرض حيث ما قَطَنوا

يُذكَرُ المجدُ كلما ذُكروا وهو يعتزُّ حين يقترن

و : ردَّد الدهرُ حسْنَ سيرتهم ما بها حِطَّةٌ ولا دَرَنُ ..

ولهذا فإننا نرخص في سبيله دماءنا التي كما يقول :

كالفدائي حين يُمتَحَن .. بسخاءٍ بِجُرأةٍ بقُوَى ..

لا يَنِي جهْدها ولا تَهِنُ ..

تستهينُ الخطوبَ عن جَلَدٍ .. تلك تَنهالُ وهي تَتزِنُ ..

نحن بالروح للسودان فدًى .. فلتدم أنت أيها الوطن ..

قالـت : صحيـح أنـا أتمايـل طربـاً مـع هـذه الكلـمات .. ولكنـي في الحقيقـة لا أفهـم بعـض كلماتهـا

أبنائي في خور عمر .. شكرا ..

كنـا إذا وقـف لنـا أحـد أبنائنـا مـن الطـلاب في مركبـة مـن مقعـده لنجلـس ، نبـادر بشـكره فرحـا..

وإذا مـا أوقـف سـيارته لتوصيلنـا إلى حيـث نريـد.. لا تجـد مـن عبـارات الشـكر مـا يناسـب فرحـك بتقديـره لـك..

لما رأيـت أحـد طـلابي يندفـع من باب حجـرة الكشـف ، وهو يلفـت نظري ، ويجلسـني في صـف مرضـاه ويعتـذر لي ، ثـم يتحـول فيعتـذر لمريضـه : عفـوا ، هـذا اسـتاذي.. وجـدت كل مضخـات العافيـة تندفـع نحـوي وتأخـذ بيـدي.. وتـرد لي الابتسـامة والفرح..

ومـا أكثرهـا مـن مواقـف لم نـصرف فيهـا إزاء معاملتهـم وتقديرهـم لنـا مـا يليـق مـن رد الفعـل المناسـب.. ويدعونـا لنعلـن سرادق الفـرح زهـوا وافتخـارا بنجابـة أبنائنا..

فكيـف إذا جـاءوك في دارك.. عـلى بعـده مـن المدينـة.. يتفقدونك.. ويتجاذبـون الحديث معـك في مـودة.. ويسـألون عـن حالـك ومـا بلغـه أبنـاؤك مـن مراتـب الدنيـا.. ويفاجـؤك أحدهـم فتجـد لـيده طريقـا إلى جيبـك في خفيـة..

فهـل يـلام مـن يجهـش بالبـكاء حينئـذ.. هـل تقـوى الأرجـل أن تحملـك لتقـول شـكرا فتخنقـك العـبرات..

أولئـك بـل هـؤلاء أبنـائي في خـور عمـر.. وتجمـع كوكبـة خريجيـه.. وبهـم أفخـر.. ولا أملـك إلا أن أدعـو لهـم بالخـير والسـلامة والأمـن والتوفيـق والسـداد..

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

شكرا لكم أحبابي..

تكملة :

عـادة مـا أكتـب تعليقـا لـكل مـن يزيـن مـا أكتبـه بكلمـة.. وأقلهـا الشـكر.. وقـد يجـرني التعليـق لأتنفـس مـن خلالـه مـع أحبـابي بكلـمات مترعات بمـودتي..

لأول مـرة أشـعر أن أي تعليـق يفسـد مـا يترقـرق في عينـي مـن زخـات الإحسـاس بنبـل فعـل أبنـائي.. وسـجلهم لـيس وقفـا عـلى مـا ذكـرت.. لا أملـك إلا أن أقـول إنكـم تقدمـون

أروع الأمثلة للعرفان بسخاء وأريحية.. ولا يشكر الله من لا يشكر الناس.. وليعفني أحبابي.. وكلكم خدني.. أن أعلق عليهم شاكرا.. فقد كنت منفعلا بحدث وما زلت.. كنت أريد أن أبكي فرحا وقد فعلت.. كنت أريد أن أسجل عني وعن أسرتنا من زملاء الخور تقديرنا.. وأرجو أن يكون معبرا.. لجمعكم الكريم شكري..

تخاريف مدرس خصوصي

كنت كلما جئتهم التف حولي الصغار.. حلوين بشقاوتهم.. يتباهى كبيرهم انه حفظ النشيد.. أو يحكي عن زملائه.. ويريني اوسطهم لعبته.. مرات يقول لي انظر إلى هذه الحركة.. وليس ثمة حركة.. بينما الصغيرة لثغاء لا تكاد تبين الا في شكواها من اخويها.. لا يجد الوالد وقتا ليجالسني أو الترحيب بي.. ربما لاني آتيهم في زمن عيادته.. ربما.. أما الام فتكون متوترة أثناء تسليمها الأطفال لي.. تحدثني وهي تدلف حجرة أو تخرج من أخرى .. تبحث في حقيبتها.. أو تنظر في ساعة يدها أو.. ما أكثر ما يشغل النساء أن اردن خروجا.. عرفت انهم كانوا بحاجة إلى جليس للصغار.. وانتهت عطلة الصغار.. في المدرسة الخاصة استأذنت المديرة في تلبية من ارادني مدرسا خصوصيا لابنتهم.. فضحكت.. قالت هي لا تحتاج.. ولكنهم هم الذين يحتاجون.. يجالسني ابوها في ود واحترام وكثير علم ومزيج ثقافة.. وتحدثني الام مشكلات الساعة وقضايا العصر وشيء من الفن.. فإذا أقبلت علينا الصغيرة بتنورتها القصيرة رفرف القلب بجنبي فرحا وابتهاجا .. واهتزت دواخلي وربت وانبتت فيها حدائق غناء وتدفقت انهارا من لبن وشيء من خمر.. فأقول يا قلب اتئد.. فلو قارنت لن تكسب عند القوم قضية.. وما جئت الا لأمر ما قصدوك الا له.. وانصرف مغاضبا لنفسي وانا ادندن بنشيد ميسون الكلبية وعجرفتها بعيشتها البدوية.. فعادت للبادية ..

وعدت لاحضر درسي.. واكوي بنطالي الوحيد..

المحور الخامس
كلمات في شواطئ الأحزان

دمعة
في تأبين الخال أبو سليم
في مدينة الرياض بالسعودية

شكر وتقدير

نجتمع اليوم ، ولكم جميعا الشكر والتقدير ؛ لحضوركم ، من أجل (أبو سليم)، فهو المحتفى به ، وقد كان في حياته أهلاً لكل حفاوة .

حضرنا لا لنبكيه ، وإن كان هو نفسه كما عهدناه سريع الدمعة غزيرها ، شديد التأثر لما ينزل بالآخرين من أحداث .

ولعلنا لم نأت هنا لنندبه ونتحسر على فقده ، وإن كان عزيزاً .

نعم ، فإنا لنجد لذكراه غصةً ، ولمكانه فراغاً بغيابه عنا جسداً ..

إننا اليوم نقف على ساحل رجل صمَّم أن يحفظ للسودان تراثه وصحائف أيامه ، بحلوها ومرها .. رجل ظل ينحت في صخر شديد الصلابة والقسوة أكثر من أربعة عقود ، فأسس دار الوثائق ، وأدارها كأعز ما يحدب المرء على ملك عزيز له ، ورتب وثائقها ، وصنَّفها ، وحقَّق الكثير منها ، وألَّف ما يزيد على الستين مصنفاً ، وحاضر عن تراثنا وتاريخنا ، وعقد الندوات ، وشارك في المؤتمرات واللجان العلمية ، وكتب في الصحف والمجلات ، وسافر إلى كثير من بلدان العالم يبشِّر بثقافتنا ، ويعرِّف الناس بجهد الرجال من أبناء السودان ، وما ساهموا به في ضروب الحضارة الإنسانية.

يعشق كل عمل يقوم به ، ويحتفل به أيما احتفال ، فينسى ذاته ، وينغمس فيما يفكر به تماماً ، حتى لتحسبه حينئذٍ مجذوباً ..

لقد أكدتم بحضوركم هذا أنه يستحق منا قدراً من التقدير والوفاء .. وقد تقودنا هذه الوقفة للاحتفاء بباقي الكوكبة من علمائنا الأجلاء قديماً وحديثاً في مختلف ضروب المعرفة ..

وأشـهد أمامكـم ، وباسـمكم جميعـاً أنـه لـولا نفـر كريـم مـن محبـي (أبـو سـليم) وأصدقائـه وتلاميـذه وأبنـاء منطقتـه .. لمـا كانـت لهـذه الليلـة هـذه النكهـة الخاصـة ، والاتقـان في الإخـراج ..

وعفـواً .. فـإن لهـم حقـاً عـليَّ لازمـاً أن لا اهتـم بحرصهـم عـلى نكـران ذاتهـم .. وأتقـدم لهـم بشـكري نيابـة عـن الأسرة ، وشـكري نيابـة عـن أبنـاء القريـة والعموديـة والمنطقـة .. وشـكري نيابـة عـن اللجنـة القوميـة ، وشـكري نيابـة عنكـم جميعـاً ..

واسـمحوا لي أن أخـصَّ نفـراً منكـم بمزيـد شـكرنا .. وأبـدأ بخـالي نجيـب أحمـد عمـر ، الـذي كـرَّس كل جهـده ووقتـه ومالـه لهـذا الاحتفـال .. والشـكر موصـول لأخـي حسـين حسـن حسـين ، الصحفـي اللامـع ، ومعـه جمعيـة الصحفيـين السـودانيين ، فقـد تولـوا ليلتنـا هـذه وأمرهـا بتغطيـة إعلاميـة شـاملة ، وأخـص منهـم بالشـكر الجزيـل الأخ العزيـز عـلي يـس ، الـذي شرفنـا حضـوراً ومشـاركة .. وللمنتـدى النـوبي ورواده وأمـير سـاحته صديقنـا الدكتـور حسـن الملـك ، شـكرنا وتقديرنـا . وإن جـمال هـذه اللوحـة الفنيـة الرائعـة التـي تـزدان بهـا القاعـة ، وغيرهـا مـن اللمسـات الفنيـة تشـكيلاً وخطَّـاً لتفـرض عـليَّ أن أحيـي الفنـان المبـدع مـكي عـلي إدريـس والفنـان الوديـع الشـيخ منـدق.. دون أن أنـسى إشراقـات بكـري عبـد الرحيـم ، وهـو يقـف خلـف تكنلوجيـا التصويـر والتسـجيل .. وعفـواً يـا أهـل عـبري وتبـج فقـد احتملتـم بكرمكـم الفيـاض ورحابـة صدركـم اجتماعاتنـا الكثـيرة والطويلـة في جمعيتكـم العامـرة ، فكنتـم كـما عودتمونـا دائمـاً مثـالاً للكـرم والعطاء .. وإن أسـماء بعـض شـبابنا لـترن بعنـف لأعلـن بشـكري لهـم وإعـلان حقهـم علينـا : فهـل تسـمح لي يـا أخـي عـوض دبشـك ، ويـا فتـى سركمتـو الواعـد إيهـاب .. ويـا رئيـس جمعيـة كوشـة الدكتـور مجـدي أن أشـيد بأفضالكـم عـلى المـلأ .. إن هـذا بعـض حقكـم .. وحـق أخـي الدكتـور صـلاح عـلي محجـوب ، وبقيـة الكوكبـة مـن أعضـاء لجنـة التسـيير في اتحـاد السـكوت : أن أشـكر لكـم مـا قدمتمـوه مـن جهـد ووقـت ..

ولكم أنتم يا أشقاءنا أبناء فركة ، ويا رفيق دربي فؤاد تينة كل الشكر والتقدير .

وموصـولٌ الشـكر لـكل أبنـاء كوشـة ومقركـة ودال ، فأنتـم الأهـل والعشـيرة .. وجمـع مقـدر مـن أبنـاء السـودان والمنطقـة النوبيـة بخاصـة ، وقفـوا معنـا ، وآزرونـا بمواسـاتهم ، وحدبهـم عـلى أمـر قيـام هـذه الليلـة .. قـد أذكـر منهـم شـيخ قبيلـة السـكوت

صلاح فضل ، والجغرافي الذي أمتعنا بمشاركاته ونقاشه د. حسن عبد العزيز ، والعمدة ماهر عبد الرحيم والدبلوماسي النحرير كمال أحمد داود والدكتور شريف عثمان ..

وجنود كُثر شمروا عن ساعد الجد ، وهيئوا المال والمكان منهم حسن شلبي وآخرون من دونه آثروا أن يعملوا في صمت ، فنعم العمل عملكم ..

واسمحوا لي أن أتقدم باسمكم جميعا بأسمى آيات الشكر وعظيم الامتنان والتقدير لثلة من علمائنا الأجلاء في الملتقى الثقافي السوداني وغيره .. وكوكبة من المنارات المنيرة في سماء سوداننا الحبيب ممثلة في اللجنة العلمية ، يتقدمهم شيخ المؤرخين أستاذنا ضرار صالح ضرار ، والبروفسير عز الدين عمر موسى والأستاذ الدكتور عثمان الحسن والأستاذ الدكتور يوسف مختار ، ود. عبد القادر محمود ود. مختار عجوبة ود. عباس زروق ..

ومن على البعد نحيي د. يحيى محمد إبراهيم والأستاذ الدكنور يوسف فضل ..

وباسم هؤلاء وأولئك ، وباسمكم جميعاً أتقدم بالشكر الجزيل لقادة سفارة سوداننا الحبيب ، ونخص منهم ذكراً السيد طارق عبد الله التوم ، نائب القنصل ..

وجزاكم الله خيراً

وداعاً أيها الخال العزيز

ما شعرتُ بعجزي في جمع أفكاري وتحريرها من قبل كما أفعل الآن .. وإن كنت أزعم أني أكثر الحاضرين إحاطة بما ينبغي عليَّ قوله ..

ومن الغريب اني لما كان علي أن ارثيه يوم تأبينه في مدينة الرياض وجدت الشعر أكثر حضورا لانفعالي حينئذ.. وظننت على غفلة مني أني فيما قدمته محسن..

وما أكثر المواقف التي نفتقده اليوم في أسى.. ولكن لا يحسن بنا أن نقول بغير ما يرضيه تعالى منا في ذكرى أحبابنا رضىً بقضائه..

يا خالُ ، مالي قد عجزتُ عن المقال ،

ما بالُ أودية الحديث تضيق بي ،

وتموج في صدري زوابع من حديث الذكريات ..

مَلْآى قِرابي بالشجن ، مهزوزة الألحان ، قاتمة الصور .

وأظل أبحث في زوايا الذكريات .. مساحة للقول ،

وفي ممرات المواقف لحظةً أو قصةً ، أو من نوادره المثيرة طرفة .

* * *

دعني أعبِّر عن أسىً يجتاحني منذ انتهيت إليك في لقائنا الأخير ،

لما رأيت رجفة اليدين في السلام ،

لما رأيتك صامتاً ،

لما رأيت الجبل الأشمَّ باكياً ،

لما رأيت الأسد الهصور ذاوياً .

* * *

وتدافعتْ صاخبة في حلقيَ العبراتْ ..

من أين أبدأُ الحديث ؟! ماذا أقول ؟

يا للأسى ، أنا عاجز !

وأنا الذي روضتُه دهراً ، وأجدتُه في كل حال !

علمتني يا خالُ كيف أقول ..

علمتني فنَّ الحديث ، وحسنَه ، ومتى أقول ..

فلمَ التهيبُ والذهول . ..

* * *

وأغرورقتْ عيناي بالدموع .

فجاءني ،كما عهدتُ ، صوتك المهيب واهنا :

أما تراني طيباً ؟ أما تراني قد عبرت محنتي ؟ أما تراني ...

ثم مضيت باكيا ...

وحينما تراجعت خطاي عائدا .. سمعت صوتاً واهنا :

عُدْ يا بني ..

ومضيتَ ...

نعم مضيت .

* * *

كان أول عهدي بك علقةٌ .. لأنني أطعت جدتي حين كلفتني أن أوقظك أول صباح في إحدى عطلاتك الصيفية ، فلجأت خوفاً منك إلى صفيحة فارغة أطرقها بالقرب منك .. هذا كل

ما حدث ! هذا ما أذكره عن الواقعة ، أو ما ذكرتنيه أختكم في بعض ما تؤكد به شقاوتي لما كنت في عمر حفيدها محمد الفاتح ، إن قسوت عليه ، في حضورها .

وعلقة أشد ضراوة لما تخلفت عن الخلوة .. ولم أتخلف إلا لخوفي أن تفوتني لحمة الكرامة بيمن قدومك .. ومع ذلك كنت مصراً حتى آخر لقاء جمع بيننا أن تدعوني (سيدي محجوب) كما أسمتني جدتي حباً في أسيادها ..

وخلال رحلتي معك ، ومنذ أن لجأت إلى دارك الرحبة ، المكتظة دوماً بقُصَّادك من الآل آناً ، ومن الأصدقاء والندماء ، وجدتُ من رحابة صدرك لي متسعاً ، ومن مكتبتك غذاءً ، ومن أطايب الطعام ما كنت أنافس به بنيك التهاماً ، وما أشعرتني لحظة أني لست منهم ..

وما اضطررنا في حياتك أن نعبِّر عن حبنا وتقديرنا لك ، فمن يشكُّ في هذا ! .. لقد كفانا الزعيم إسماعيل الأزهري حين دخل علينا ، بلا استئذان ، في نادي أبناء السكوت والمحس بالسجانة (النهضة لاحقاً) ، ونحن نحتفل بنيلك درجة الدكتوراه ، وقال بطريقته الخاصة : إن الأمة لأكثر فرحاً وسعادة منكم بنيله هذه الدرجة العلمية ..

ويوم أن احتفلت بك الانصار : حبس الناس أنفاسهم وهم يشاهدون رجلاً يسنده أبناؤه ، لا تكاد رجلاه تصل الأرض ، يتقدم نحوك شاقاً بصعوبة بالغة طريقه بين جموع الأنصار ، لكنه ما أن وقف أمامك دفع بعنفٍ بنيه ، وجمع كل قوته ليرفع كفه في تحية عسكرية ، ثم دار خلف دور ..

ما أكثر المواقف ، وما أصدقها بياناً لحب الناس لك . فماذا كنا نستطيع أن نقول؟!!

شقيقتك زينب كانت تجزم أن شدة اهتمام الناس بك ، وكثرة محبيك سبب مرضك ، وكذلك سمعت شقيقتك الصغرى هانم تقول ،

فأقول لأمي وخالَتَيَّ وكل محبيك : إن محبة قلوب الناس ، علامة محبة الله .. ويقبل الله تعالى قول المؤمنين في حق من يشهدون له أو عليه .. هذا ما قاله رسول الله « مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ : أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ » وقَالَ رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ ، فَيَشْهَدُ لَهُ أَرْبَعَةٌ من أَهْلِ أَبْيَاتِ جِيرَانِهِ الأَدْنَيْنَ ، أَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ منه إِلاَّ خَيْرًا ، إِلاَّ قَالَ اللَّهُ تعالى: قَدْ قَبِلْتُ قولكم ، وَغَفَرْتُ لَهُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.»

اللهم فاغفر له وارحمه ..

أبو سليم .. وأماني

والعين دامعة بما سطرتْ أماني .. والقلب مفجوع على الخال الوالد .. ومشاركة لأخي وحبيبي كارة فيما نكأ به جرحا ظننا أنه اندمل .. وتأكيدا لمتابعتنا لإرشيفه المتخم .. أرجو أن يسمح لنا بإعادة ما سطرتُه قبلا ، ونحن متعبون بكلمات الأخت الثكلى .. وهل يفي ؟! وكان مما قلت :

« عندما قرأت لأختي أماني عنوان مقالها (السابع من فبراير) كان التاريخ المذكور أقوى من أن أبحث سبباً لما أحاط بي من الانقباض ، وتوزع النفس بين دفتي الحزن واجترار الذكرى .. ولكن الأديبة المكلومة نَحَت في تناولها شِعباً جديداً وهي بين ساحلي الحزن الأليم والفرح الطاغي .. وداعاً واستقبالاً .. مضى عنها أحب الناس فذهلت عن نفسها .. وقدِم عليها في اليوم نفسه أحب الناس .. ففقدت توازنها.. لقد كان الموقف عنيفاً .. فجاء تعبيرها كما شاء الموقف صادقاً ونبيلاً .. نبضاً حياً .. ودفقة شعورية اختارت لنفسها ما يليق بها من مفردات .. وما يناسبها من عبارات ..

ولم يكن موقفنا بين شاطِئَي الحزن الجامع والانبهار بروعة الأداء مما يحيط به كلمات عزاء أو عبارات استحسان .. وخشينا في السكوت ضرراً .. وفي التعبير عجزاً .. فكان مما كتبنا : « الشعراء يعرفون كيف يواسون الكبار .. لأنهم يعرفون ما الذي يريدونه .. أحدهم قال .. هَنَاءٌ مَحا ذاكَ العزاء المُقدَّما.. لأن من عناه بالتعزية صار ملكاً عند فقد أبيه .. والسلطة مظنة النسيان .. وجفاء القلب ..

ولكن الأمر عندك يا أختاه يختلف .. فللهناء طعمه ... وللعزاء لذعه .. وما تذوقتيه في لحظات الفرح كان مذاقه حلواً .. لأنه بعثٌ بمقدار العناء .. وفيه الرجاء .. وكان الفقد رزء أمة .. فإلام تتحازين !!..

وبكينا معك .. لا مواساة .. وأنت جديرة بالانحياز إليك محبة وتقديراً .. ولكنا كنا مثلك ننتظر من يطلق عنا بركان الأسى .. ويزيح عنا كآبة الفجيعة .. وما سمعناك قبلاً إلا زدتنا حرقة .. وكذلك أدمَى نشيجُ الوالدة ونواحها منا القلوب .. وسمعتك اليوم فطيبت منا الخواطر .. وأسكنت الفؤاد هديره .. ولعلك إذ استظللت اليوم بنفحات الايمان .. وارتويت من واحة القضاء .. ولذت بعرش الرحمن : وجدت نفسك واستعدت سكينتك وطفت بنا في عوالم رحبة من الفيوضات .. فانسابت كلماتك تبرئ جروح قلوبنا .. فلك الله.. !!

أختاه ! ...

مـن النـاس مـن نحـس بفقدهـم إذا مضـوا عنـا .. ومنهـم مـن يفرضـون عليـك حبهـم وهـم معـك .. أو غابـوا عنـك .. وقليـل مـا هـم .. وإن رزئنـا فيـه بحجـم حبنـا لـه .. عفـوا .. بقـدر حبـه لنـا .. ولقـد كان عظيـماً .. ولكنـا عجزنـا أن نعـبر بقـدر إحساسـنا .. ولكنهـم قالـوا إن للشـمس سـطوة تعـشي النظـر .. وشـدة الألم تفقـد الاحسـاس .. ولعلنـا مارسـنا العجزيـن .. مـع عجزنـا في تفقـد أطـراف الـكلام .. وعجزنـا في أن نلحـق بـك .. ومـا حاولنـا .. وكيـف لنـا !! مـع طوفـان مشـاعرك .. وبـركان آلامـك .. «

وحسـبت أني طويـت معـك صفحـة .. فـإذا بـك في صفحـات كتابـك الأخـير تقدمـين لنـا نبضـات قلبـك .. زفـرة وعويـلاً .. فجـددت فينـا أحـزان فجيعتننـا .. فاسـتعدنا معـك :

- (كلمات على ضفاف أبوسليم)
- (روح تطوف)
- (قبر وطيف ومعركة)
- (إلى أبو سليم)
- (في ذكرى رحيله الثالثة)

وختمتْ بما حرَّك وجداننا قبلاً (السابع من فبراير) ..

إنهـا مقالاتـك في وداع (الجـنرال) أحسـنت أنـت في لملمـة جراحـك فيهـا .. وسـكبت فيهـا فيـض إحساسـك .. وفجـرت فينـا براكـين الأسى ..

وأحسـن الوليـد (ونعـم الفتـى هـو) في إخـراج كلماتـك في الكتـاب الأخـير لإصـدارات مركـز أبوسـليم للدراسـات .. وإنـا لنحمـد لـه فعلـه .. وإنـه لكبـير ..

لك .. وله .. نرفع التمام ..

ولك .. وله .. تقديرنا وحبنا ..

ألا لكما الصبر كله ..

ألا لـه مـن رحمـة اللـه مـا يكلـؤه .. ويفيـض عليـه أمنـه وسـلامه .. ويجعـل منزلتـه في عليـين .. في جنـات ونهـر .. في مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر .. اللهـم آمـين ..

المربي عثمان نكولا

خـالي عثـمان كان يحمـل في شـخصه - لا لبسـه - هيبـة المعلمـين ووقـار العلـماء .. هـذا

مـا عرفتـه لاحقـاً .. أمـا في طفولتـي فـإني كلـما رأيتـه متوسـدا الأرض أمـام بيتـه طـرت إليـه .. كان دون غـيره - مـن الأهـل ومجتمـع الكبـار - عـلى اسـتعداد أن يسـمع دروشـتي .. بـل يسـتزيدني .. ويمتحـن حفظـي للقـرآن والأناشـيد في الخلـوة .. فـإذا وصـل رفيـق الـدرب ابنـه أحمـد حبـو تركتـه غير آسـف عـلى فراقـه ..

عندمـا اختـاره الخواجـه ليتعلـم تعليـما نظاميـا في العاصمـة أو غيرهـا لِـمَا رأى فيـه مـن النجابـة ووقـدة الذهـن وحـدة الـذكاء .. اسـتاذن والـده إبراهيـم ، وأخـذه معـه وأردفـه خلفـه في راحلتـه ، وانطلـق بـه .. فلـما أوشـك أن يدخـل عقبـة فركـة في طريقـه إلى وادي حلفـا إذا بإبراهيـم يأمـر ولـده أن يترجـل بسرعـة .. ثـم أردفـه عـلى حـماره الفـاره وانطلـق بـه عائـداً إلى البلـد في قمـة دهشـة المفتـش الخواجـة .. لقـد كان القـوم الذيـن دفعـوا إبراهيـم لينقـذ ابنـه مـن التنصر في انتظـاره بـداره في سـيانيري .. إنهـم أهلـه وأقربـاؤه .. ولم يكونـوا نكـرات ؛ بـل شـيوخ البلـد وزعـماء القريـة وحكماؤهـا .. وكلمتهـم قانـون ورجاؤهـم أوامـر .. لا شيء يعلـو عـلى مـا يقررونـه .. ولم يتأثـر الخـال بمـا حـدث لـه إلا إصرارا عـلى خدمـة النـاس والسـعي في تسـهيل التعليـم لأبنـاء القريـة ..

ومـا تحـدث النـاس عنـي في طفولتـي إلا مـا يحفظونـه عـن شـقاوتي وطـول لسـاني .. ويذكروننـي ببعـض مـا بـدر منـي فأنكـر بعضهـا .. وأعجـب ببعضهـا .. وأذكـر أحداثـا تجـاوزت فيهـا خطوطـا حمـراء في مفهـوم أهلنـا يومئـذ .. كالـذي كان بينـي وبـين عمنـا عـلي جابـر رحمـه اللـه .. لقـد وجدنـا ذكرانـاً وإناثـاً مـن الأطفـال نعـوم في برتـين فجمـع ملابسـنا !! فمـن خـرج منـا عـلا ظهـره المكشـوف بضربـة مـن جريـد أخـضر .. ومـع ذلـك خـرج كل مـن معـي مـن البنـات والأولاد .. فلـما جـاء دوري قلـت لـه مـن غـير مقدمـات مسـتفزا لـه .. مـن أنـت حتـى تضربنـي .. لسـت أبي أو عمـي أو خـالي ... فـترك ملابـسي واندفـع إلى داره..

وكنـت نسـيت الأمـر لمـا وجدتنـي أجلـس أمـام خـالي عثـمان كعـادتي .. ولكـن عمنـا عـلي قطـع حديثـي .. وأبلـغ خـالي بمـا بـدر منـي .. حينئـذ اعتـدل الخـال في جلسـته وأمـرني أن أجلـب لـه مـن جنينتـه جريـدا .. وقـد كان .. لمـا عـدت وجـدت جمعـا مـن النسـاء بينهـن الوالـدة (وهـي التـي حكـت لي أحـداث ذلـك اليـوم وغيرهـا يـوم أن بـدأت اسـتوعب ضوابـط مجتمـع القريـة وقوانينهـم(سـالني الخـال : هـل مـا قالـه عمـك عـلي صحيـح ؟ فأمَّنـتُ عـلى ذلـك .. قـال : وهـل تشـعر بخطـأك ؟.. قلـت: نعـم .. قـال : وأيـن كان الخطـأ ؟ فأخبرتـه .. فقـال : مـا دعـاك إلى ذلـك ؟ قلـت : الخـوف مـن الجريـد .. قـال : إذن تمـدد

أمامي .. ففعلت .. فأعطى الجريد إلى عم علي ليعاقبني أمامه وأمام الناس .. فتلكأ الرجل هيبةً .. قال : إذن لا تحسب نفسك منا .. فبدأ بضربي ولكن في شفقة ظاهرة فلما وصل العدد إلى ثلاثة .. قال : يكفيه..

أبو صلاح كان صديقي ..

أي أسمائك كان أحب إليك : أبو صلاح ، شيخ صالح ، سالي شيخ .. المشكلة أنك لن تعيننا في الرد .. أنت كما أنت .. أنت كما عهدتك .. لم يختلف شيء .. أنت لن ترد علينا .. وما عهدتك ترد على أحد .. نحن نرميك بسهام كلماتنا .. نريد أن نستفزك ولو في مرضك .. وأنت بعيد عنا تتجرع ألواناً من الألم .. يتغضن جبينك ألماً فنظن بك الظنون ، فنزيدك سهاماً أخرى ، وأنت في كل ذلك بعيد .. هل كنت تسمعنا ! هل كنت ترانا وتستمع إلينا ! أم تراك كنت في واد بعيد ، نرى أحيانا ظل ابتسامة تزدان بها وجهك ، وقبل أن نسرع لنبشر بها من أحبوك بكل وجدانهم وعواطفهم ، إذا بك تنكفئ على وجهك ألماً .. ولا تخرج منك آهة .. أو ما يدلنا على أنك تتألم .. ولم أعرف أنك لست معنا إلا يوم أن جاءك سعيد بمقصه ، فرضيت أن يتولى إزالة الشعث عنك .. ولم تشتكي إلا من أنه أطال معك .. إني أشهد اليوم أنك قبلت ذلك اليوم أن يتولى عنك ما كنت لا ترضى أن يتولاه غيرك ـ ولو كان أحب الناس إليك ـ وعندها فقط عرفت أنك لست بخير .. يا من كنت لا أراه إلا قوياً جسماً وعقلاً .. وعندها فقط وافقت سعداً وسعيداً أنك بحاجة إلى طبيب .. وليتنا ما وصلنا إلى قرار الذهاب بك إليه .. فلا شك أننا زدنا من عذابك الذي لم تشأ أن تبوح به إلى أحد منا .. ولا إلى الطبيب نفسه .. يسألك .. فنجيب نحن .. نجري هنا وهنا .. علنا نستطيع أن ننقذك ، جريت ـ رغم كسلي المشهور ـ بين العيادات ، وأقفز دون أن أشعر درجات السلم .. وأنزل .. لأول مرة أصيح في وجه صديقنا الدكتور إبراهيم آدي دوق : ما كان دا العشم يا دكتور .. لأنه تأخر عنا .. ولم يقف بجانبنا في محنتنا .. في مصيبتنا .. لأول مرة أشعر أني غريق .. لأول مرة أشعر أني مكتوف اليد .. لأول مرة أريد أن أتعلق بأي شيء .. ولكني عاجز تماماً وأنا أراك تتلوى ألماً .. وترتمي على صدر سعد .. لما وصل إبراهيم أخيراً كنت قد وصلت إلى حيث لا تفيدك إلا رحمة الله .. ونعم ربي غفوراً رحيماً .. وهكذا رحلت عنا يا أعز الناس .. وتبقى لنا سجل كامل من سيرتك العطرة بيننا ..

لما طلب مني أحدهم أن أكتب عنك .. لم يكن يدري أنه فتح لي باباً من الأحزان .. باباً يقود إلى ما ظللت منذ رحيلك عنا أن أتجنب الاقتراب منه .. باباً كنت أوصدته تماماً وتشاغلت عنه .. أما وقد اضطررت إلى الدخول فيه .. فمن يدلني كيف أبدأ .. كيف أتحرك في جنبات تاريخ طويل ظللنا فيه معاً .. لا يهمك هل جئتني صباحاً .. أم كانت زيارتك بعد منتصف الليل .. وأنت تقول بضحكتك الخاصة : ما يزال الليل طفلاً .. وظللت طفلاً في تعاملك معنا .. براءة وبساطة ومودة بلا حدود .. عندما كنت أصل حلتكم في كربين في طريقي إلى المدرسة .. كنت تكون في انتظارنا بحمارك .. ومنها نجري أمامك .. ولا ينقذنا منك إلا الوصول إلى المدرسة .. ولما قدمت لأول مرة للعاصمة كنت دليلي ومرشدي في بلد لا يرحم ريفياً ساذجاً مثلي إلا إذا كان بصحبته أبو صلاح .. وكنت نعم المرشد .. ونعم الصاحب .. في أول أيامي بالعاصمة اشتهت نفسي الأمارة بالسوء أن أتناول (الباسطة) من بائع متجول .. لا أدري ماذا فعلت يومئذ لي .. ولماذا أتذكرك كلما رأيت بائعاً متجولاً .. وأتجنبه متعمداً .. ولكنك بدلاً من الباسطة دللتني إلى ما يحزن زوجي وهي ترى أكداس الكتب في جنبات البيت ، ولا تعرف أختكم المسكينة أنك سبب هذا الداء الذي أصابني منذ أن كنت أرافقك إلى مكتبات العاصمة .. وتقف ساعات بحثاً عن مؤلف يكاد لا يقرأه غيرك .. وأصابتني العدوى .. لقد ضحكت من أعماقي يوم جئتني في الصباح الباكر قبل مرضك بأيام لأستخرج لك قصيدة لأحد أبنائك .. قلت لك : إن أبناءنا لهم من المناعة القوية ما يحميهم من النظر في قصيدة أو كتاب .. فلا تصيبهم بما أصبتني به ذات يوم .. قلت بجديتك التي كانت تزعجنا للغاية : إننا لم نحاول معهم ، فكيف نحاسبهم ! قلت : إنك واهم .. قال : فاستخرج لي القصيدة إذن .. ترى كيف فعل بها ، وكيف تخارج منها الفتى !.. أم تراه أصابه كما أصابني ! أم تراه عرف نقطة ضعف أبيه ، فدخل عليه منها لينال جهاز جوال ، آلة تصوير (دجيتال) ونحوهما مما يلح عليه أبناؤنا ،ويتشفعون لنيله بمن لا نملك أن نرفض لهم طلباً في سننا هذه ..

لم يكن يهم صديقي في تحقيق هدفه إلا أن يجتهد .. ويبذل غاية جهده .. جدية عرفت بها حتى مع الموجه الفني عندما كان يضطر ـ كلما جاءك (للتفتيش) أن يحمل مراجعه معه .. واذكر أن صديقك فتح الرحمن (رحمه الله) اتصل بي في معهد التأهيل التربوي أن ألحق بك .. فأقبلت متلهفاً فإذا بي أجدكما بخير .. فيقول

بسـخريته وظرفـه : لمـا تأخـرت عـن صاحبـك اضطـررت أن أذهـب وحـدي إلى السـليم لأعـود بـه .. فقلـت : ومـاذا حـدث ؟ قـال : لقـد اختلـف صاحبـك كعادتـه مـع الموجـه في مسـألة جغرافيـة، وجـاء كل منهـما بمراجعـه ، واسـتمرا في النقـاش حتـى عـبرا بالبنطـون وجلسـا بالـشرق يتناقشـان .. سـألته وهـل يسـكن الموجـه بالـشرق ؟ قـال : لا ، لكنـه ظـن أن صالـح يسـكن بالـشرق ، وظـن صالـح أن الموجـه يسـكن بالـشرق .. وبـدأت موجـات التريقـة والسـخرية مـن صديقيـك أحمـد حبـو والأسـتاذ عـوض .. وأنـت كـما أنـت .. قمـت تصلـح لنـا فـولاً ثـم تعـد لنـا شـاياً ، وكذلـك كنـت تتشـاغل عنـي عندمـا سـكنْتُ معـك في غرفـة في الحلـة الجديـدة .. ويـوم أن سرق أحدهـم ملابسـنا ، واقترحـتُ أن نقـدِّم شـكوى .. قلـتَ : لا داعـي ، فـإن السـارق فقـير .. قلـتُ : وهـل تعرفـه؟! : قلـت : نعـم .. ولا أذكـر كيـف تصرفنـا .. ويـوم أن ذهبنـا لزيـارة أحـد أقاربنـا وجاءتنـا المـرأة تحمـل كوبـين مـن الشـاي ، فرأيتـك مسـتمتعاً بمـا تـشرب .. فلـما طلبـت أنـا السـكر وجـدت وجهـك قـد اكفهـر وتغـير .. قلـت لي في تأنيـب واضـح : مـا الـذي كان سـيحدث لـو شربـت بـدون سـكر .. ربمـا لا يملكـون سـكراً ..

كلمات عرجاء
في حرمك يا صديقي

عندمـا فتـح لي البنـدر ذراعيـه ؛ كان مـن حسـن حظـي أننـي دخلـت المدينـة في جِـوار صديقـي أبـو صـلاح .. ومـن دخـل في جـواره فهـو آمـن .. وأصبحنـا لا نـكاد نفـترق .. ويعـرف عنـي .. وأعـرف عنـه أنـه لم يدخـن أو يسـف أو يـشرب ، بـل لم أسـجل لـه أنـه رفـع صوتـه عـلى أحـد ، أو شـتم .. أو اغتـاب أحـداً .. ولم يكـن ليفتـح لي قلبـه وينسـاب في الحديـث المبـاح بـين الأصدقـاء إن كانـوا شـباباً .. ولم أسـمعه يبـدي تعليقـاً عـلى واحـدة ..

أتـراه كان مـن أوليـاء اللـه الصالحـين .. هكـذا كانـت تقـول يـو عواضـة ، وإذا قالـت ؛ فاعلـم أن الـكلام قـد انتهـى.. أمـا صديقنـا الدكتـور يحيـى ، رحمـه اللـه ، فـكان يقـول في حِـدَّة : بـل هـو نبـي ، ثـم يسـتدرك فيقـول : وكذلـك عبـد المجيـد والخطيـب ..

الثابـت أنـه كان يحـب القـراءة .. رأيتـه يجمـع القـرش والقرشـين ، فـإذا زاد مـا جمعـه عـن الطـرادة بقـرش طـار بـه يسـدِّد اشـتراكه في مكتبـة مركـز الثقافـة الأمريـكي (كان بـين المرديـان وكليـة الطـب ثـم تحـول إلى بنـك).. وعشـقه بالأفـلام كان كبـيراً .. وكان تعليقـه على مـا قـرأ أو شـاهد نـادراً .. لكنـه علَّـق في الليلـة التـي شـاهدنا فيهـا الفلـم السـوداني الأول (

آمـال وأحـلام) أول عرضـه في سـينما الوطنيـة بـأم درمـان .. قبـل أن ينتهـي العـرض بدقائـق دفعنـي دفعـاً للخـروج لنلحـق بسـينما الوطنيـة في الخرطـوم تلاتـة .. لمـا بلغنـاه جـرَّ مـن يجلـس عـلى يمينـي نفسـاً طويـلا .. ولخَّـص مـا فاتنـا .. ثـم تـولى هـو بعـد المشـاهدة يقـارن بانفعـال .. ولكـن المشـوار إلى الفلاتـة مشـياً عـلى الأقـدام يقطـع القلـب ..

وكنـا لا نـكاد نـترك فرصـة لحضـور الحفـلات الاجتماعيـة في مدينـة الريـاض نسـتعين بهـا في ليـالي الغربـة الطويلـة وزهجهـا .. إلا شـيخ صالـح .. كان يتخـذ مجلسـه عـلى بـاب الاسـتراحة يحـرس أو ينظـم الذيـن ينسـون أنهـم في المملكـة .. لكنـه كان يطـرب بابتسـامته العريضـة كلـما سـمع صديقـه المنلوجسـت (فتحـي طعميـة) .. ذات مـرة بحـث عنـي طويـلاً حتـى وجـدني أخـيراً عنـد قـصر عمنـا إدريـس .. فجـرني إلى نـادي وادي حلفـا .. وجلسـنا عـلى الأرض نـضرب بأقدامنـا عـلى الأرض كلـما بهرنـا حمـزة عـلاء الديـن بأدائـه العجيـب .. وقتهـا مـا كنـا نعـبِّر عـن انفعالنـا بالتكبـير ..

في حجرتـه التـي لم يشـاهد أهـل الحـي شـباكه مفتوحـاً أو صوتـه مسـموعا .. كان كل واحـد منـا غارقـاً في عالمـه الخـاص .....

لمـاذا تذكرتـك هـذه الليلـة بهـذه الطريقـة ! ولمـاذا وجـدت نفـسي أسـجل خواطـري عنـك ! ولمـاذا جـاءت باهتـة لا تعـبر عـن إحسـاسي بلحظاتهـا .. عـن انفعـالي شـداً وجذبـا بتفاصيلهـا .. لمـاذا أراك تجلـس أمامـي الآن بـكل حيوتـك وقـوة شـخصيتك .. وأوشـك أن أمـد لـك يـدي .. وتخوننـي الكلـمات .. افتقـد بوصلتـي .. صدقنـي إني أفتقـدك الآن ..

في ذكرى العارف بالله (نكولا)

شـفاني اللـه مـن إدمـان الاسـتماع إلى (الراديـو) في صـواردة وسـعدنفنتي ، وليـاليهـا التـي شُـدَّت نجومُهـا بأَمـراس كَتَّـانٍ إِلى صُـمِّ جَنْـدَل .. وكان أحـد زمـلاء التدريـس يشـاركنا في الغرفـة التـي كانـت تسـهر معنـا .. لكنـه كان لا يـأتي إلى سريـره ليـلاً إلا بعـد أن يسـتوي عـلى الآخـر .. .. ومـع مـا هـو فيـه كان يخـاف أن يمـوت وهـو عـلى حالتـه تلـك ، فيـصر أن نحـرِّك مـؤشر الإذاعـة عـلى فقـرات الأخبـار والمناقشـات .. المهـم أن يكـون مشـغولاً بمـا يسـمع ..

في تلـك القريـة كلفنـي رؤوس القـوم بالإمامـة .. بعـد أن سـمعوا أني خريـج الجامعـة الإسـلامية .. وأوشـكت أن أرفـض .. لـولا تدخـل رفيقـي محمـد عثـمان نكـولا بعفويتـه وبسـاطته .. قـال : مـا خوفـك ! إنهـا لا تختلـف عـن التدريـس .. لمـا جلسـنا نناقـش أمـر

هـذه المهمـة .. كان يشـك أوراق اللعـب بتلقائيـة وهـو يقـول:

- انتبـه إلى مـن تخاطـب .. إن مـا يشـترك فيـه غالـب النـاس أولى مـن انتصـارك لرايـك ، وإن وافقـك بعضهـم .. قلـت بلغـة الشـيوخ : فيـه نظـر ..

- انتبـه لكلماتـك وأوزنهـا .. وحـضِّر لهـا .. فإنَّـا محاسـبوك عـلى مـا يظهـر لنـا مـن قولـك .. واللـه أعلـم بالسرائـر ..

- ليـس للنـاس هنـا حـرصٌ يدفعهـم ليعرفـوا عـن الشيشـان أو الجـولان .... بـدلاً مـن ذلـك حدثهـم عـمَّا يهمهـم ، فإنـه كثـير .. ووضِّـح لهـم رأي الديـن فيـه ..

- إذا سـمعك النـاس تحدثهـم عـن مالـك أو الشـافعي أو صاحبيهـما ظنـوك تتحذلـق بمعرفتـك .. فاقـرأ مـن مراجعـك عـما قالـوا فيـما تتناولـه مـن قضيـة .. واخـتر مـا يناسـب أهلنـا وعصرهـم وبيئتهـم وعـبِّر عنـه بلفظـك أنـت .. فإنهـم مصدقـوك ..

- إن أفتـوك ، فـلا تبـادر بالفتـوى حتـى تسـتوثق مـن الحكـم ، وإن لم يكـن لـك بمـا أفتـوك علـم فـلا تفتيهـم .. ولكـن لا تقـل لهـم أنـك عـلى غـير علـم بمـا سـئلت عنـه .. عندئـذٍ قلـت متعجبـاً : فكيـف أتـصرف ؟! قـال : كـما نتـصرف مـع طلابنـا .. أرجـئ النظـر فيـه بسـبب مناسـب ..

كان نكـولا (رحمـه اللـه) فيـما أحسـب عارفـاً باللـه .. صادقـاً في لهجتـه .. حتـى أطلقـوا عليـه الرجـل العاقـل .. وقـد كان كذلـك .. وقـد كنـا وحْدَنـا في تلـك القريـة لا أنيـس لنـا إلا عـواض ليـلاً .. ومحمـد عابديـن (أو عبـد الفتـاح عابديـن) أحيانـاً .. ألا رحـم اللـه ثلاثتهـم .. وأجـزل مثوبتهـم ..

إضاءة :

صديقنـا العلامـة مصطفـى عبـده ، قـال لـه عـوض حـاج عـلي (وكان نائـب مديـر جامعـة النيلـين يومئـذٍ) وهـو يظـن أنـه سـيفاجئه بسـؤاله : متـى أسـلمت يـا مصطفـى ؟ لم يـتردد مصطفـى لحظـة قـال : سـنة ٧٤ لمـا أعـددت الدكتـوراه في الجامعـة الإسـلامية .. لكـن المشـكلة متـى سـتدخلون أنتـم الاسـلام !!! واكتفينـا ثلاثتنـا بالضحـك .. وغيرنـا الموضـوع ..

وتمنيـت أن يسـألني أحدهـم .. كنـت سـأقول دون تـردد أيضـاً : يـوم أن ظنـت بي سـعدنفنتي خـيراً .. لكنـي كنـت سـأضيف باعتـزاز لكـن الـذي دلنـي عـلى الطريـق مـا كان متقيـداً في نظـر بعضهـم ببعـض مظاهـر الإسـلام .. كنـت سـأقول بعـد حمـد اللـه تعـالى : يومهـا رضيـت عـن نفـسي .. لكنـي بعدهـا أحسسـت أني مسـؤول .. أني أحمـل أمانـة ..

عوض سمل
رحل قبل أن نعرفه

سمل اسم العائلة ، وبه تسمى الحي الذي رأى فيه فقيدنا النور .. وغالب الرأي أنه لقب وفد إلينا مع الحكم التركي .. هو اسم الشيخ .. لكنه ألزم الأسرة سمتاً ووقاراً .. وألزم من يحيطون بهم تقديراً واحتراماً .. وما رأيت والد الفقيد إلا مهيباً ، صارم الوجه .. أو هكذا خُيِّل لي في طفولتي حين كان يفد إلى بعض أهله في شياختنا ، ويحل مشاكلهم ، ويفصل في خلافاتهم .. وكذلك كنت أرى شقيقه الأكبر أستاذنا (فرح) في مدرسة عبري الوسطى .. فلما تقدمت بنا السنون .. وتسللت الشعيرات البيض في رؤوسنا تجرأنا لمجالسته .. فهالنا أنَّا كنا نظلم الرجل .. ولم يكن عيبه عندنا إلا إنه لا يعرف صخب الشباب ولا رعونتهم .. لقد كانوا واجهة فالتزموا سمت الوقار .. وكذلك رأيت الفقيد .. وما أظنني اقتربت منه كثيرا في مرحلة تلقي العلم .. وما كنا على قدر معقول من الوداعة لنحتمل شخصا هادئ الطبع .. قليل الكلام .. منضبط السلوك مثله ..

القرية اسمها مقراكة .. وتقلب القاف فاءً أحياناً .. تميزت بجزيرتيها الجميلتين سرقد ودفي .. وهي كباقي قرى عمودية كوشة وادعة ، هادئة .. نخلها باسقات .. وطلعها نضيد .. يرتبط أهلها بغيرهم من قرى العمودية برابطة الدم والنسب .. ولا يمنع أن يرتبطوا بغيرهم من قرى المنطقة شرقا وغربا .. ويشتركون جميعاً في مناسباتهم الاجتماعية .. وصغار مقراكة يتلقون تعليمهم الاولي عند شيخهم الجليل في الخلوة يحفظون السور القصار وبعض الحساب .. فإذا كان يوم الأربعاء جاسوا بيوت قريتهم يجمعون ما يجود به أهليهم من الحبوب أيا كان نوعه وطبخوه في الخلوة بماء وقليل من الملح .. ويتحرك شيخهم مع بعض من يتوسم فيه الخير تلقاء فركة .. المدرسة الأولية الوحيدة في العمودية في ذلك الزمن الجميل .. وفي الخلوة _ كل الخلاوي _ قسوة وكرباج ، وقد تصل العقوبة إلى استخدام الفلقة .. فحفظ القرآن الكريم لا يستقيم مع الاهمال أو اللعب ..

فإذا انصرف الصغار عن الخلوة وجدوا في صفحة النهر الهادئ في مقراكة وبين

جزرها مرتعهم .. وقد ينصرفوا إلى ألعابهم وما أكثرها .. أما في موسم الزراعة فلا معنى للراحة لكل أفراد القرية .. وكذلك في موسم حصاد البلح ..وإن كان وفود بعض التجار إلى القرية بلعب وحلوى مقابل كيل معلوم لكل شيء تمراً كان يمتعهم ..

لم تكن الحياة سهلة في كل المنطقة حتى يجد الصغار راحة أو رفاهية .. إلخ ..

القرية اسمها مقراكه .. وتقلب القاف فاءً أحياناً .. تميزت بجزيرتيها الجميلتين سرقد ودفي .. وهي كباقي قرى عمودية كوشة وادعة ، هادئة .. نخلها باسقات .. وطلعها نضيد .. يرتبط أهلها بغيرهم من قرى العمودية برابطة الدم والنسب .. ولا يمنع أن يرتبطوا بغيرهم من قرى المنطقة شرقا وغربا .. ويشتركوا جميعاً في مناسباتهم الاجتماعية .. وصغار مقراكة يتلقون تعليمهم الأولي عند شيخهم الجليل في الخلوة يحفظون السور القصار وبعض الحساب .. فإذا كان يوم الأربعاء جاسوا خلال بيوت قريتهم يجمعون ما يجود به أهليهم من الحبوب أيا كان نوعه وطبخوه في الخلوة بماء وقليل من الملح .. ويتحرك شيخهم مع بعض من يتوسم فيه الخير تلقاء فركة .. المدرسة الأولية الوحيدة في العمودية في ذلك الزمن الجميل .. وفي الخلوة -كل الخلاوي - قسوة وكرباج ، وقد تصل العقوبة إلى استخدام الفلقة .. فحفظ القرآن الكريم لا يستقيم مع الإهمال أو اللعب ..

فإذا انصرف الصغار عن الخلوة وجدوا في صفحة النهر الهادئ في مقراكة وبين جزرها مرتعهم .. وقد ينصرفون إلى ألعابهم وما أكثرها .. أما في موسم الزراعة فلا معنى للراحة لكل أفراد القرية .. وكذلك في موسم حصاد البلح ..وإن كان وفود بعض التجار إلى القرية بلعب وحلوى مقابل كيل معلوم لكل شيء تمراً كان يمتعهم ..

لم تكن الحياة سهلة في كل المنطقة حتى يجد الصغار راحة أو رفاهية .. إلخ ..

المحور السادس
أحاديث القرية والخور

قدلة
في ظلال شجرة الخور

عندما أوقفونا في تخوم الخور للتفتيش ، وأنزلوا راكبا .. قلت : (يداك أَوْكَتا وفُوك نَفَخ)[1].. ولم يكن من الممكن أن أعود القهقرى .. فقد كان ما كان .. ووجدت نفسي أمام عبد الباقي .. تحت الشجرة .. وتعجبت كثيرا !! أهذا ما حذرني منه زميلي في التأهيل التربوي . وأقسمَ مغلظا أني لن أستطيع أن استمر معه أكثر من أسبوع !! لم أجده ضخما كما توقعت .. ولا تكدِّرُ وجهَه جهامةٌ .. شخص في شكله عادي .. فأين تكمن المشكلة

لقد صدمت إذ وجدت نفسي في معسكر حربي .. لما فكرت ذات ليلة أن اجتاز بوابة المدرسة تعالت الصرخات من حولي .. وأصابتني قعقعة السلاح بفزع مستطير .. فعملت خلف دور .. ولم اكترث ليلتها من ضحك بعضهم خلفي ..

لم تكن مضت على تلك الواقعة غير ليلتين حططت فيها رحالي في الخور بعد أن عافت نفسي من سكنى مدينة النيل في فيلا تزدان بحديقة غناء وردهات وثريات وأشياء أخرى لا أعرف لها اسما .. ولكنها كانت دارا لا يزورك فيها أحد .. ولا تسمع فيها همسا ولا ركزا .. خالية شوارع المدينة إلا من بعض السابلة أو مثلي .. ولم يستقبلني فيها أحد أو يودعني يوم ودعتها أحد .. فوفَّر لنا سكننا بجوار المدرسة مجتمعا نوعيا راقيا ..

خور عمر
الاجتماع الأول

كان الاجتماع تحت الشجرة .. جلسنا فيه أمام أستاذنا عبد الباقي كالعساكر نتلقى الأوامر .. وكانت متعلقة بما ينبغي علينا فعله .. وفي ذلك الاجتماع أو في الذي يليه قال : نريد أن نعود بهذه المدرسة عشرين سنة أو يزيد لنصل إلى ما كنا عليه أيام وادي سيدنا وحنتوب ... وأضاف إن نجاحنا في هذه المدرسة لا يتوقف على المنهج

١- يُقَال لمن يوبخ بِشَيْء عمله ونقول : براك سويتو في نفسك .. واوكت : ربطت ، ويقصد القربة.

أو نوعية الطلاب وتميزهم أو توفير المعينات بقدر ما يتوقف على الانضباط .. ثم ذكرنا أن طلابنا يشكلون المجتمع السوداني بكل جهاته ، وتعدد ثقافته وأفكاره مما يستوجب توظيف هذا الاختلاف لخلق وحدة متجانسة ومجتمع معافى ..

مما يستوجب توظيف هذا الاختلاف لخلق وحدة ومجتمع معافى ..

وكان ما كان .. وبدأت المسيرة القاصدة بعون الله تعالى .. ولا شك أننا لم نكن الأفضل .. ولكننا كنا مؤمنين بما علينا .. مخلصين في أدائنا .. نملك الدافعية الكافية للمضي بخطوات ثابتة وبصيرة لتحقيق أهداف المدرسة ..

خلافا لما توقعت كان التناغم كليا بيننا وبين الإدارة العسكرية .. حتى أوشكوا أن يغيروا رأيي فيهم .. ومع ذلك .. لما عُرض علينا عسكرة المدرسة كنت ضمن الجبهة الرافضة خشية أن التزم بالأوامر والضبط العسكري المعروف .. ومن ثم الطاعة العمياء .. قال لي أحدهم كل الجبناء يحتجون بمثل حججك .. قلت وكأني افتخر : أنا من منطقة لا يحمل أحدنا عصا .. أو يرفع يده على غيره .. أفتريدني أن أحمل سلاحا آخر غير لساني وفكري ..

ولكني أشهد أن الجهاز العسكري قدم نموذجا رائعا للتعامل السوي .. وبهم ومعنا شكلنا مجتمعا رائعا في الخور..

خلافا لما توقعت كان التناغم كليا بيننا وبين الإدارة العسكرية .. حتى أوشكوا أن يغيروا رأيي فيهم .. ومع ذلك .. لما عُرض علينا عسكرة المدرسة كنت ضمن الجبهة الرافضة خشية أن التزم بالأوامر والضبط العسكري المعروف .. ومن ثم الطاعة العمياء .. قال لي أحدهم كل الجبناء يحتجون بمثل حججك .. قلت وكأني افتخر : أنا من منطقة لا يحمل أحدنا عصا .. أو يرفع يده على غيره .. أفتريدني أن أحمل سلاحا آخر غير لساني وفكري ..

ولكني أشهد أن الجهاز العسكري قدَّم نموذجا رائعا للتعامل السوي .. وبهم ومعنا شكلنا مجتمعا رائعا في الخور..

شيخ أب زيد في خور عمر

لم تكن لي أي صلة بالداعية أب زيد حمزة (رحمه الله) مع أني كنت أعرف أنه (من عندينا) .. وكان أسلوب محاوره في الحوار المشهور بين أنصار السنة والصوفية

الـذي قدمـه تلفزيـون السـودان في أوائـل الثمانينـات أقـرب ألى قلبـي مـن أسـلوبه .. وبلـغ مــن إعجابنــا واهتمامنــا بحلقــات الحــوار ومقارعــة كل منهــما لصاحبــه بالفكــر والنــص والحجـة أننـا كنـا نتوجـه كل ثلاثـاء إلى حيـث نجـد جهـازا وهـدوءا عـلى غـرار مشـاهدي مباريـات كأس العـالم ..

لقـد شـغل هـذا الحـوار النـاس كثـيرا .. وفيـه عرفنـا عـن الشـيخ وسـخونته وانفعالـه ولكنتـه المحببـة .. فأحبـه مـن أحبـه .. وتحفـظ بعضنـا .. ولكنهـم احتفظـوا لـه بتقديـر كبير..

كانـت أجـواء الحـوار تمـلأ عـليَّ جوانحـي يـوم أن توجهـت إليـه لدعوتـه لالقـاء محاضرة لطـلاب خـور عمـر .. وكنـا قـد دعونـا قبلـه بعضـا مـن العلـماء ممـن نقـدِّر لهـم علمهـم وخطابهـم الدعـوي ..

لم أكـن قـد حـددت لـه موضوعا معينـا للمحاضرة .. أنسـتني عـن ذلك حفاوتـه وحيويته في لقـائي .. ولعلـه فهـم مـن لكنتـي إني مـن بلدياتـه .. فلـما عرضـت عليـه مـا أقدمنـي إليه لم ينتظـر توضيحـا .. بـل كانـت موافقتـه عـلى الفـور .. وفاجـأني بقولـه : لم لا يكـون موعدنا غدا إن شـاء اللـه .. لم أشـأ أن أقـول لـه إن غـدا هـو موعـد سـباق الضاحيـة الأسـبوعي لطلابنـا .. عندمـا وصـل المدرسـة كان طلابنـا يندفعـون مـن بوابـة المدرسـة في صفـوف منتظمـة وهـم ينشـدون (جلالاتهـم) الاسـلامية مـن قبيـل : صلـوا الصـلا يـا شـباب .. وتصاعـد الغبـار ، وارتفعـت التكبـيرات واصطفـت الصفـوف .. لمـا بـدأوا في أخـذ التـمام التفـتُّ نحـو الشـيخ لاتفـق معـه فوجدتـه وقـد أغرورقـت عينـاه .. ولا يـكاد يملـك نفسـه انفعـالا ..

حاولـت للمـرة الثانيـة .. فقـال اطمـئن يـا ابنـي فقـد حـدَّد شـبابكم الموضـوع .. ولعلـه قـال هـؤلاء لا يخـشى عليهـم .. إنهـم يحتاجـون إلى قـدوة وخطـاب يرقـى لمسـتواهم .. و..

الا رحم الله الشيخ ، وأجزل مثوبته ، وتغمده بفيوضات رحمته .. ورحمنا جميعا..

أبنائي في خور عمر..   شكرا..

كنـا إذا وقـف لنـا أحـد أبنائنـا مـن الطـلاب في مركبـة مـن مقعـده لنجلـس ، نبـادر بشـكره فرحـا..

وإذا مـا أوقـف سـيارته لتوصيلنـا إلى حيـث نريـد.. لا تجـد مـن عبـارات الشـكر مـا ينـاسـب فرحـك بتقديـره لـك..

لما رأيت أحد طلابي يندفع من باب حجرة الكشف ، وهو يلفت نظري ، ويجلسني في صف مرضاه ويعتذر لي ، ثم يتحول فيعتذر لمريضه : عفوا ، هذا استاذي.. وجدت كل مضخات العافية تندفع نحوي وتأخذ بيدي.. وترد لي الابتسامة والفرح..

وما أكثرها من مواقف لم نصرف فيها إزاء معاملتهم وتقديرهم لنا ما يليق من رد الفعل المناسب.. ويدعونا لنعلن سرادق الفرح زهوا وافتخارا بنجابة أبنائنا..

فكيف إذا جاءوك في دارك.. على بعده من المدينة.. يتفقدونك.. ويتجاذبون الحديث معك في مودة.. ويسألون عن حالك وما بلغه أبناؤك من مراتب الدنيا.. ويفاجؤك أحدهم فتجد ليده طريقا إلى جيبك في خفية..

فهل يلام من يجهش بالبكاء حينئذ.. هل تقوى الأرجل أن تحملك لتقول شكرا فتخنقك العبرات..

أولئك .. بل هؤلاء أبنائي في خور عمر.. وتجمع كوكبة خريجيه.. وبهم أفخر.. ولا أملك إلا أن أدعو لهم بالخير والسلامة والأمن والتوفيق والسداد..

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

شكرا لكم أحبابي..

تكملة :

عادة ما أكتب تعليقا لكل من يزين ما أكتبه بكلمة.. وأقلها الشكر.. وقد يجرني التعليق لأتنفس من خلاله مع أحبابي بكلمات مترعات بمودتي..

لأول مرة أشعر أن أي تعليق يفسد ما يترقرق في عيني من زخات الإحساس بنبل فعل أبنائي.. وسجلهم ليس وقفا على ما ذكرت.. لا أملك إلا أن أقول إنكم تقدمون أروع الأمثلة للعرفان بسخاء وأريحية.. ولا يشكر الله من لا يشكر الناس.. وليعفني أحبابي.. وكلكم خدني.. أن أعلق عليهم شاكرا.. فقد كنت منفعلا بحدث وما زلت.. كنت أريد أن أبكي فرحا وقد فعلت.. كنت أريد أن أسجل عني وعن أسرتنا من زملاء الخور تقديرنا.. وأرجو أن يكون معبرا.. لجمعكم الكريم شكري..

مجرد عتاب

كانت تجمعني صداقة خاصة بأخوين كريمين من عبري في مدرسة عبري ، أحدهما عباس حسن كاشف والآخر فوزي عبد الرحيم .. اتفقنا على أن يجلب كل منا بعد كل

عطلـة كتبـا نتبادلهـا بيننـا .. وكان مـن بـين مـا يجلبـه عبـاس قصـص آرسـين لوبـين .. كنـا نقـرأ بنهـم كل مـا تصلـه أيدينـا .. ونناقـش فيـما نقـرأ .. ويمتعنـا فـوزي بـأداء أغـاني الكابلي .. ويجتهـد في تعليمنـا كيـف ندنـدن مثلـه بـلا فائـدة .. وكيـف لصـوت قـروي خشـن أن يحـاكي صوتـه وهـو يـردد روائـع الكابـلي : حبيبـة قلبـي ، يـا ضنـين الوعـد ، اراك عـصي الدمـع ، الفافنـوس ، فرتيقـة ام لبـوس ، خـال فاطمـة ، مـروي ..

سـعيت إليـه مـرة لمـا علمـت بموقعـه .. ومـا كنـت في حاجـة إلى مهنتـه .. إن هـي إلا الشـوق لايـام مضـت مرحـا قضيناهـا .. أيـام كانـت للحيـاة حـلاوة الـروض المطـير .. أيـام لم نعـرف مـن الدنيـا سـوى مـرح الـسرور .. واللهـو والعبـث الـبريء مطمحنـا .. ولا شـك أن لحيـاة الداخليـات أيضـاً جانبهـا المزهـر الـوضيء ..

وحالفنـي الحـظ حـين احترمتنـي سـكرتيرته الحسـناء فأدخلـت اسـمي إليـه .. وجاءتنـي بغـير الوجـه الـذي دخلـتْ بـه .. فانسـحبتُ بغيـظ مكتـوم .. بعـض مـن يهونـون الأمـور عـادة قـال : يمكـن نـسى .. يمكـن ظـروف المرْيَسـة (وهـي غـير الـشراب) ..

فكـرت قبـل أيـام : ومـا الـذي يمنـع !! ومـا الـذي يدعونـا أن نظـن أن النـاس لا يتغـيرون بفعل السـنين !! ما أكثر الملفات التي محوناها .. أو أصابها فايرس النسـيان .. أو اسـتبدلنا فيها ملفـاً بملـف .. وتجاهلنـا فيهـا بعضـا من دعـوات الصداقـة المرفوعـة .. أو حككنا فيها رؤوسـنا لنتذكـر شـخصاً .. أو واقعـة .. أمـا الأسـماء فإنهـا تتـسرب عنـدي مـن القائمة قبل نفـاذ المدة .. كـم فينـا مـن طمـع شـديد لأن نعامَـل بغـير مـا نعامِـل بـه غيرنـا .. وتطفيـف في المواقـف .. ألا يكفيـك أيهـا الجاحـد أن يهـش لـك أبنـاؤك في طـول البـلاد وعرضهـا .. ويبشـون في وجهـك .. أتـراني مسـتحق حقيقـة لاحترامهـم ؟! .. أم إنهـم يجاملـون كـما نجامـل كبارنـا في كل أحوالهـم ؟!.. تكفينـي منهـم الكلمـة الطيبـة وحسـن اسـتقبالهم ..

تذكـرت هــذا وأنـا أتلـو قـول الحـق عـز شـأنه : ﴿ فـلا تقـل لهـما أفٍّ ولا تنهرهـما ، وقــل لهــما قــولاً كريمــاً .. واخفــض لهــما جنــاح الــذل مــن الرحمــة ، وقــل : رب ارحمهــما كــما ربيــاني صغـيرا ﴾ حتــى مــع الوالديــن إن أقــل مــا يطلــب منــا بســيط : ألا يصـدر منـا مـا يـدل عـلى ضجرنـا وضيقنـا بهـم ، ثـم كلـمات طيبـات نطيـب بهـا خاطرهــم.. فهــذا مــا هــم في حاجــة إليــه ، فلــم نضــن عليهــم مــا لايكلفنــا إلا رقــة التعامـل وحسـن القـول !! .. لمـاذا لا نفتـح صفحـة جديـدة مـع معارفنـا وأصدقائنـا !!.. وقولوا لهم حُسناً ..

كلمات عجلى ..
رداً على تحية ..

من قال إننا لا نحب الثناء .. لقد سرني إطراء إحداهن على ما أسطره لكم من خطرفات .. وأشعلَتْ في نفسي إحساساً بأن لما أقوله صدىً .. الله .. الله .. كم كان سروري بهذا الاستحسان عظيماً .. من الأحاديث النبوية التي لها صدى في نفسي ، وتنبئ أن رسولنا الكريم كان عظيماً بحق :ما رواه أنس ﷺ أن رجلاً أخبر النَّبِيِّ ﷺ أنه يحب فِي اللهِ ، شخصاً مرَّ بهم ؛ فقال رسول اللهِ ﷺ : « أخبَرتَه بذلك ؟ « , قال: لا ، قَال: « قُم فأخبِرهُ , تَثبُتُ المَوَدَّةُ بينكما «، فقام إليه فأخبرَه ... أو كما جاء في الحديث .. فلماذا لا نعلن حبنا لمن نحبه .. أو ما نحبه .. أنَّنا نحبه !!

ولعل هذه السيدة الكريمة أعجبها ما نكتب لأنها من بيت أحبت الكتابة ، وتذوقت ضروب الثقافة .. ووالدها أول من كتب في منطقتنا كلها عموداً يومياً في أشهر صحيفة في تلك الأيام .. وهو أول من كتب قصة في المنطقة ونشرها .. وهو أول من مارس فن الكاريكاتير واشتهر به في السودان ..وكان له أسلوبه الخاص الذي يضارع به أبو الكاريكاتير المصري المشهور ب(رخا) .. بل كان له شرف إعداد أطلس السودان لأول مرة ... الخ .. إن أمره يحتاج إلى كتاب .. لن يزعجني كثيراً إن سألني أحدكم : من هو ؟ بل سأقول : لك الحق إن لم تعرف له أعماله .. إذ لم يهتم هو.. ولا أهله من بعده .. بتوثيقه ..

دعوة مني صادقة لجمع تراثه .. فإنه جدير بالكشف عنه ..

أما عمها .. مربي الأجيال .. وأستاذنا .. فأمره عجيب .. وقصته ينبغي أن تسرد .. يكفيني أن أسأل : كم من شبابنا يعرف أنه أول من جمع شباب سركمتو في نشاط ثقافي مسرحي ، وأقنع شباباً في قامة عمنا حافظ والمعلم عبدان وغيرهما بالتمثيل .. أظنني كنت وقتها ما أزال في الخلوة أو في مداخل المدرسة الأولية .. وفيه حفَّظنا عن ظهر قلب مجموعة من الأناشيد الوطنية ، منها رائعة أبو ماضي : (وطن النجوم .. أنا هنا .. حدِّق .. أتذكر من أنا) والتي أحببناها فيما بعد بأداء أحمد المصطفى الخرافي ..

ترى ما الذي يحفظه جيل أحفادي اليوم !!!

عفواً ... فإن حديثي عن بعض أهلها دين مستحق .. وما أظننا نفيهم حقهم ..

ولكنك أنت .. تستحقين أن أحييك على إطرائك .. ولعلك تقبلين ..

ملحق وطن النجوم

جزى الله صديقي ومساعدي في فن الرسم سامي جودة ..

فقد ظن أن لتخصصي العلمي دخلا فيما يحسبه الناس إحساناً مني في الحكي .. ولكني رأيت بعض إخواني في التخصص لا يكاد أحدهم يبين .. ووجدت بين شبابنا من ننحني لهم تقديرا .. ويأخذ ما يسطرونه بمجامع قلوبنا .. ويفجرون فينا طاقة نتطاول بها بينهم حتى يشعر الناس أيضا بنا ..

أجد مذاقاً خاصاً كلما قرأت لثلة من شبابنا أذكر منهم : تامر ، لؤي ، عثمان .. ومن الكهول :كارة وشمس الشموس وآخرون من دونهم معادن عز في سماء قريتنا ، ونجوم فخر نعتز بهم .. ومن ننتظرهم بفارغ الصبر أكثر .. وكأني أراهم رأي العين.. فتقدموا.. فاليوم يومكم .. أما الرائعات منا فملء حديقةٍ زهراً ونسريناً وفُلاً .. لكننا نقول مع المبدع صالوب : (ما بجيب اسمك بي بيان ...) يوم أن كنا نجد في ذكر الأسماء عيبا ..

وكم كنا نعوِّل كثيرا على بعض من ظهروا بقوة في مسرح النادي بالعاصمة .. على غرار من ظهروا في مسرح النادي في القرية .. لما كان لنا نشاط يحسدنا عليه الناس .. وكنا نحضِّر .. وكنا نعدُّ .. وكنا نهيئ لجيلنا القادم مواضع قدم .. ثم توقَّف كل شيء ..

الآن .. لماذا لا نفتح صدر النادي أمام شبابنا لتتفتح الزهور .. ليكون لنا قمم وقامات .. فقد كان يخجلنا ذات يوم أن نستعير من غيرنا من يقدم لنا فقراتنا .. عجبي .. فهلا أسمعنا شيخ النادي كلمته ..

تخاريف مدرس خصوصي

كنت كلما جئتهم التف حولي الصغار.. حلوين بشقاوتهم.. يتباهى كبيرهم انه حفظ النشيد.. أو يحكي عن زملائه.. ويريني اوسطهم لعبته.. مرات يقول لي انظر إلى هذه الحركة.. وليس ثمة حركة.. بينما الصغيرة لثغاء لا تكاد تبين الا في شكواها من اخويها.. لا يجد الوالد وقتا ليجالسني أو الترحيب بي.. ربما لاني آتيهم في زمن عيادته.. ربما.. أما الام فتكون متوترة أثناء تسليمها الأطفال لي.. تحدثني وهي تدلف حجرة أو تخرج من أخرى .. تبحث في حقيبتها.. أو تنظر في ساعة يدها أو.. ما أكثر ما يشغل النساء أن اردن خروجا.. عرفت انهم كانوا بحاجة إلى جليس للصغار.. وانتهت عطلة الصغار.. في المدرسة الخاصة استأذنت المديرة في تلبية من ارادني مدرسا خصوصيا

لابنتهـم.. فضحكـت.. قالـت هـي لا تحتـاج.. ولكنهـم هـم الذيـن يحتاجـون.. يجالسـني ابوهـا في ود واحـترام وكثـير علـم ومزيـج ثقافـة.. وتحدثنـي الام مشـكلات السـاعة وقضايـا العـصر وشيء مـن الفـن.. فـإذا أقبلـت علينـا الصغـيرة بتنورتهـا القصـيرة رفـرف القلـب بجنبـي فرحـا وابتهاجـا .. واهتـزت دواخـلي وربـت وانبتـت فيهـا حدائـق غنـاء وتدفقـت انهـارا مـن لـبن وشيء مـن خمـر.. فأقـول يـا قلـب اتئـد.. فلـو قارنـت لـن تكسـب عنـد القـوم قضيـة.. ومـا جئـت الا لأمـر مـا قصـدوك الا لـه.. وانـصرف مغاضبـا لنفـسي وانـا ادنـدن بنشـيد ميسـون الكلبيـة وعجرفتهـا بعيشـتها البدويـة.. فعـادت للباديـة ..

وعدت لاحضر درسي.. واكوي بنطالي الوحيد..

اليوم الوطني للمملكة :

أحـد طـلابي في الدراسـات العليـا والموظـف يومئـذ في سـفارة خـادم الحرمـين الشريفـين قـدم لي قبـل سـنوات بطاقـة دعـوة لحضـور احتفـالات السـفارة بمناسـبة اليـوم الوطنـي للمملكـة.. وظـن في شـخصي خـيرا فأهـداني مجموعـة مـن اصداراتهـم التعريفيـة.. لمـا سـألني بعـد أيـام أن كنـت قـرأت !.. قلـت : وهـل احتـاج لكـم تعريفـا ؟! إننـا نحبكـم ونحـب المملكـة لأنهـا تضـم أطهـر بقعـة في الأرض.. وقـد بلغتنـا دعـوة أبينـا إبراهيـم فكتـب علينـا أن تهـوي أفئدتنـا إليكـم.. وجعلكـم اللـه في مسـتوى الحـدث لتسـتقبلوا مـن يؤمـون بلدكـم الطاهـر رجـالا ، وعـلى كل ضامـر ، أو سـيارة ، أو أقبـل عليكـم عـلى متـون الخطـوط الجويـة أو البحريـة مـن كل فـج..

إنـه قدرنـا أن نهـوى إليكـم.. وجعـل اللـه قدركـم في خدمـة حجيـج الرحمـن وعـمار بيتـه.. وأعـلى منزلتكـم بهـذه الخدمـة فجعـل مـن حقكـم أن تفتخـروا بذلـك عـلى العالمـين.. وجعلتـم ذلـك رمـزا ولقبـا يمنـح مليككـم مـا يـزدان بـه قـدرا ومكانـة.. فـما أعظمهـا مـن مهنـة.. ومـا أعظمهـا مـن شرف بـاذخ.. يتقـاصر دونـه كل شرف وكل مكانـة..

وقـضى عـلى مـا يزيـد عـلى خمـس سـكان المعمـورة أن يجعلـوا تاريخهـم الحقيقـي يبـدأ يـوم أن نالـوا شرف الانتـماء للإسـلام.. فـإن جـاء موعـد التاريـخ مـع مملكتكـم العاليـة المقـام في قلوبنـا سـطرتم بأحـرف مـن نـور تاريخـا مشرفـا جديـدا : تنظيـما وترتيبـا لمفـردات الحداثـة.. وتوظيـف كل مـا حبـى اللـه مملكتكـم مـن الخـير في تأسـيس دولـة تقـف في عـزة وفخـار مـع رصيفاتهـا مـن الـدول العظمـى وتفوقتـم عليهـم بتعظيـم مقدسـاتنا وتسـخير خيركـم لخدمـة الحجيـج.. وارتباطكـم بالديـن الحـق وقيمـه الإنسـانية..

إن مـن حقكـم أن تحتفلـوا بيومكـم الوطنـي.. بعـد أن وصلتـم إلى هـذا المقـام الرفيـع بسياسـتكم وقيمكـم وتنظيمكـم وأخذكـم بأسـباب صـدارة الأمـم.. ومـن حقنـا أن نحتفـل معكـم ونشـاطركم الفرحـة ونشـارككم الاعتـزاز بمـا حققتمـوه ونعلـن عـن شـكرنا لأشـقائنا بمـا نلقـاه مـن روح الإخـاء في السراء والـضراء.. ونسـأله تعـالى أن يزيدهـم مكانـة وعـزا ، وأن يبسـط عليهـم أمنـه وسـلامه..

شكرا لكم..

سقف الطموحات

كنـت أحسـب نفـسي سـفيراً لبلـدي يـوم أن حطـت بنـا الطائـرة السـعودية في مطـار الريـاض ، وأسـتاذاً في كليـة المعلمـين بهـا .. كان مبلـغ علمـي أننـا نفـوق النـاس علـماً وتمدنـا .. وأننـا أكـثر همـة في العمـل وأشـد انضباطـا في الزمـن ودقـة العمـل ولاسـيما خـارج بلدنـا .. لمـا كادت قناعـاتي أن تتكـسر مـما رأيـت في المطـار .. قلـت في عنجهيـة : فـرق مـادي ، وعندمـا ندخـل في زمـرة دول البـترول سـيكون مطارنـا أفخـم .. ومضيـت مرفـوع الـرأس ..

في أول يـوم لاسـتلامي العمـل مـدَّ لي رئيـس القسـم مجموعـة مـن الأوراق : دعـوة باسـمي لحضـور حفـل الاسـتقبال لأسـاتذة الكليـة .. التقويـم السـنوي .. جـدول المحـاضرات ... لمـا قلبـت ورقـة التقويـم في يـدي قـال لي في بسـاطة : يمكنـك أن تبرمـج سـفرياتك ونشـاطاتك الاجتماعيـة لمـدة خمـس سـنوات قادمـة .. أضـاف : لا عليـك بشـؤون الحجـز أو اسـتخراج الإقامـة وتجديدهـا و... ففـي الكليـة قسـم مختـص بهـذه الاجـراءات .. تذكـرت ما عانيتـه في إجـراءات السـفر عنـد سـفري مـن السـودان منتدبـاً .. واصـل الرجـل : سـيتصل بك الموظـف المسـئول لتسـهيل ذلـك كلـه .. وكأنـه انتبـه لمـا يـدور في ذهنـي ، قـال : التقويـم في المملكـة موحـد في كل الجامعـات والمعاهـد والتعليـم العـام ؛ فموعـد إجـازات أولادك في التعليـم العـام هـو نفـس موعـد إجازاتـك في الكليـة .. قلـت في سري : ومـاذا أقـول هنـا .. فمثـل هـذا العمـل لا يتوقـف عـلى إمكانـات ماليـة بـل هـو انضبـاط إداري ، وجديـة في التخطيـط .. وفـوق ذلـك : احـترام للنـاس .. وتقديـر لمـا يقدمـون مـن عمـل ، وتسـهيل لأمـر المسـلمين ..

عندمـا تقدمـت باسـتقالتي لرئيـس القسـم اجتهـد في معرفـة السـبب الحقيقـي غـير مـا ذكرتـه لهـم في طلبـي .. واجتهـد بإخـلاص أن اسـحب الطلـب ، وكذلـك فعـل عميـد الكليـة

عندما استدعاني لمكتبه .. ولما تكامل عقدهم في احتفال التوديع لم تمنعني العبرات أن أشكرهم لا باسمي فحسب ، بل باسم السودان كله ..

قال لي صديقي أبو حفص ، وهو يودعني : أرجو أن تذكرنا بالخير في بلدك .. ومنذ أن عدت إلى بلدي وأنا أقول في حسرة : ومن سيذكرنا ..

لما عدت مزهواً بما اكتسبته من خبرات .. كانت المقابلة في جامعتي دون ما أمَّلتُ.. كان أصدقائي في القسم يصيبهم الذعر كلما أقبلت عليهم .. ودخلت بعد لأي لمديرها، وكنت أحسبه صديقاً ، وخرجت منه بغير الوجه الذي دخلت به ، ضحك صديقي بسخرية وهو يقول : لقد قطع المدير تذاكرك على التونسية .. ولم أفهم حتى الآن دلالة المصطلح .. بدلاً من ذلك جلست خارج أسوار الجامعة أحتسي كوباً من الشاي، وأنا أردد :

إذا غضِبَتْ عليْكَ بَنو تَميمٍ وَجَدْتَ النّاسَ كلَّهُمُ غِضَابَا

يا رسول الله ...
جئت مشتاقا اليك...
جئت أمني نفسي بزيارتك..
والوقوف بين يديك...
فحالوا بيني وبينك.
جئت وقد حرّك الشوق خطواتي...
و تدفعني نحوك محبتي..
فقالوا إني زائر..

نعم أنا زائر.. ولكني ما توجهت لمن أزورهم إلا لألقاك..

ولو كنت أعرف أن لا ترحيب لزائر.. لما زرتهم.. وما يممت نحوهم..

ألهث وراء كل خبر أتوقع فيه بشارة بأنهم أذنوا لي بالتطعيم.. ليأذنوا لي بزيارتك..

استمع بكل وجداني لكل من يتصل بي.. وأرخي له آذاني رجاء أن يبشرني بميعاد اللقاء..

أتتبع أنباء الزوار مثلي .. ولا أسأل من ينقل لي خبرهم إلا بقولي : هل أذنوا لهم بالزيارة؟. .

يطمنني أهلي أن مصيري أن ألقاك.. ويذكرني بعضهم أن قبول زيارتي بالنية..

لكني لا أسمع في داخلي إلا قول عمر رضي الله عنه : إنك الآن والله أحب إليَّ من نفسي.. فيأتيه الرضى كله : (الآن يا عمر)

فكيف بنا نحن !!

ولكن أليس حقا واجبا أن تزور من تحب..!!

وأن تتحسر إن لم تجد لذلك طريقا.. !

فلماذا أمنع من زيارة بيته الحرام.. وصفيه من خلقه وحبيبه..

لقد شددت إليك رحالي . .

وكل رجائي أن أقف قبالتك.. فكل مسجدك أثر منك.. فيه عشت.. وفيه أقمت.. وما تزال أنفاسك تخالط أرواحنا كما نرجو.. فيه لا نرى جدارا يمنعنا من النظر إليك بقلوبنا.. ولا يحول بيننا وبينك الحديث إليك.. في مقامك السامي نجهر لك بالتحية : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. جزاك الله عن أمتك خيرا.. وأحسن إليك كما أحسنت إليهم.. وأشهد أنك قد بلغت الرسالة.. وأديت الأمانة.. ونصحت الأمة.. وجاهدت في الله حق الجهاد ..

وبشرنا أبو هريرة بقولك : (ما من أحد يسلِّم عليَّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام)

فصلاة الله وسلامه عليك في الأولين .. وصلاة الله وسلامه عليك في الآخرين.. وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين.. وصلى الله عليك وسلم وبارك عدد خلقه .. ورضا نفسه .. وزنة عرشه .. ومداد كلماته..

كنت في مدينة الغاط

عندما نزلت (الغاط) زائراً ، ظننت أني أعود لقريتي في شمال السودان ، وأني أطلُّ على باسقات نخلها ، وطلعها النضيد ، وأشرف من المرتفعات التي تحيط بها على دورها ومزارعها ، فأيقظني مضيفي وهو يجوس بي خلال المدينة ارتاد معالمها ، يقول مغاضباً : إن أنت إلا في الغاط ؛ فتنبه . إنه حرص المبهور ببهجة المدينة المدنية ، واتساق معالم الحداثة فيها بذوق فريد ، هكذا يريدني أن أنظر؛ فألفت نظره إلى عناق الأصالة بالتجديد ، فبينما تكللت منتزهاتها ومزارع نخيلها خضرة وسموقاً ، وشكلت واحة خضراء على سفح شاهقات تلالها التي أضفت عليها بهاءها وأناقتها .. تردك قريتها التراثية إلى عالم أسطوري ساحر ، ويا عجباً لأهلها وقد أبقوا قديمهم بكل

أصالتها وعبقها !! وترى القوم بكل عزتهم وإبائهم ، بكل شموخهم . إنك لتندفع نحو ما أبقوه وراءهم ، تكاد تتلمسهم ، وهم جد أحياء دون أن ينالك فيهم ارتياب ، ولا يعتريك حيالهم كآبة أو نفور ..

نسعى خلال القرية معتبرين آناً ، ومنبهرين كثيراً .. نقف أمام مشهد بما يستحق من الإجلال ، فيدعوك غيره بما عليه من روعة الجمال ، وما أكثر ما يلفت نظرك في المدينة ويحرك وجدانك ، وما أكثر عناصرها الطبيعية الخلابة ممثلة في تراثها التليد وأوديتها ومزارعها وجبالها وتلالها ورمالها ..

حتى إذا انحدرنا إلى مركزها الثقافي ، نرتاد مكتبة الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري ووقفنا على أبهاء المركز وطرازه النجدي الفائق الروعة ، يدعونا الوليد وصحبه في ترحاب .. وما أن يكشف لنا بمحبةٍ أثراً ، يقودنا إلى غيره جزلاً ، وكأني به يعرض علينا سلعة عزيزة ، يأخذ بنا من قسم إلى آخر يشرح لنا سر البرودة الطبيعية التي تنساب إلى قاعة المكتبة ، وضخامة سمك حوائط بنائها ، وسر الإضاءة الهادئة التي تنير جوانبها ، بجانب ما أعد لها من الإضاءة الكهربائية الحديثة ، وغيرها مما وقفنا حياله في انبهار . إنهم يلخصون كل ذلك بأن أبرز ما يميز مبنى دار الرحمانية التي يلحق بها المركز وجود المبنى في بيئة ريفية تحيط به ، فأخذوا بمعطيات البيئة في تصميم المبني واستعملوا في بنائه مواد طبيعية ، فأقاموا بنيانه بمكعبات التبن المحلي وشيدوا بها جدران أبراج التهوية ، واستخدموا غطاء الطين وجريد النخيل والأخشاب في السقف ، وحجر الغاط في تكسية أرضية المبنى ؛ فرفعوا بذلك خواص العزل الحراري ، وأكدوا أن الأصالة العربية تستحق الاعتماد عليها لإبراز شخصيتنا بين العالمين ..

إنك إن أردت أن تتخذ لك مجلساً في قاعة المكتبة فلك فيها متسع بين قاعتها العامة للمطالعة ، أو قاعتها الخاصة إن شئت أن توفر لنفسك جوا مستقلا ومريحا ، وقد تنتقل منها إلى ركن تصفح الإنترنت أو ركن الكتب والدوريات أو ركن مطبوعات المركز الثقافي أو ركن المجموعات الخاصة ، وفي المكتبة قاعة للاجتماعات والدورات التدريبية المتنوعة .. ولعل مكتبة منيرة بنت محمد الملحم للنساء لا تقل إعداداً وبهاءً عن مكتبة الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري الملاصقة لها ..

وما كان اسم الغاط لتثيرني دلالته اللغوية ؛ فقد ذكرت المجامع أن الاسم يطلق على المنخفض الواسع من الأرض ، ومنه الغوط بالدلالة ذاتها ، وذكروا أن الغُوطة هي

اسم البساتين والمياه التي حول دمشق . ويطلق أهل مصر الغيط على الحقل . ونقل لسان العرب عن أبي حنيفة أن كل ما انحدر في الأرض فقد غاط ، وفيه أن الغائط هو المطمئن من الأرض الواسع . وهذه الدلالة متوافقة لما عليها مدينة الغاط في الطبيعة ؛ إذ تراها حين تقدم عليها واحة خضراء في وادي الباطن على السفوح الغربية من حافة جبال طويق ، ولكن الذين عرَّفوا بالمدينة ذكروا أن اسم الغاط يعود إلى لغط السيل ، وهو ضجيجه واحتدامه ، فإذا جادها الغيث ، وكان غزيراً وافراً اندفع سيلها مزمجراً لاغطاً .. وقد أخذوا هذا التعريف مما ذكره عبد الله بن خميس في كتابه معجم اليمامة ، مع أنه صدَّر تعريفه موهناً بقوله : (يبدو أنه مأخوذ من لغط السيل ...) ولم يجزم بتفسيره لدلالة الاسم . وبأي أخذت دلالة الاسم فلا مشاحة ، إذ أخذت الغاط علميتها من إطلاق الاسم عليها دون تبرير .. وحسبي منها أنها أثارتني ..

في استقبال كارة :

حركة الناس قلما تثير في الخاطر ما يجعلك تقف عنده متأملا.. فالناس قد دأبوا يسافرون في أنحاء الوطن أو خارجه ويعودون إليه.. وقد يرفع إليك أن أحد أصدقائك أو بعض اهلك قد سافر أو رجع من غربته ليستقر مؤقتا أو دائما في الوطن.. كان مثل هذا الخبر استثنائيا في القرية لأن ذلك يعني ذبيحة كرامة للوصول أو العودة.. أما في أيامنا فإنك لا تكلف نفسك حينئذ مشقة الوصول إليه للتهنئة أو تقتصر على الاتصال به تلفونيا..

لكن عودة اخي كارة فحالة خاصة.. إذ لم نشعر ببعده عنا حين غربته.. ولما ذهبت إليه مع بعض اهلي بالأمس لم يضطرنا للبحث في معاجم اللغة الاجتماعية عما يصلح من عبارات الاستقبال.. كنا نعرف كيف نشاغله واي القضايا تثيره أكثر.. وتجاوب ضيوفه واصدقاؤه ممن وجدناهم في داره العامرة أو وفدوا أثناء وجودنا معه.. فرفعوا عباءات التكلف.. وتخففوا من هيبة المجاملات المرعية في الاستقبالات العامة.. واحتدم النقاش.. ويعجبك الشيخ سعيد إذا أتيحت له فرصة النيل من الجماعة في شخصي.. ويصل في انفعاله درجة أخشى عليه حينئذ.. يطق.. دفاعا عما يراه حقا.. ولكني تمرست في اثارته.. وكلما أوشك أن يهدأ صببت له زيتا (لعدم البنزين) فيندفع واقفا وكأنه في برنامج الاتجاه المعاكس..

وعندمـا يناقـش النـاس في السياسـة ينسـون الوقـار.. وتتداخـل المقامـات.. ويرغـي بعضهـم ويزبـد.. ويحلفـون وأحيانـا بالطـلاق.. ويقفـون ويجلسـون.. والغلبـة عـادة لمـن كان اعـلا صوتـا.. وأقـل احترامـا لضوابـط الحـوار .. ويغيـب عنهـم الحـس الأمنـي فينـشرون كل مـا قـرأوه في النـت أو سـمعوه في مجالـس الآخريـن.. وكذلـك يكـون نقـاش مشـجعي الهـلال والمريـخ..

وارغـى مثلنـا كارة.. فـإذا جلـس عـلى كرسـيه قـال في ثقـة : آليـت عـلى نفـسي الا أخوض مـع الخائضـين في المناقشـات السياسـية.. قلـت لـه مداعبـا : إذن لـن تجـد مـن تحدثـه.. فالنـاس لا يجـدون تسـلية أخـرى متاحـة.. ويخففـون مـا يعانـون مـن توتـر بالمناقشـات.. وأكثرهـا أثـرا السياسـية.. فالرياضيـة (إذا وجـدت).. ولم يعـد مـن يخرجنـا مـن حالتنـا مـن أدعيـاء الطـرب.. بعـد أن تدفقـت المتحـولات شـكليا في السـاحة.. فتحولنـا مـن مقـام الطـرب إلى سـدة التحكيـم.. ومعاييرنـا : درجـة الكشـف.. درجـة التقليـد.. درجـة البيـاض.. ودرجـات أخـرى حسـب جيـل الحكـم..

ألا ترانا جميعا وليس بيننا من لا يخوض مع الخائضين..

عفـوا.. اسـتفزني أحـد أصدقائـك لمـا سـكت عـن الـكلام المبـاح.. فقلـت في سري إمـا أنـه مـن رجـال الأمـن أو أحـد المسـؤولين في الدولـة.. ولا يمنـع في اتهاماتنـا الجزافيـة أن يكـون مـن أعمـدة الحكومـة العميقـة!!!

نحـن.. أخـي كارة.. إذا اضطررنـا فوقفنـا في الصفـوف المعلومـة إياهـا شـتمنا الحكومـة.. وكذلـك إذا وجدنـا الأسـعار تتصاعـد بـلا حسـيب أو رقيـب.. وإن بـاءت محاولاتنـا في البحـث عـن دواء بالفشـل.. أو تراكمـت الأوسـاخ والحفـر في كل شـوارعنا : شـتمنا سـادتنا وكبراءنـا سرا وعلانيـة..

فـإذا احتربنـا بالـكلام انحـاز كل إلى شـاكلته.. فأيَّـد المؤيـدون.. وفتـش المغبونـون عـن الغلـط.. وهكـذا الأيـام دول.. أو كـما قـال أحمـد شـوقي في مثـل مـا ضربنـا لـه المثـل : أن الروايـة لم تتـم فصـولا..

وعفـواً .. إذ تـاه عنـي الحديـث عـن اسـتقبال حبيبنـا كارة .. لقـد أنسـاني إيـاه سـخف الحديـث عـن السياسـة .. فالعتبـى لـه..

كلمات من أجل دال :

ما إن سمعت بما ناب اهلي في دال من عتو الفيضان وتطاوله.. أجد في نفسي عجزا.. وأشعر تقصيرا.. فما مثل دال ولا أهلنا فيه من يجوز لنا أن نتجاهل ما أصابهم في سكناهم ومالهم وحيواناتهم.. وهم الذين عرفوا بمساندتهم ومشاركتهم في الملمات وعند الباس.. فنعم الاهل هم.. ونعم الأرحام هم.. وعفوا.. فإن الأمر لا يغفر فيه لمثلي أن يتحدث في غير ما يهم الناس.. وما يهم اهلي في دال يوجعني.. يجعلني في حالة لا اطيق فيه نفسي.. وانا لا أملك ما أطيب به خاطرهم .. واشاركهم فيما حل بديارهم.. ولم يعد عندي ما أقدمه لهم سوى كلمات أسوقها لهم .. لم تعد قواي تمكنني من مشاركتهم في الـتروس.. ولا تتحملني حتى اسبح نحوهم.. كما كنت افعل قديما مع اصحابي لاشاركهم افراحهم واسجل اسمي في اتراحهم باسم الوالدين ونيابة عنهم.. وأهلي في دال كانوا وما زالوا يستحقون أن نكون بينهم.. ومعهم.. همهم همنا.. ما أصابهم أصابنا.. لا ردا لمعروف أو جميل وان كان ما قدموه لنا ليس بقليل.. ولكن لأنهم منا..

كنا إذا توجهنا لهم في افراحهم أو اتراحهم وجدنا في خدمتنا قاماتهم الباذخة ونحن أصغر من أبنائهم.. كانوا لا يرون في ذلك تفضلا منهم بل يجدون في خدمة ضيوفهم فرضا .. انهم أعمامي واخوالي حسن سعيد.. خليل داود.. شيخ البلد.. و... و...

عيب مني أن احاول حصرهم.. ومن منهم النكرة أو المجهول في فعل الخيرات والكرم الفياض.. حتى اسجل أسماءهم.. لقد قصدت كل دال رجالا ونساء.. قد لا أعرف أسماء الحلال (جمع حلة) ولا أسماء الناس وخاصة الشباب.. وحاولت أن اتذكر آخر مرة زرت فيها دال.. فاعيتني الذاكرة.. صحيح اني ما فقدتهم لحظة في مناسباتنا في القريتين.. فهم اول الحضور.. واكثر ترحيبا بغيرهم.. وليس ذلك تكلفا منهم بل هو طبع نشاوا عليه.. وتميزوا به.. أياديهم ممدودة إلى غيرهم بغير من أو أذى..

لكم جميعا ارفع تحيتي وأشد على أيديكم.. واسال الله ان يخلف الله عليكم ما فقدتم.. وان ينعم عليكم بالأمان والخير .. وان نتكاتف جميعا في درء آثار الفيضان.. وعلى الشباب في القريتين اعول.. جزاكم الله خيرا..